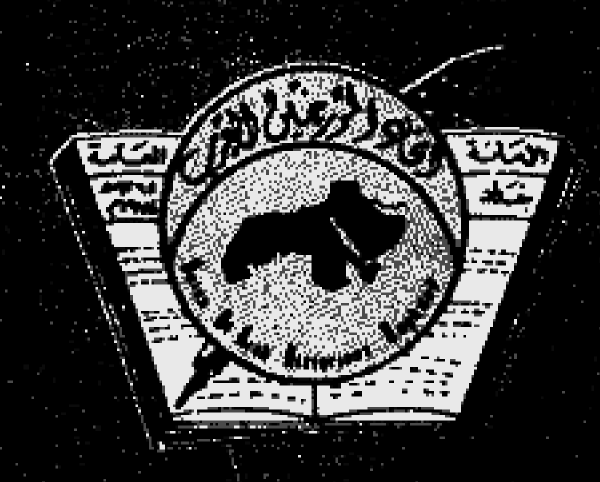


مجلة فصلية تاريخية محكمة تعنى بشؤون التراث والتاريخ العربي والعالمي

العدد «٤٦» ١٤١٤/١٤١٥هـ - ١٩٩٤/١٩٩٥م.

تصدر عن

الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المؤرخ العربي

مجلة فصلية تاريخية محكّمة تعنى بشؤون التراث والتاريخ العربي والعالمي

تصدر عن الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب

العدد «٤٦»

١٤١٤/١٤١٥هـ - ١٩٩٤/١٩٩٥م.

هيئة التحرير

شروط نشر البحوث في المجلة

١- أن يعتمد البحث الأسس العلمية في إعداد وكتابة البحث.

١- أن يكون منسجماً مع أهداف اتحاد المؤرخين العرب.

٣- أن لا يزيد عدد صفحاته عن (٥٠). صفحة

٤- أن لا يكون قد سبق نشره أو قبل للنشر في مجلة أخرى، على أن يقدم كاتب البحث تعهداً يؤكد ذلك مرفقاً برسالة مع البحث موجهة إلى مدير التحرير.

٥- تقبل البحوث في جميع فروع المعرفة التاريخية، وباللغتين العربية والإنجليزية.

٦- يطبع عنوان البحث على ورقة مستقلة، ويفضل أن يكون مختصراً، ويثبت إسم الباحث أو أسماء الباحثين الكاملة والعنوان لكل منهم.

٧- يطبع البحث على وجه واحد من الورقة، وتأخذ كل ورقة رقمها الخاص، ويقدم نسختين.

٨- بالنسبة للبحوث المقدمة إلى المؤتمرات أو الندوات أو ما كان مستقلاً من رسالة أشرف عليها مقدم البحث فيشار إلى ذلك في حاشية البحث.

٩- لأمور فنية خاصة بالطباعة يجب أن توحّد الهوامش بالبحث من أول هامش في البحث إلى آخر هامش فيه، وتعطى تسلسلاً واحداً.

١٠- يحال البحث المقدم للنشر إلى خبير مختص ويُعاد إلى كاتبه لإجراء التعديلات المقترحة إن وجدت على أن يُعاد إلى مدير التحرير في غضون خمسة أيام.

١١- رتُبت البحوث لاعتبارات فنية وهي تعبّر عن آراء أصحابها مع التأكيد على أن مجلة المؤرخ العربي منبر تاريخي قومي تنطق باسم القضية العربية الكبرى.

١٢- والبحوث التي ترد للمجلة لا تعاد إلى أصحابها في حالة عدم نشرها.

١٣- يرجى تدوين إسم الباحث وعنوانه، وعنوان بحثه باللغة الإنجليزية.

ترسل البحوث إلى مكتب مديرة التحرير

د. رناد الخطيب عياد

ص.ب (٩٢٢٠٩٤/١١١٩٢) عمّان - الأردن

بطاقة الاشتراكات

مجلة المؤرخ العربي
الدكتورة رناد الخطيب عياد
مديرة التحرير
ص.ب ٩٢٢٠٩٤ / ١١١٩٢
عمّان – الأردن

قيمة الاشتراك للاقطار العربية
٥٠ دولار للمؤسسات الرسمية
٢٥ دولار للمؤرخين وطلبة معاهد التاريخ

للأقطار الأخرى
١٥٠دولاراً
٥٠ دولاراً

هاتف: ٩٦٢٦/٦٦٢٨٢٨
فاكس: ٩٦٢٦/٦٧٧٦٦٥

ارجو قبول اشتراكي في مجلتكم لمدة سنة واحدة

الاسم : ....

العنوان : ....

المدينة : ....

القطر : ....

التاريخ : ....

يرجى ارسال قائمة بالحساب وتجدون طياً صكاً بقيمة ....

Subscription card

please enter my subscription for

Address:
Dr. Rinad Ayyad
Arab Historians Union Culture Attache

Tel.9626/ 662828. Fax.9626/ 677665. P.O.Box 922094/11192. Amman - Jordan

One year $ 150 for institution
$ 50 for Historians & Students of History
Please Bill me

Check enclosed for ....

Name ....

Address .... Country ....

City ....

Date ....

الهيئة الاستشارية لمجلة المؤرخ العربي

المحتويـات

الافتتاحية

بسم الله الرحمن الرحيم

يسرنا إصدار هذا العدد الجديد من مجلة المؤرخ العربي ونحن متفائلين نحو غد عربي مشرق فيه تتحد الأمة وتزول عنها الغمة بإذن الله، لتصبح أمة موحدة كما كانت خلال مئات السنين، وليكون التاريخ أحد الروابط المشتركة، بين أبنائها عاملاً من عوامل ذلك التوحّد المنشود، ولقد بذلت الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب جهوداً مضنية خلال السنين الماضية من أجل تنقية كل ما علق في التاريخ من شوائب وما غطاه من مغالطات، وعملت من أجل الكشف عما هو غاطس من حقائق التاريخ حتى إعداد هذا العدد (٤٦) تعمل جاهدة من أجل تصحيح الكثير من المغالطات المتعلقة بتاريخ الأمة، وأننا في ذات الوقت عملنا في الأمانة لاتحاد المورخين العرب لإصدار عدد من الأدلة التاريخية التي تصب في ذات الإتجاه الذي يخدم تاريخ وتراث الأمة، وأن هذه الأدلة التي سنقدمها للمؤرخ العربي ستكون إحدى الأدوات والوسائل المساعدة في عملية إعادة كتابة تاريخ الأمة، لأنها تقرّب بين المؤرخين العرب، وتوثق عرى الأخوة والمحبة فيما بينهم، وتسهل لهم الحصول على الكثير من المعلومات عن كل ما له علاقة بالتاريخ والمؤرخ العربي، ومنذ فترة بعيدة ونحن نعمل جاهدين من أجل إصدار تلك الأدلة، وذلك لما لها من مكان في أهمية تقديم الخدمات الكبيرة والجليلة للمؤرخ العربي، وأن أبرز هذه الأدلة التي خططنا لإنجازها والتي انجز بعضها، أو سينجز قريباً:

١- دليل أقسام التاريخ في الجامعات العربية.

٢- دليل عضوية الإتحاد في المحافل الدولية.

٣- دليل الرسائل العلمية التاريخية.

٤- دليل المناهج التاريخية.

٥- دليل المجلات التاريخية.

٦- دليل الجمعيات التاريخية.

٧- دليل مؤرخي آسيا العربية.

٨- دليل مؤرخي أفريقية العربية.

٩- دليل المتاحف ومؤسسات وأقسام الآثار.

١٠- دليل المؤتمرات والندوات العلمية التاريخية.

١١- دليل الهيئة العربية لإعادة كتابة تاريخ الأمة.

١٢- دليل أعضاء الأمانة العامة العامة لاتحاد المؤرخين العرب

١٣- دليل الوثائق التاريخية.

١٤- دليل الاتفاقيات العلمية.

١٥- دليل وسام المؤرخ العربي.

١٦- دليل مراكز المخطوطات والتراث.

١٧- دليل مراكز الدراسات والبحوث العربية والاسلامية التاريخية.

١٨- دليل معهد التاريخ العربي.

ونحن إذ نقدم هذا العدد، وهذه الجهود فنحن على ثقة تامة بأن ثقة المؤرخين العرب ستكون أعمق وأدق بمرور الزمن، وما هذه الجهود التي نقدمها إلاّ دليل على مدى التضحية والوفاء للمؤرخين العرب ولخدمتهم، و نسأل الله تعالى أن يجعل عملنا خالصاً لوجه الله انه سميع مجيب.

والله ولي التوفيق

رئيس التحرير
أ. د. مصطفى عبد القادر النجار
الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب

بحـــوث التـــاريـــخ الحـــديـــث والمـــعـــاصـــر

الأمة العربية والتحديات الصهيونية
خلال الفترة (١٨٨٢ - ١٩٩١)
دراسة تاريخية

د. عبد العزيز قائد سيف

كلية الآداب/ جامعة صنعاء

واجه المجتمع العربي عبر تاريخه القديم والوسيط والحديث والمعاصر تحديات تاريخية كان من أخطرها حركة الاستيطان الصهيونية التي شكلت ولا تزال تحدياً حضارياً للهوية العربية والوجود العربي في الوقت الراهن. ومع المواجهة الأولى بين الحركة الصهيونية والأمة العربية أدرك العرب أن الصهيونية ما هي إلاّ خطوة متقدمة وحلقة من حلقات الاستعمار الغربي، هدفها بسط السيطرة الشاملة على مقدرات الثروة العربية وتسخيرها لخدمة مصالحه. وإزاء هذا التحدي الصهيوني السافر حدث رد فعل عربي شامل يتمثل في اليقظة العربية لمواجهة هذا التحدي الجديد. وتشكل القضية الفلسطينية حجر الأساس في الصراع العربي - الصهيوني على كافة مستويات الوجود السياسي والاجتماعي والاقتصادي والنفسي.

وقد عملت الحركة الصهيونية بصيغتها المعاصرة على توظيف السياسة الدولية لخدمة المشروع الصهيوني في الأراضي العربية. فالصهيونية حركة عنصرية تستمد جذورها من الدين اليهودي وأدبياته ولا سيما التلموذ والعنصر اليهودي، وتقوم على فكرة الاحياء القومي للشعب اليهودي، والعمل على لم شتات اليهود للعودة إلى «صهيون» أي أرض اسرائيل «يهودا والسامرة». هذه الدعوى لا تتفق مع طموحات الحركة القومية العربية التي ترسم حدود الأمة العربية من المحيط الأطلسي غرباً الى الخليج العربي شرقاً.

والمقالة هـذه تعنى بتقديم عرض تاريخي مبسط يوضح طبيعة الصراع العربي - الصهيوني واشكالياته. ذلك الصراع الذي وضع لتمزيق الأمة العربية والاسلامية، وما ترتب عنها من تصادم في نقاط الخلاف المتعلقة بقضيتين جوهريتين: الأراضي العربية والوجود الصهيوني.

أولاً: اشكالية الصراع العربي الصهيوني:

شغل الصراع العربي - الصهيوني حيزاً واسعاً في إطار السياسة الدولية وتعقيداتها المتشعبة في منطقة الشرق الأوسط خلال القرن العشرين. فالحركة الصهيونية تواجه اليوم أزمة عميقة نتيجة النقد الدولي المتزايد تجاه نزعتها التوسعية التي تنتهجها في اقامة المستوطنات اليهودية في الأراضي العربية المحتلة. والمشروع الصهيوني الرامي إلى أنشاء «دولة اسرائيل الكبرى» من النيل الى الفرات - لا يزال يمثل برنامج عمل للدوائر الصهيونية في اسرائيل حتى الوقت الحاضر.

إذا كان نصف الهدف قد تم تحقيقه على مراحل في فلسطين خلال نصف قرن من الزمن، منذ اقرار المنظمة الصهيونية العالمية لـ «برنامج بازل» سنة ١٨٩٧، حتى الاعلان عن قيام الدولة العبرية في ١٥ مايو سنة ١٩٤٨، فإن تحقيق النصف الآخر من المشروع الصهيوني قد اصطدم بعوائق عديدة أهمها:-

١- المقاومة الباسلة للشعب الفلسطيني ضد الاحتلال الاسرائيلي بالدعوة الى الجهاد من أجل تقرير المصير وقيام الدولة الفلسطينية المستقلة على أرض فلسطين.

٢- تصدي الدول العربية للمشروع الصهوني ورفضها الاعتراف بدولة اسرائيل.

٣- تعثر المشروع الصهيوني المتمثل بضم المزيد من أراضي الدول العربية في الظروف الراهنة، خاصة في ظل النظام العالمي الجديد.

هذه هي النظرة العامة لاشكالية الصراع العربي - الصهيوني وخطط تقاطعه أما خلفية النزاع وتطوره منذ مولد «جمعية أحباء صهون» سنة ١٨٨٢، حتى صدور وعد بلفور سنة ١٩١٧. فمن المعروف أن منطقة الشرق الأوسط شهدت سلسلة من الأحداث الكبرى ما زالت آثارها ماثلة للعيان حتى

الوقت الحاضر. ولعل الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨) قد أعطت للحركة الصهيونية فرصة تنفيذ مخططاتها في فلسطين وكان المثقفون اليهود من أتباع ومؤيدي «جمعية أحباء صهيون» في طليعة من نادى بالعودة الجماعية ليهود الشتات الى «صهيون» أي فلسطين، وذلك بعد تراجع «الهاسكلا» – حركة التنوير اليهودية – عن تحقيق اندماج اليهود في المجتمعات الأوربية بسبب ظهور موجة العداء للسامية التي اجتاحت أوروبا خلال القرن المنصرم ومنتصف القرن الأول المعاصر (كما في ألمانيا النازية).

هذا هو حال الفكر الصهيوني باختلاف مدارسه، وهي وجهة ترافقت مع تصاعد حركة الاستعمار خارج القارة الأوروبية. ومن المؤلفات الهامة التي تعبر أحسن تعبير عن هذا الاتجاه ما كتبه كل من موزس هس: «روما والقدس» سنة ١٨٦٢، وموشية ليبلينيوم «بعث الشعب اليهودي» سنة ١٨٨٣، وليو بنسكر: «التحرير الذاتي» سنة ١٨٨٢. فالمؤلف الأخير يعتبر – من وجهة نظرنا – أهم المصادر التاريخية التي اهتدت بها الحركة الصهيونية. لقد لخص بنسكر «المسألة اليهودية» في عبارة لها دلالتها بقوله فيها: «اليهود ليسوا أمة، انهم غرباء مشتتون في اصقاع الأرض، لذا يحتقرهم العالم، وأن مساواة اليهود في الحقوق المدنية والسياسية لا تكفي لرفع شأنهم في أعين العالم، وأن مساواة اليهود في الحقوق المدنية والسياسية لا تكفي لرفع شأنهم في أعين الشعوب..» ويقدم بنسكر حلاً مبسطاً لأزمة الهوية اليهودية بقوله: «الحل الوحيد والصحيح للأزمة الراهنة يتوقف على خلق قومية يهودية، وخلق شعب له كيانه الخاص وأرضه»

كانت فكرة التاريخ في العقيدة الصهيونية – ولا تزال – عبارة عن تصور اسطوري للتراث اليهودي تبحث فيه عن حل للمسألة اليهودية. ويرى ثيودور هرتزل المهندس الفعلي والأب الروحي للحركة الصهيونية الحديثة بلا منازع أن «المسألة اليهودية» ليست مسألة اجتماعية أو دينية، بل هي مسألة قومية صرفة ترتكز علي أربعة عناصر رئيسية: الأرض والشعب والحضارة والكيان السياسي المستقل. وهكذا نجد أن نشاط الحركة الصهيونية يتمحور حول فكرة «الدولة اليهودية»، التي اقترح هرتزل قيامها بقوله: «إذا لم نتمكن من الحصول على أرض للشعب اليهودي في الأرجنتين أو كينيا، فلنقم دولتنا في العريش أو فلسطين.

سعى هرتزل الى ترجمة «المشروع الصهيوني» الى صيغة عملية في مؤتمر بازل سنة ١٨٩٧، ذلك المؤتمر الذي انصهرت فيه جهود الحركة الصهيونية في بوتقة المنظمة الصهيونية العالمية وأهمية «برنامج بازل» تكمن في تمكن قيادته من التوصل الى صيغة نهائية تتضمن ثلاث نقاط جوهرية: (١) تمويل المستعمرات اليهودية في فلسطين، (٢) تنظيم الهجرة اليهودية الى فلسطين بصورة جماعية، (٣) السعي للحصول على براءة قانونية دولية تقضي بقيام الدولة اليهودية.

وقد استغرق الاعداد لأدوات الاستيطان الصهيوني فترة من الوقت، نظراً لانشغال الحركة الصهيونية ببناء مؤسساتها الاجتماعية والاقتصادية داخل فلسطين، وبتأسيس صندوق الائتمان اليهودي (١٨٩٩)، وشركة انجلو – فلسطين المصرفية (١٩٠٣)، وشركة تطوير أراضي فلسطين (١٩٠٨)، والجامعة العبرية (١٩٢٠)، ويمكن القول أن البنية الحقيقية لمؤسسات الدولة اليهودية تكون قد اكتملت. وكان سيل الهجرة اليهودية الى فلسطين في موجات متلاحقة – يمثل الرافد البشري لتشكيل هذه القاعدة، حيث استطاع المهاجرون الصهيونيون الأوائل من تأسيس سلسلة من المستوطنات اليهودية، أهمها مستعمرة «بتاح تكفا» سنة ١٨٧١، أي بوابة الأمل، و «ريشون لصهيون» الأولى في صهيون، وذلك عملاً بالشعار الصهيوني، الذي أطلقه أحد أقطاب الحركة، اسرائيل زانجيول: «تعالوا نعط الشعب الذي لا أرض له أرضاً لا شعب لها.

ومع الاحساس العربي باشتداد الخطر الصهيوني في فلسطين، طلب الفلسطينيون الحد من الزحف اليهودي على بلادهم، غير أن تدفق سيل الهجرة الصهيونية غير المشروعة، وصفقات شراء الأراضي المشبوهة ظلت قائمة. وامتد الاحتجاج الفلسطيني الى معظم الولايات العربية – العثمانية، حيث تحول الى معارضة سياسية للحكم العثماني نتج عنها ظهور الجمعيات السرية والعلنية، كجمعية العهد (١٩١٤)،

والعربية الفتاة (١٩١١)، والجمعية الفلسطينية (١٩١٣)، التي انتقدت بدورها المؤتمر العربي المنعقد في باريس لإغفاله الإشارة الى ظاهرة الهجرة والاستيطان في فلسطين.

لقد دعا الكاتب الفلسطيني نجيب نصار، المثقفين العرب والفلسطينيين الى عقد «مؤتمر لا صهيوني» في نابلس رداً على المؤتمر الصهيوني الحادي عشر الذي كان مقرراً عقده في ڤينا سنة ١٩١٣م.

وعلى كل حال فالجانب الأساسي للنشاطات العربية، هو اشاعة جو من الجيشان الفكري، وروح التكتل السياسي في عدة مدن عربية كالقدس ودمشق والقاهرة ضد الحركتين العنصريتين – الطورانية والصهيونية. ولعل الصوت العربي المسموع في هذه الفترة كان صوت محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار، الذي كان يكرر تحذيراته للعرب والمسلمين من مغبة السكوت عن الغزو الصهيوني لفلسطين فكتب معلقاً بهذا الخصوص: «أترضون أن يسجل التاريخ أن فقراء أضعف الشعوب الذين تلفظهم الحكومات الأوروبية من بلادها من العلم والمعرفة بأساليب العمران وطرقه بحيث يقدرون على امتلاك بلادكم واستعمارها، وجعل أربابها أجراء وأغنيائها فقراء»؟

وبالرغم من انتزاع الحركة الصهيونية لفرامانات عثمانية تسمح لها بالهجرة وشراء أخصب الأراضي الزراعية في فلسطين، لم يتمكن اليهود من بسط نفوذهم عليها بسهولة نتيجة اشتداد المقاومة العربية المسلحة. وقد بدأت الصدامات المسلحة بين السكان العرب واليهود تأخذ مجراها منذ سنة ١٨٨٦، عندما هاجم الفلاحون الفلسطينيون المقتلعون من أراضيهم مستعمرة «بتاح تكفا» وغيرها من المستوطنات الصهيونية. غير أن حجم المقاومة العربية لم تكن لتمتلك المادية والعسكرية المتوفرة لليهود. ومع ذلك، استطاع الفلسطينيون الحد من النشاط الصهيوني الاستيطاني، وحصره في جيوب جغرافية تتركز حول مدن الخليل والقدس وصفد وطبرية. فالعدو الصهيوني لم يتمكن من تنفيذ مخططه المرسوم في غزو فلسطين، حيث ظل السكان اليهود حتى نهاية الحرب العالمية الأولى يشكلون أقلية لا تتعدى ٨٪ بالنسبة للتركيبة السكانية في فلسطين. ولم تتعد الأراضي التي تم الاستيلاء عليها بطرق الغش والخداع بنسبة ٢٪ من مجمل مساحة فلسطين.

ثانياً – الثواب في الصراع العربي – الصهيوني:

إن البعد الزماني والمكاني للصراع العربي – الصهيوني يتيح لنا اليوم ادراك بعض الثوابت الكامنة في صلب «القضية الفلسطينية» منذ بدء دخولها الساحة الدولية بحروبها الساخنة والباردة. ومع الإقرار بأهمية القضية الفلسطينية لا بد من الانطلاق من الحقيقة التي سبق ذكرها: إن مدار التناقض الرئيسي الذي تدخل فيه الأمة العربية طرفاً في الصراع ضد الصهيونية هو الأراضي العربية، وعلي وجه الخصوص أرض فلسطين المغتصبة فالفترة التاريخية الممتدة منذ صدور وعد بلفور (١٩١٧) حتى الإعلان عن قيام دولة اسرائيل (١٩٤٨) يمثل وحدة مترابطة ومؤشراً هاماً لمغزى الصراع العربي الصهيوني وتشعباته.

كانت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨) قد قلبت الموازين الدولية حيث شهدت منطقة الشرق الأوسط تحولات جذرية أسهمت في انهيار الامبراطورية العثمانية، مما أدى الى اقتسام ممتلكاتها العربية بين الدول الاستعمارية «الحلفاء» هذا الحدث التاريخي – في حد ذاته – شكل نهاية عصر قديم «الدولة العثمانية» وبداية عصر جديد «السيطرة الاستعمارية» على مقدرات الأمة العربية، وفرض نظام الانتداب عليها. وفي هذا الجو السائد عرفت الحكومة الصهيونية كيف تستغل الأوضاع الدولية والمحلية لمصلحتها الخاصة. حيث خسر العرب معركتهم. ومنذ صدور وعد بلفور كانت الصهيونية العالمية بزعامة حاييم وايزمان قد شكلت «لجنة صهيونية لإعداد الخطط العملية والكفيلة بتنفيذ الوعد الرامي إلى إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين. وقد منحت حكومة الانتداب البريطاني ممثلي الحركة الصهيونية صلاحيات مطلقة في تكوين أجهزة إدارية تنظم حركة الهجرة والاستيطان والزراعة والتعليم والإعلام وشكلت فيما بعد نواة الدولة العبرية.

وإزاء السياسة الاستعمارية المحابية للصهيونية، وقف الشعب الفلسطيني بكل قوته متحدياً المشاريع الاستيطانية في أرضه. ورفضت الحركة القومية العربية الموحدة في سوريا الطبيعية

الاعتراف بوعد بلفور، وقاومت الاحتلالين الفرنسي والبريطاني وصك الانتداب الذي يتنافى مع الطموح العربي في تقرير المصير والاستقلال. وأمام تجاهل حكومة الانتداب البريطاني للمطالب العربية، برزت المقاومة الفلسطينية في شكل انتفاضات شعبية وثورات مسلحة، كانت أهمها ثورة يافا (١٩٢١)، وحركة القسام (١٩٣٥) والثورة الفلسطينية الكبرى (١٩٣٦-١٩٣٩).

ونتيجة لاشتداد المقاومة العربية، أعلنت الحكومة البريطانية تشكيل «لجنة التحقيق الملكية» سنة ١٩٣٧، وأوصت هذه اللجنة في تقريرها بتقسيم فلسطين الى دولتين عربية ويهودية سنة ١٩٣٩. لقد رفض الفلسطينيون مشروع التقسيم ووقفوا ضده وتألفت في العواصم والمدن العربية «لجان الدفاع عن فلسطين» واشتدت في المقابل تدابير القمع والإرهاب التي مارستها سلطات الانتداب البريطاني جنباً إلى جنب مع الحركة الصهيونية. ولم يتوقف لهيب الثورة الفلسطينية الكبرى إلاّ بعد تدخل الملوك والأمراء العرب ووساطتهم لإنهاء الأزمة. وبقبول الفلسطينيين الوساطة العربية عام ١٩٣٩ يمكن القول أن القضية الفلسطينية، دخلت في نفق السياسة العربية.

وفي هذه الأثناء رفضت العناصر الصهيونية المتطرفة قبول قرار التقسيم، وفكرة تعايش العرب واليهود في دولتين متجاورتين. فالصهيونية التصحيحية بزعامة فلاديمير جابوتنسكي رفضت الاعتراف بالقرار، كما وجهت نقدها الشديد ضد المنظمة الصهيونية العالمية لتبنيها سياسة التغلغل الاقتصادي في فلسطين. فالوجهة السياسية للصهيونية التصحيحية بزعامة جابوتنسكي طرحت بقوة مقولة الاستقلال السياسي للشعب اليهودي في يهودا والسامرة. وفي سبيل تحقيق هذه الهدف اشترطت على المنطقة اتخاذ خطوتين هامتين: الأولى تأسيس الجيش اليهودي، والثانية انهاء الانتداب البريطاني كخطوة تمهيدية لإعلان استقلال الدولة اليهودية. واستدعى الأمر أن تشهر الصهيونية كل أسلحتها في وجه سلطات الانتداب البريطاني والشعب الفلسطيني، عندما حاولت الحكومة عشية الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥) التقرب من العرب وتهدئتهم بالتزامها سياسة محايدة في النزاع العربي الصهيوني.

ومما لا شك فيه أن تناقضات السياسة البريطانية بأشكالها المختلفة تجاه العرب واليهود كانت قد ولدت مع الزمن موقفاً سياسياً متفجراً في فلسطين يصعب تلافيه فوعد بلفور، وتشجيع الهجرة اليهودية مع وضع القيود عليها عن طريق إصدار «الكتب البيضاء» بين الفينة والأخرى لتهدئة عرب فلسطين، ساعد على خلق كراهية مشتركة ضدها من قبل العرب واليهود على حد سواء. وبعد أن تأكد لسلطات الانتداب البريطاني عجزها الكامل عن السيطرة على الموقف الأمني المتفجر في البلاد، أعلنت عن نيتها بالإنسحاب من فلسطين سنة ١٩٤٧، وتحويل القضية برمتها الى الأمم المتحدة.

ومع بدء انسحاب القوات البريطانية من المنطقة، تفجر الصراع العربي - الصهيوني ليشمل معظم أجزاء فلسطين، حيث حسمت الجولة الأولى من الصراع لصالح اليهود. وعلى اثر الانتصار العسكري الذي حققه اليهود على الجيوش العربية، أعلنت الحركة الصهيونية في ١٤ مايو سنة ١٩٤٨، قيام الدولة العبرية في فلسطين دون أية إشارة لحدودها. والمعروف أن إعلان وثيقة الاستقلال «الدولة الصهيونية» قد تم على حساب «الدولة الفلسطينية» فالإستقلال السياسي للكيان الصهيوني لم يكن أساً جدياً لاغياً للدولة الفلسطينية، وإنما كان اطاراً استمرت فيه تلك الصراعات وتشبعت واحتدمت وتسارعت وتيرتها كما سنرى.

ثالثاً - المتغيرات في الصراع العربي - الصهيوني:

إن الإعلان عن قيام الكيان الصهيوني عام ١٩٤٨، لم يكن غاية نهائية للصهيونية وإنما كان وسيلة لتحقيق الحلم الكبير المتمثل بقيام «اسرائيل الكبرى» من النيل الى الفرات. ولنا أن نتسائل، ما مدى اتساع رقعة الأرض التي تنوي الحركة الصهيونية اقامة دولتها عليها؟.

والإجابة لا تتطلب منا فذلكة تاريخية، ما دامت الثوابت ماثلة للعيان في ظل المتغيرات الجديدة في الصراع العربي - الصهيوني. لقد أثبتت الأحداث أن التوسع الصهيوني قد تجاوز فلسطين ليطال عواصم وأرض عربية خالصة. فالمجال الحيوي للكيان الصهيوني يتعدى الحدود التوراتية - يهودا والسامرة

خاصة مع استمرارية تدفق سيل الهجرة اليهودية الى الأراضي العربية المحتلة. وقد وعى هذه الظاهرة الاستعمارية المؤرخ اليهودي، ماكسيم ردونسون، في كتابه «اسرائيل دولة استعمارية – استيطانية» حيث يقارن التجربة الصهيونية في فلسطين بتجربة الاستعمار الأمريكي في العالم الجديد، الذي لعب فيه العنصر الانجلو – سكسوني دوراً عنصرياً متميزاً في تقويض حضارة الهنود الحمر هناك بواسطة القوة وهذا ما تسعى الى تنفيذه اسرائيل في الوطن العربي بتوظيفها التكنولوجيا الحديثة التي تمنحها تفوقها عسكرياً لها فرص هيمنتها السياسية والاقتصادية على المنطقة.

والمفارقة التاريخية هي أن الكيان الصهيوني بدولته العنصرية «اسرائيل» في فلسطين يشق الوطن العربي شقاً عمودياً وشقاً أفقياً، يرفض الاعتراف بالحق العربي في الوقت الذي يطالب فيه العرب جميعاً والفلسطينيون بوجه خاص الاعتراف بوجوده، فمن أولى معطيات الوجود الصهيوني أنه جسم غريب في فلسطين قائم على العدوان والاغتصاب. ومن معطياته أيضاً أنه وجود غير مكتمل التحقيق سواء من ناحية الطموح الجغرافي، أو من ناحية الطموح السكاني. إذ اسرائيل اليوم لم تعد مجرد اصطلاح جغرافي، بل أشبه ما يكون بكيان هلامي يصعب على الهيئات الدولية تصنيفه في حدود ثابتة المعالم.

وفي هذا الاتجاه، شنت الصهيونية خمسة حروب اقليمية مدمرة ضد العرب، كانت في الغالب لصالح التوسع الصهيوني. فقد قامت الصهيونية باحتلال أجزاء كبيرة من الأراضي العربية، وطردت مئات الآلاف من السكان المدنيين بعد مصادرة أراضيهم. تلك الحروب الخمسة كانت تدعم من قبل الامبريالية والصهيونية العالمية.

وكانت الحرب العربية – الاسرائيلية الأولى (نكبة ١٩٤٨) الكارثة الحقيقية التي خسرت فيها الأمة العربية جيوشها في تلك الحرب، الأمر الذي أتاح للصهيونية اعلان قيام اسر ائيل على معظم الأراضي الفلسطينية. وجاءت الحرب العربية الاسرائيلية الثانية (العدوان الثلاثي) في سنة ١٩٥٦، ليستفيق الحرب من جديد على حقيقة التحالف الاستعماري – الصهيوني وأطماعها في الأراضي العربية. وسرعان ما اتضح بما لا يقبل الشك أن اسرائيل كانت تتحين الفرص المناسبة للقيام بعدوان جديد علي الجمهورية العربية المتحدة سنة ١٩٦٧، التي كانت بمثابة رأس الحربة للمقاومة العربية. وبهزيمة يونيو ١٩٦٧، استكملت اسرائيل احتلالها لما تبقى من التراب الفلسطيني، فضلاً عن استيلائها على الجولان والضفة الغربية وغزة وسيناء. ولعل حرب الخليج (١٩٩٠)، هي الحرب العربية – العربية – الامبريالية، التي لم تشارك فيها اسرائيل خوفاً من أن يؤدي تدخلها الى تلاحم الجبهة العربية المتصدعة كما حدث في حرب رمضان (١٩٧٣)، وحرب لبنان (١٩٨٢)، التي أثبت العرب فيها مقدرتهم القتالية في مناطحة الآلة العسكرية الاسرائيلية.

ان استمرارية الوجود الصهيوني في الأراضي العربية أصبح يشكل خطراً متزايد على الوجود العربي شعباً وأرضاً وحضارة. فالالتزام بالخط المنطقي لسير الأمور والأحداث يفرض بالضرورة مراجعة الأحداث التاريخية التي تلتقي فيها مصالح الصهيونية مع مصالح الاستعمار منذ صدور قرار هيئة الأمم المتحدة رقم (١٨١) القاضي بتقسيم فلسطين، والقرارات الأخيرة المتعلقة بانسحاب اسرائيل من الأراضي العربية، خاصة القرار (٢٤٢)، وامكانيات تطبيقها على أرض الواقع في ظل الظروف الدولية الراهنة.

ولعله من المفيد الإشارة الى أن قرار اسرائيل بمنح الفلسطينيين «الحكم الذاتي» رسم خريطة واضحة المعالم للحل الصهيوني الجاهز للقضية الفلسطينية. وتظهر هذه الدعوة في تحرك دوائر سياسية عالمية، وفي مطالب قطاع واسع في المجتمع الاسرائيلي بالبحث عن حل للمشكلة، خاصة بعد الانتفاضة الفلسطينية الشعبية سنة ١٩٨٨. فالحكم الذاتي الذي يزعم الكيان الصهيوني منحه للفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة هو عبارة عن «مجلس إداري» يرفض ضمناً الاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في ممارسة ارادته الجامعية في إطار من السيادة والاستقلال. وبالمقابل لا يشير الطرف الاسرائيلي الى وضع مدينة القدس في ضوء الحكم الذاتي، متجاهلاً أن القدس تشكل حجر الزاوية في صلب القضية الفلسطينية، مثلما

تشكل القضية الفلسطينية النقطة المركزية في الصراع العربي – الصهيوني، فالنتيجة المباشرة لهذا الموقف الصهيوني هي ضياع فرص السلام والدعوة الى الحرب.

خاتمة

– مستقبل الصراع العربي – الصهيوني في ظل المتغيرات الجديدة:

اتسمت العلاقات العربية الصهيونية في العصر الحديث بخصوصية واضحة المعالم يغلب عليها النزاع بدلاً من التعايش، علي عكس ما حدث من احتكاك حضاري بنّاء بين الطرفين ابان المد العربي الاسلامي في العصور الوسطى. والانتقال بهذه العلاقة المتوترة الى حالة الانسجام لا يمكن أن تتم إلاّ وفق شروط متكافئة يقبل بها الجميع عن طيب خاطر. وتأخذ العلاقة في هذا المجال طابعاً حاداً: فالاعتراف العربي بالوجود الصهيوني «دولة اسرائيل» يمثل ضربة قاصمة للقضية الفلسطينية، والاعتراف بحقوق الشعب العربي الفلسطيني، يقوض النظرية الصهيونية. ولعل أخطر ما في الأمر أن الكيان الصهيوني والعديد من القوى الدولية المؤثرة «أمريكا والاتحاد السوفييتي» في سير الأحداث، والمتفاعلة مع الصراع العربي – الاسرائيلي «المجموعة الأوربية قد قطعت شوطاً بعيداً في طرح البدائل أمام مشروع السلام العربي الداعي لفكرة «السلام مقابل الأرض» بالمشروع الصهيوني القائم على دعوة «السلام مقابل السلام».

وعملية الاسقاط هذه دقيقة ومتشابكة مع دعوة «السلام مقابل السلام» فهي في جوهرها ترفض الاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في الوجود كشعب له كيانه السياسي المستقبل وترفض ضمناً الانسحاب من الأراضي العربية المحتلة. وتحاول القوى الدولية والمحلية الضغط من أجل السير قدماً في محادثات السلام العربية – الاسرائيلية، في اطار الشرعية الدولية والنظام العالمي الجديد، وما يتفرع عنها أو يرتبط بها. أما الأساليب التي يلجأ لها الطرف الآخر، فعديدة ومتنوعة، وهي كلها متأرجحة بين أساليب الترهيب، من جهة الاستمالة، أو بين أساليب الإقناع وأساليب الإكراه، من جهة الحوار.

ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى بعض الظواهر التي برزت أثناء الجولة الأولى لمؤتمر السلام في مدريد من خلال الموقفين العربي والاسرائيلي:

١– بات واضحاً أن العرب – عرب الطوق – استوعبوا درساً بليغاً في أبعاد الصراع العربي – الصهيوني ومضامينه ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، بقدر من الانفتاح والموضوعية تمشياً مع المتغيرات الجديدة على المستويين الاقليمي والعالمي. والملاحظ أن العرب المشاركين في مؤتمر مدريد للسلام ركزوا جل اهتمامهم على المسائل الجوهرية التي تمس السيادة العربية، ومن أهمها تبنيهم لمقولة «السلام مقابل الأرض» كصيغة لا تقبل الجدل والمساومة.

٢– تأييد معظم الأقطار العربية لهذا الموقف علناً الأمر الذي قلل من تصدع الجبهة العربية المتأزمة منذ اندلاع حرب الخليج، ويبدو أن القيادة السياسية الفلسطينية التي قادت جبهة الرفض العربي في أعقاب محادثات كامب ديفيد قد غيرت موقفها السابق جنباً الى جنب مع سوريا ووافقت على الحوار العربي الاسرائيلي، إلاّ أن درجة الحماس قد تفاوتت بين المنظمات الفلسطينية من جهة، والدول العربية الممتنعة عن المشاركة من جهة أخرى.

٣– التغلب على العقدة النفسية العربية الرافضة لفكرة الحوار العربي – الاسرائيلي كي يتسنى للعرب التقاط أنفاسهم في جولة السلام على أمل استرداد الحق العربي المهدور في جولات الحرب السابقة. على أن عدم التوصل عربياً الى ائتلاف جبهي على مستوى دول الطوق – سوف يصيب الموقف العربي بالعجز عن مواجهة الصهيونية في ساحة وجودها الدولية، وعلى وجه الخصوص في ظل النظام العالمي الجديد.

٤– كسب العرب مزيداً من التضامن العالمي مع قضيتهم العادلة ذات الصلة الوثيقة بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره واستقلاله السياسي، أي قيام الدولة الفلسطينية. غير أن هناك قاسماً مشتركاً بين أطراف النزاع جميعاً، هو الإقرار المتبادل المشوب بالحذر والتربص كما تجلى ذلك في الموقف العربي والموقف الصهيوني أثناء محادثات مدريد للسلام.

٥- تبقى الخلافات السطحية والجذرية بين أطراف النزاع العربي - االاسرائيلي في الوصول الى اتفاق متبادل على الحدود الدولية والمشاركة في استقلال الموارد المائية، ومسألة التغلغل الاقتصادي الاسرائيلي في الأسواق العربية، أي بلورة فكرة عملية التطبيع بصورة عملية تؤدي الى التكامل الاقتصادي الذي تعسر انجازه في الإطار العربي، وأخيراً تجريد منطقة الشرق الأوسط من أسلحة الدمار الشامل.

٦- في هذا السياق وحده نستطيع استشراف مستقبل العلاقات العربية - الاسرائيلية في ضوء المعطيات الموضوعية المستجدة لاحتمالية التوصل الى سلام عادل ودائم بين أطراف النزاع. ومن الثابت لدينا أن عملية السلام كخطوة ضرورية متفق عليها سلباً أو إيجاباً، إذ تم التوصل اليه، قد يتسم بالانسجام والاتفاق، وقد يتحول فجأة الى تنافس وتناحر، وصراع من أجل البقاء أو الفناء.



الخطط الدراسية بأقسام التاريخ في جامعة أم درمان الاسلامية

د. التوم الطالب محمد
جامعة ام درمان الاسلامية
السودان

مقدمة:

الحمد لله الذي أخرج الناس من الظلمات الى النور، وهداهم الى الحق وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون والصلاة والسلام على محمد النذير الخاتم ورسول الأنسانية وعلى سائر أنبياء الله أجمعين.

وبعد:-

فإن هذا البحث «الخطط الدراسية بأقسام التاريخ في جامعة أم درمان الاسلامية» محاولة - متواضعة - الغرض منها المشاركة في هذا المؤتمر الجامع الذي يعد خطوة متقدمة ومباركة في العمل على خلق وعاء جديد واعد لتوحيد المناهج والخطط الدراسية بأقسام التاريخ في الجامعات العربية والتي هي في مسيس الحاجة لمثل هذا العمل وخاصة في هذا الظرف الدقيق الذي تمر به الأمة العربية وهي تسعى لبناء جسور الوحدة بين شعوبها، وذلك لأن دراسة التاريخ تمثل دراسة أمة لها سماتها وخصائصها ومقوماتها المميزة.

وفي هذا الإطار سأحاول اعطاء فكرة موجزة عن الخطط الدراسية بأقسام التاريخ في جامعة أم درمان الاسلامية مع الإشارة الى بعض الصعوبات التي تواجه هذه الجامعة في تنفيذ وتحديث هذه الخطط بالصورة التي تمكنها من الاسهام في بناء جيل جديد يعي دوره ومكانته في بناء أمته.

ولعله من المناسب أن أشير في هذه العجالة الى العوامل التي دفعت الأمة العربية أن تهتم بدراسة التاريخ في مؤسساتها التعليمية وذلك لما أصاب العالم العربي من موجة الجمود الفكري والحضاري التي مني بها إثر هجمة الاستعمار الأوروبي عليه منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي، كما دعم الانفصال السياسي والحضاري بين شقي العالم العربي «المشرق والمغرب» ولم يفق العرب من صدمة الاستعمار الأوروبي إلاّ بعد مضي ما يزيد على نصف قرن من الزمان جاءت بعد انطلاقة التحرير الأولى في المشرق والتي انتهت بتحقيق أحلام العرب في الحرية. فأخذوا يمدون يد العون لاخوانهم في المغرب حتى استطاع شعبه أن ينال ثمرة كفاحه(1).

وقد صحبت حركة التحرير هذه ثورة أخرى شملت معظم جوانب الحياة السياسية والفكرية والاجتماعية، كان في مقدمتها حركة احياء واسعة النطاق كان من أبرز مظاهرها البحث عن الكتب التاريخية ودراستها ونشرها باعتبارها أداة للكشف عن ملكات العرب وطاقاتهم الإبداعية ومصدراً ملهماً للأمجاد والبطولات. وعلى هذا النحو تزايد الإقبال على الدراسة التاريخية في كافة الأصعدة وخاصة المؤسسات التعليمية من المعاهد والجامعات، وقد أدى ذلك للاهتمام بالبحث في علم التاريخ عند العرب، ومناهج البحث فيه، وقامت الأقسام التي تهتم به بوضع خطط دراسته(2).

ومنذئذ أصبح اهتمام الجامعات العربية بدراسة التاريخ أمر ذي بال حيث أخذت كل جامعة تعمل على انشاء كليات لدراسة العلوم الانسانية وكان في مقدمة أقسام هذه الكليات أقسام التاريخ، وأخذت كل جامعة تضع الخطط الدراسية حسب ظروفها الأكاديمية التي تمكنها من تحقيق أهدافها العليا، علماً بأنه - وحتى الآن - لا توجد خطط موحدة لتحقيق الأهداف المشتركة التي قد تساعد في بناء وحدة الهدف والمصير للأمة العربية.

ومن هذا المنطلق ينبغي أن تعمل الجامعات العربية على توحيد الأهداف العامة لأقسام التاريخ حتى تستطيع تحقيق الغاية المنشودة منه والتي يمكن الإشارة اليها في هذه النقاط :-

١- مساعدة الطالب على اكتساب المعارف التاريخية المختلفة

مع التركيز على تاريخ وحضارة البلاد العربية.

٢- مساعدة الطالب على تنمية خبرة مستقلة متعاونة مع التركيز على حضارة البلاد العربية والاسلامية.

٣- مساعدة الطالب على تنمية جوانب شخصية وإغناء معلوماته من خلال تعرفه على تجارب وأحوال المجتمع الاسلامي وحضارته وحضارة الشعوب والمجتمعات الأخرى.

٤- إعداد جيل من الباحثين والعارفين يمكنهم مواجهة متطلبات الحياة العلمية في الجامعات العربية من أجل العمل على بناء مجتمع أفضل حاضراً ومستقبلاً.

٥- المشاركة في اعداد جيل من المعلمين المؤهلين أكاديمياً ومهنياً خاصة في كليات التربية للقيام بمهمة التدريس وواجباته في المراحل الدراسية المختلفة.

٦- إشاعة روح البحث العلمي التاريخي وحوافزه لدى البارزين من الطلاب من أجل اعداد نواة هيئة تدريس جامعية يمكنها النهوض بأعباء الدراسات الجامعية المتنوعة[٣].

وفي ضوء هذه الأهداف وغيرها نرجو أن نوفق في العمل على توحيد الخطط الدراسية لأقسام التاريخ بالجامعات العربية حتى تستطيع أن تقوم بدورها المنوط بها في جيل الغد الذي نأمل أن يحقق طموحات هذه الأمة الحضارية من أجل الوحدة والنماء.

نبذة تاريخية عن جامعة أم درمان الاسلامية

جامعة أم درمان من أقدم الجامعات بالسودان، وهي المؤسسة الوحيدة التي التزمت بإعداد جيل من الشباب يؤمن برسالة الاسلام ويلتزم بتعاليمه ويدافع عن فكر الاسلام انطلاقاً من طبيعتها وامتداداً لتاريخها وارتكازاً على استراتيجيتها، وهي بهذا المفهوم ليست مؤسسة تعليمية تصنع القيادات العلمية فحسب - وإن كان هذا من صميم عملها - ولكنها مع ذلك وقبل كل ذلك لها رسالتها الخاصة بها وطبيعتها المميزة لها المنبثقة من تراث الأمة السودانية وقد أدرك دورها العالم العربي والاسلامي واعترف بما تقوم به من جهود فاعلة في خدمة العرب والمسلمين[٤]. ومن الملاحظ أن الشعب السوداني قد عني عناية فاقت حد التصور بالقرآن الكريم والدراسات الشرعية وعلوم اللغة منذ أن دخل الاسلام في السودان واستمر هذا الاهتمام بهذه العلوم حتى في ظل الاستعمار الانجليزي الذي سعى للفصل بين شخصية الأمة وتراثها في التربية والتعليم.

ولذا فقد سعى نفر كريم من أهل السودان من الحادبين على نشر وسيادة تلك القيم في معهد أم درمان العلمي الذي أصبح نواة للجامعة الاسلامية في سنة ١٩١٢م[٥] اعتصاماً بهوية الأمة وتراثها فاستجاب لهم المواطنون المخلصون والعلماء وبجهودهم اكتملت مراحل المعهد التعليمية وتخرجت الدفعة الأولى من حملة الشهادة العلمية سنة ١٩٢٤م.

وظل هذا المعهد معلماً بارزاً في تاريخ التعليم في السودان حيث أنه أصبح أول مؤسسة سودانية تمنح درجة جامعية وفي سنة ١٩٣٩م نادى مؤتمر الخريجين العام - رائد الحركة الوطنية السودانية - باصلاح المعهد العلمي حتى يقوم برسالته خير قيام، حيث أخذ المعهد يستعين ببعض الأساتذة المتخصصين من الأزهر لدعم هيئة التدريس فيه، وذلك في سنة ١٩٤٣م حيث أطلق عليه اسم: «القسم العالي».

وفي عام ١٩٤٨م أنشئ مجلس أعلى لإدارته على نهج مجالس الجامعات الآن وفي سنة ١٩٥٢م أدخل بالقسم العالي نظام التخصص، فأنشئ به قسمان أحدهما للدراسات العربية، والثاني للدراسات الاسلامية، ثم تطور الى كلية اسلامية في سنة ١٩٦٣م، ثم تحولت هذه الكلية بموجب قرار مجلس الوزراء رقم ٣٩٠ بتاريخ ١٩٦٥/٧/٧م الى جامعة أم درمان الاسلامية، حيث أصبحت تضم الكليات الآتية:

١- كلية الشريعة والقانون.

٢- كلية الآداب.

٣- كلية البنات.

ومنذ ذلك التاريخ أصبحت كلية الآداب هي التي تشرف على قسم التاريخ والحضارة الاسلامية الذي نحن بصدد دراسة خططه.

واقع قسم التاريخ:

أ- خطط الدراسة:

تقوم خطط ومناهج قسم التاريخ والحضارة الاسلامية

الحالية على تدريس مواد التاريخ وفقاً لحقب التاريخ المختلفة المتعارف عليها علمياً. وهي التاريخ القديم وتاريخ العصور الوسطى، والتاريخ الحديث والمعاصر علاوة على التاريخ الاسلامي.

ففي التاريخ القديم ندرس المواد الآتية:-

١- مبادئ علم الآثار والحضارات القديمة:

وهي مادة تعنى بتعريف الطالب بتاريخ علم الآثار وتطوره وطرقه التعليمية مثل القياسات والجمع والتصنيف والاكتشافات وطرقها من خرائط وتصوير جوي وحفريات كما تهدف الى تعريف الطالب بتاريخ المدنيات والحضارات القديمة مبتدئة بقصة خلق الانسان ورأي القرآن فيها، ثم العصور الحجرية القديمة وبداية معرفة الكتابة، ثم يتناول الحضارات الانسانية القديمة مثل «الفرعونية وحضارة بلاد ما بين النهرين، وحضارة الهلال الخصيب، ثم حضارات الإغريق والرومان.

٢- أما المادة الأخرى من مواد التاريخ القديم فهي عبارة عن دراسة اقليمية تعنى بدراسة حضارة وادي النيل القديم متناولة مصادر التاريخ المصري القديم وطبيعته ونشأته وتطور الممالك المصرية القديمة والوسطى والحديثة، مركزة على مظاهرها الحضارية والعلاقات بين تلك الممالك والممالك السودانية بجنوب الوادي.

ومن ثم تتناول الدراسة نشأة وتطور الحضارات التي قامت في جنوب الوادي مثل حضارة كرمة وكوش ومروي خاتمة ذلك بالممالك المسيحية.

ونشير الى أن هاتين المادتين تدرسان لطلاب الفرقة الأولى بواقع ساعتين في الاسبوع لكل مادة على مدار العام الدراسي.

٣- بجانب ذلك فإن هناك مادة تاريخ الممالك العربية قبل الاسلام وهي تبحث في تاريخ الجزيرة العربية قبل الاسلام من حيث العقائد الدينية والحياة الاجتماعية والسياسية.

أما تاريخ العصور الوسطى فيشتمل على:-

١- تاريخ السودان الوسيط وهي مادة تعنى بتاريخ السودان في العصور الوسطى أي في الفترة الممتدة من بداية القرن السادس عشر الى الربع الأول من القرن التاسع عشر وتشمل تاريخ السودان منذ بدء دخول القبائل العربية وانتشار الاسلام وتأثير الهجرات العربية في وسط وشرق السودان، وما أدى اليه من قيام ممالك اسلامية سودانية مثل: الفونج «مملكة سنار» والفور والمسبعات وتقلى وغيرها.

٢- تاريخ أوروبا في العصور الوسطى:

وهي مادة تعنى بتعريف الدارس بتاريخ أوروبا في أعقاب انهيار الامبراطورية الرومانية وظهور الديانة المسيحية مركزة على اثر المسيحية في حضارة أوروبا ونشأة البابوية وصراعها مع السلطة الزمنية والامبراطورية، مع التذكير على تأثير الاسلام في أوروبا في تلك الفترة وانتشار الحضارة الاسلامية فيه، بجانب دراسة المجتمع الاقطاعي وتأثيره، وتناول الأحوال الفكرية. علماً بأن لكل من مادة تاريخ السودان الوسيط وتاريخ أوروبا في العصور الوسطى يتم تدريسها ضمن مواد الفرقة الثانية.

٣- أما المادة الثالثة من مواد تاريخ العصور الوسطى، فهي مادة الاسلام والصليبيون، والتي تعنى بدراسة العلاقات بين الاسلام والعالم المسيحي منذ مطلع القرن الحادي عشر مروراً بالحروب الصليبية وتكوين الإمارات اللاتينية في الشرق الاسلامي وقيام حركة الجهاد ضد الغزو الصليبي، ومن ثم نتائج تلك الحروب وتأثيراتها على العالمين الاسلامي والمسيحي.

٤- وبجانب ما سبق فهناك مادة تاريخ افريقية حتى مطلع القرن التاسع عشر، والتي تتعرض لمكانة افريقية في التاريخ، واتصالها بالحضارات القديمة ثم دخول المسيحية والاسلام في افريقية ونشأة الدول والممالك في غرب وشرق افريقية الى بداية اتصال أوروبا بأفريقية الاسلامية.

أما التاريخ الاسلامي والذي يعد الركيزة الأساسية فيحظى بنصيب الأسد من مساقات الدراسة والتي تغطي معظم حقبة التاريخ المختلفة بدءاً بالدولة الاسلامية منذ ظهور الاسلام وحتى سقوط الدولة الأموية (١٣٢هـ) والدولة العباسية منذ قيامها وحتى سقوطها، والدولة العثمانية منذ ظهورها وحتى سقوطها في سنة ١٩٢٤م. ومواد التاريخ الاسلامي التي تدرس في هذا المجال تشتمل على:-

١- الدولة الاسلامية:

وتتضمن نشأة الدولة الاسلامية منذ البعثة الشريفة وقيام دولة المدينة والخلافة الراشدة الى ظهور الدولة الأموية ثم سقوطها ١٣٢هـ.

ومن الملاحظ أن هذه الفترة التاريخية وإن لم تكن طويلة في امتدادها الزمني مقارنة بغيرها من فترات التاريخ، إلاّ أنها ثرية بأحداثها التاريخية بل أنها تحتوي على فترات تاريخية هامة في التاريخ الاسلامي وهي عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين وعصر الدولة الأموية حيث يشكل كل منها فترة تاريخية قائمة بذاتها. ولعل دمج هذه الفترات الثلاث وتدريسها في مادة واحدة كان نتيجة لتأثير المدرسة التاريخية التي تقسم فترة التاريخ الاسلامي وفق أسس «عنصرية» إذ تعتبر الفترة الممتدة من العصر النبوي لنهاية الدولة الأموية فترة غلبة العنصر العربي ومن ثم فإنها تطلق على تلك الفترة الدولة الاسلامية العربية وذلك مما لا شك فيه يرجع الى التأثير الاستشراقي الذي يجب الابتعاد عنه.

ولعل واضعي المناهج لقسم التاريخ بجامعة أم درمان الاسلامية يعللون دمج تلك الفترات التاريخية الثلاث في مادة واحدة لأن نظام العام الدراسي الواحد يتيح فترة زمنية طويلة تمكن من تغطية المقرر خلال سنة دراسية واحدة يصعب معها تقسيم المادة الى ثلاث مواد دراسية، يتطلب كل منها امتحاناً منفصلاً ومع اقتناعنا بصعوبة عقد ثلاثة امتحانات منفصلة في العام الدراسي الواحد وهو ما يمكن التغلب عليه بنظام الدراسة الفصلية «أي تقسيم العام الدراسي الى فصلين دراسيين منفصلين». وهو ما يعرف بنظام الساعات المعتمدة.

ونرى أن دمج هذه الفترات التاريخية الثلاث في مادة واحدة يؤدي الى تهميش فترات دراسية هامة من التاريخ الاسلامي لها أهميتها في بلورة شخصية طالب هذه الجامعة وهو ما عملت الخطط الدراسية الجديدة في القسم على تلافيه والذي سنتناوله في حديثنا عن المحور الثاني لهذه الفترة.

٢- الدولة العباسية:

وهذه المادة تشمل تاريخ العصرين، العباسي الأول والثاني (١٣٢-٢٣٢هـ، ٢٣٢-٢٥٦). وفي العصر الأول تتناول الدراسة قيام الدولة العباسية وأهم مظاهر العصر والتطور السياسي للدولة ودور الحركات السياسية والدينية المعارضة لها، بجانب علاقتها الخارجية. وأما العصر الثاني فيركز فيه على تفكك الدولة مركزياً وخضوعها لنفوذ العناصر الوافدة وظهور الدويلات المستقلة.

ونرى أن هذه المادة ينبغي أن تقسم الى ثلاث مواد. العصر العباسي الأول مادة قائمة بذاتها، العصر الثاني مادة قائمة بذاتها، والمادة الثالثة الدويلات المستقلة.

٣- أما المادة الثالثة من مواد التاريخ الاسلامي، هي مادة الحضارة الاسلامية، تتضمن أصول الحضارة الاسلامية، والنظم الاسلامية والسياسية والإدارة المالية والحربية والقضائية والحياة الاجتماعية والعلمية.

٤- أما المادة الرابعة فهي تاريخ الدولة العثمانية (١٧٥٠-١٩١٩م):

وهي تشتمل على جانبين، أولهما تاريخ الأتراك العثمانيين وقيام دولتهم وتطورها السياسي والحربي، والجانب الثاني يركز على بدء انهيار النظام الحربي للدولة العثمانية وبدء ما يعرف بعهد التنظيمات وظهور الحركات الوطنية والاسلامية والقومية وأثرها على الدولة وتماسكها، ثم قيام الحرب العالمية الأولى ونتائجها المتمثلة في الثورة العربية وسقوط الخلافة العثمانية.

وإن كانت هذه المادة تعد من التاريخ الحديث إلاّ أن قسم التاريخ بجامعة أم درمان الاسلامية يعتبرها امتداداً للتاريخ الاسلامي.

ونلاحظ أن هذه المادة قد ضغطت ضغطاً شديداً لفترة تاريخية هامة كان من الأولى تقسيمها الى مادتين دراسيتين منفصلتين وهو ما عالجته الخطة الدراسية الجديدة.

٥- ومن المواد التي تقع ضمن مواد التاريخ الاسلامي مادة تاريخ شمال افريقيا، وهي مادة تعنى حقيقة بتاريخ المغرب والأندلس في العصر الاسلامي، إذ تتضمن الفتح الاسلامي للمغرب وانتشار الاسلام والنفوذ العربي في تلك البلاد وامتداد النفوذ الاسلامي للأندلس والدول الاسلامية التي قامت في تلك البلاد حتى اضمحلال النفوذ الاسلامي العربي فيها. ومن ثمّ قيام دولتي المرابطين والموحدين.

ومما لا شك فيه أن هذه الفترة قد استغرقت حوالي ثمانية قرون كان ينبغي أن تقسم الى ثلاث مواد على الأقل، هي: تاريخ المغرب، وتاريخ الأندلس، وتاريخ المرابطين الموحدين.

٦- وبجانب ذلك فهناك دراسة لتاريخ الحركات الاسلامية المعاصرة أو ما يعرف بحركات البعث الاسلامي الحديث في القرنين التاسع عشر والعشرين، تشمل مرحلة اليقظة الاسلامية في القرن التاسع عشر ومشروعات الوحدة الاسلامية مع التعرض الدولي، والحركات الاسلامية التي ظهرت في القرن العشرين، ثم دراسة الفكر الاسلامي منذ بداية القرن العشرين بدءاً بحركة الأفغاني ومحمد عبده والأخوان المسلمين والجماعة الاسلامية في الهند... وعلى الرغم من أن هذه المادة تعد في التاريخ الحديث إلاّ أنها اعتبرت من مواد التاريخ الاسلامي حسب قرار مجلس القسم.

أما فيما يتعلق بالتاريخ الحديث فتدرس مادتان فقط، هما تاريخ السودان الحديث والذي يتناول تاريخ السودان منذ مطلع القرن التاسع عشر ووقوع السودان تحت حكم الخلافة العثمانية ممثلة في محمد علي باشا وخلفائه في مصر الى قيام الثورة المهدية وانشاء الدولة المهدية متناولة تطورها السياسي والاقتصادي والاجتماعي وعلاقاتها الخارجية حتى سقوطها على يد الاستعمار البريطاني في ١٨٩٩م.

ومادة تاريخ أوروبا الحديث والتي تشمل دراسة عصر النهضة الأوروبية وما صاحبها من نتائج مثل حركة الكشوف الجغرافية والإصلاح الديني، وتقدم العلوم الطبيعية، والتطور الفكري، والثورة الدستورية في انجلترا، والثورة الفرنسية والثورة الصناعية ونمو الحركات القومية وكيف انعكست في توحيد ألمانيا وايطاليا من ثم وقوع المانيا تحت سياسة بسمارك، أو ما يعرف بسياسة توازن القوى.

أما فترة التاريخ المعاصر فتمثلها مادتان هما: تاريخ السودان المعاصر والذي يركز على فترة الحكم الثنائي، ونشوء الحركة الوطنية ونضالها من أجل الاستقلال الذي تحقق في ١٩٥٦م.

أما المادة الثانية فهي مادة تاريخ أوروبا المعاصر والتي تغطي الفترة الممتدة من الحرب العالمية الأولى الى نهاية الحرب العالمية الثانية وما تلاها من توتر في العلاقات بين الشرق والغرب، وفترة الحرب الباردة الى عام ١٩٥٦م.

وبالإضافة الى هذه المواد التي ورد ذكرها، فإن طلاب قسم التاريخ بالجامعة الاسلامية يدرسون عدة مواد تمثل متطلبات الجامعة مثل القرآن الكريم والتوحيد والحديث، علاوة على مواد الثقافة الاسلامية، ومتطلبات كلية الآداب، مثل اللغة العربية والانجليزية.

ب - أعضاء هيئة التدريس:

أما بالنسبة لأعضاء هيئة التدريس بالقسم، فقد كان نقصهم يشكل عقبة كبرى - حتى نهاية العام الدراسي ١٩٩٠/٨٩م - في استقرار الدراسة بالقسم من حيث الكم والنوع والعلاقة بين الطالب وأستاذه، والنشاط الأكاديمي مثل المنارات والإصدارات البحثية.

فقد كانت قوة القسم في العام ١٩٨٩/٨٨م تتكون من خمسة أساتذة، واحد منهم بدرجة أستاذ (بروفسور) وثلاثة بدرجة أستاذ مشارك وواحد بدرجة محاضر (أستاذ مساعد) كما أصبح يعرف حديثاً. ويضاف الى ذلك ثلاثة معارين خارج البلاد وقد تناقص هذا العدد الى ثلاثة عام ١٩٩٠/٨٩م لخروج اثنين آخرين في اعارة خارجية. وبعد حرب الخليج عاد المعارون كما انضم الى قائمة القسم أستاذان، حيث أصبح العدد الكلي الآن حسب تخصصاتهم كالآتي:-

	العدد
١- التاريخ الحديث	**٢**
٢- التاريخ الاسلامي	**٢**
٣- التاريخ القديم	**١**

وكان ذلك بلا ريب يشكل اخلالاً كبيراً من حيث العدد المفروض تواجده بالقسم تبعاً للتوازن في التخصصات. لذلك فإن أساتذة القسم يتحملون عبئاً كبيراً من حيث عدد ساعات التدريس والإشراف الأكاديمي، حيث وصل عدد الساعات التدريسية عند بعضهم الى ثمانية عشر ساعة أسبوعياً. كما أن القسم كان يعتمد على المتعاونين من أساتذة الجامعات الأخرى لسد النقص.

وتعد الإعارة الخارجية هي أحد الأسباب الرئيسية للنقص المستمر في أعضاء هيئة التدريس بالقسم. غير أن الموقف تحسن

الآن كثيراً بالقسم حيث ارتفع عدد أعضاء هيئة التدريس الى تسعة أستاتذة بعد عودة اثنين من المعارين وتعيين محاضر في التاريخ الأوروبي الحديث وتعيين ثلاثة في التاريخ الاسلامي أحدهما بدرجة أستاذ مشارك.

أما بالنسبة لمساعدي التدريس فحتى بداية العام الدراسي الحالي لم يكن يوجد بالقسم إلاّ مساعد تدريس واحد وهو حاليا في بعثة دراسية بالمغرب للتخصص في التاريخ الاسلامي وقد أضيف اليه اثنان آخران هما الآن في بعثة دراسية لنيل درجة الماجستير والدكتوراة أحدهما بالجامعة الأردنية حيث تخصص في التاريخ الاسلامي والآخر طالبة في بعثة بجامعة برهين بالنرويج وتخصصها في تاريخ السودان.

إن قسم التاريخ بجامعة أم درمان الاسلامية يشكل في الواقع وحدتين متكاملتين أحداهما بكلية الآداب والأخرى بكلية البنات، والقسمان منفصلان من حيث الطلاب والطالبات ولكنهما قسم واحد من حيث المناهج والخطط الدراسية والأساتذة، إذ يقوم الأساتذة بالتدريس في القسمين عدا أن النساء لا يسمح لهن بتدريس الطلاب كما أنه يوجد مجلس واحد للقسمين. لذلك فإنه عند الحديث عن قسم التاريخ بجامعة أم درمان الاسلامية فإن ذلك يعني ضمناً قسمي التاريخ بكل من كلية الآداب والبنات.

جـ- المرافق المساعدة للتدريس

إن واقع قسم التاريخ بجامعة أم درمان الاسلامية من حيث المرافق المساعدة للتدريس يمكن وصفه من ناحية المراجع الأساسية في موضوعات التاريخ المختلفة يتوفر الحد الأدنى منها تقريباً مع غلبة مراجع التاريخ الاسلامي وتاريخ السودان في عصوره المختلفة. أما بقية المواد فتعاني من قلة المراجع فيها كما تقل النسبة كثيراً بالنسبة لآخر ما أنتجته المطابع في مجال الدراسات التاريخية خاصة في مجال التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والتي تنعدم تماماً في بعض فروعها. أما الدوريات فعددها قليل جداً وغير منتظمة بالصورة العلمية المرجوة كما تفتقر الى الدوريات باللغات الأجنبية والتي تشكل غياباً تاماً.

إن النقص في المراجع الأساسية والكتب الدراسية والتي تعد أداة هامة من الأدوات المساعدة لتدريس التاريخ، يعزى في المقام الأول لضعف الإمكانات المادية للجامعة والتي قعدت بها عن توفير الميزانية المطلوبة لتطوير المكتبة المركزية أو العمل على انشاء مكتبات للأقسام المختلفة وتوفير احتياجات قسم التاريخ من حيث الكتب والدوريات والمخطوطات والوثائق.

لقد سعى القسم منذ سنوات مضت لإنشاء مكتبة خاصة به يستفيد منها أساتذته وطلابه، لكن شح الإمكانات وقف حائلاً دون تنفيذ ذلك.

وبناء على ذلك فإن الأساتذة يعتمدون على مكتباتهم الخاصة ومكتبات الجامعات الأخرى.

أما بالنسبة لمراكز الوثائق وغيرها من الأدوات المساعدة فإنه لا يوجد حالياً لدى الجامعة أو القسم أي مركز للوثائق، حيث يعتمد الدارسون من طلاب قسم التاريخ اعتماداً أساسياً على مخطوطات دار الوثائق المركزية ومكتبة السودان والمتحف القومي وهي مؤسسات قومية. إلاّ أنه تجدر الإشارة هنا بأن مجلس الجامعة قد قرر قبل سنتين انشاء مركز للتراث الاسلامي في السودان وافريقيا يعنى بجمع المخطوطات والوثائق وتدوين الروايات الشفهية. إلاّ أن ظروفاً عدة حالت دون تنفيذ هذا المشروع غير أن الفكرة برزت مرة أخرى الى حيز الوجود هذه الأيام وتجد اهتماماً - كبيراً - من مدير الجامعة الحالي هذا الى جانب التفكير في انشاء مركز للغات الشرقية والأفريقية والذي يساعد كثيراً - بدون شك - دارسي التاريخ في القيام بدورهم المنوط بهم.

٢- تطور قسم التاريخ:

أ- الرؤية المستقبلية لبرامج القسم:

بعد أن تعرضنا فيما سبق الى واقع قسم التاريخ بجامعة أم درمان الاسلامية من حيث الخطط الدراسية وأعضاء هيئة التدريس والمرافق المساعدة للتدريس، رأيت أنه من الأوفق أن نتناول فيما يلي خطط القسم المستقبلية تجاه تطوره وإزالة العقبات التي قعدت به عن تحقيق رسالته على الوجه الأكمل والمطلوب.

كما هو معروف أن التطور هو سنة الحياة والعمل في إعادة النظر في واقع الحال سعياً في الوصول الى الأفضل والأكمل هو عنوان للقدرة على الإنجاز إذ أن الاحساس بجوانب

القصور وضرورة اصلاحها أولى خطوات الاصلاح.

من ثم فإن القائمين على أمر قسم التاريخ بجامعة أم درمان الاسلامية قد لمسوا القصور ورأوا ضرورة معالجته على اعتبار أن التاريخ وإن كان يعنى بالماضي وأحداثه وعبره فهو ليس مدة جامدة لا جزوة فيها، بل بركان يتجدد في اكتشافاته وتفسيراته وتحليلاته، وعلم يتطور مع تطور الحياة نفسها، ومن ثم فإن الثبات فيه على أمر واحد يقعد بنا على الاستفادة منه في حياتنا.

إن الأحداث الجارية في بلادنا على الواقع المحلي وفي عالمنا الاسلامي والعربي وفي العالم من حولنا وموقعنا في خارطة هذه الاحداث بل وموقفنا منها يجب أن يجعل للتاريخ بصفة عامة وتاريخنا الاسلامي والعربي بصفة خاصة أهمية كبرى في وعينا وتفكيرنا، ومن ثم يجعلنا ننظر للتاريخ نظرة علمية معبرة - ليس كقصص ماضية غابرة - بل صوراً معاشة في أخيلتنا وأداة لازمة من أدوات نظرتنا الحاضرة والمستقبلية في بناء الأمة. ومن هذا الفهم لعلم التاريخ وماهيته وأهميته الحاضرة والمستقبلية في بناء الأمة. ومن هذا الفهم لعلم التاريخ وماهيته وأهميته كانت رؤيتنا الجديدة لبرامج قسم التاريخ وما يجب أن يكون عليه.

ب- فلسفة قسم التاريخ وأهدافه وخططه:

ان نجاح أي برنامج انما يعتمد على الفلسفة التي يقوم عليها والأهداف التي يسعى الى تحقيقها، إن الحدود الفاصلة بين فلسفة قسم التاريخ وأهدافه ضيقة ومتداخلية، فهدف الشيء إنما تحدده فلسفته ومن ثم فإن فلسفة وأهداف قسم التاريخ إنما تنبع بالأحرى من فلسفة وأهداف جامعة أم درمان الاسلامية أو بمعنى آخر الفلسفة والمطلق الاسلامي. فإذا كان ماركس يرى أن الشيوعية هي الحل للغز التاريخ فإننا نرى التفسير الاسلامي هو الحل لفهم معضلات وألغاز التاريخ.

هكذا فإن قسم التاريخ ينطلق من الفهم الاسلامي والذاتية العربية في فلسفته والبعد الافريقي الذي تحتمه خصوصية السودان كقطر ومجتمع اسلامي عربي افريقي.

ان أهداف قسم التاريخ بجامعة أم درمان وفقاً لهذه الفلسفة يمكن اجمالها في الآتي:-

١- اعطاء عناية خاصة واهتمام أكبر لدراسة تاريخ وحضارة الأمة الاسلامية والأمة العربية والشعوب الأفريقية.

٢- التعريف بالتراث الاسلامي وبث روح الاعتزاز بتاريخ الأمة الاسلامية في نفوس الطلاب بعامة وطلاب التاريخ بخاصة بما يستثير فيهم روح العمل وحفز الطاقات لإعادة أمجاد أمة الاسلام.

٣- اعداد مواطن صالح مخلص لبلاده وأمته ببعث روح السمو والرفعة التي يزخر بها تاريخ السودان وتاريخ الأمة الاسلامية والعربية.

٤- العمل على توعية الطلاب بصفة خاصة والمجتمع السوداني بصفة عامة بضرورة الوحدة الوطنية وانصهار أبناء الأمة في كيان موحد يعمل كيد واحدة لرفعة السودان وسموه.

٥- الاعتناء بدراسة التاريخ العام وصولاً الى تكوين مواطن أكثر وعياً بتاريخ البشرية وتطورها في شتى المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية مما يجعل منه مشاركاً إيجابياً في أحداث التاريخ وعنصراً فعالاً في توجيه مسارها.

إن دراسة التاريخ تكمن بما تعكسه من تراث الأمم وثقافاتها وتقاليدها وعاداتها وتجاربها وأفكارها المختلفة. من كل ذلك ومن هنا كانت أهمية دراسة تاريخ الأمم والشعوب غير الاسلامية وغير العربية.

أما الأهداف القريبة لبرامج قسم التاريخ في اعداد مؤرخ محب لمادة التاريخ يفعم وجدانه هدف مزدوج هو حراسة التراث الثقافي والفكري لأمته بالتنقيب عنه ونشره ودراسة التطور البشري عبر الحقب التاريخية المختلفة بما يمكنه من افادة وطنه وأمته.

إن تحقيق هذه الأهداف يتأتى باتباع المنهج التاريخي الصحيح الذي يساعده على كيفية رسم صورة الماضي للإنسانية في اطارها الصحيح. وهنا يأتي دور الأساتذة في تدريب الطلاب على كيفية البحث العلمي الدقيق والاعتماد على النفس والابتكار، وتغليب الموضوعية على الذاتية واستنباط الحقائق من بين ثنايا المخطوطات ومخلفات الأقدمين.

ومن الأهداف أيضاً ارشاد الطلاب الى أن فهم التطور وظواهر المجتمع المختلفة من شأنها أن تعين على فهم الحاضر

بصورة أوضح فضلاً عن لفت أنظارهم الى أن البحث عن دروس التاريخ وعبره تعين الانسان على فهم وحل مشكلاته الحاضرة.

تلك هي خلاصة لأهداف قسم التاريخ بجامعة أم درمان الاسلامية وفقاً لرؤيته الجديدة. أما خططه لتحقيق تلك الأهداف فتتمثل في الآتي:-

١- إعادة النظر في المناهج والخطط الدراسية الحالية وقد بدأ بالفعل منذ العام الماضي العمل على وضع مقررات دراسية جديدة لقسم التاريخ يبدأ العمل بها في بداية العام الدراسي ١٩٩٥/٩٤م. وقد راعت المقررات الجديدة الآتي:-

٢- التركيز على التاريخ الاسلامي في حقبه المختلفة بزيادة مواد وساعات تدريسية. فمن ذلك تم تقسيم مادة الدولة الاسلامية الى ثلاث مواد دراسية هي: السيرة النبوية الشريفة - عصر الخلافة الراشدة - وتاريخ الدولة الأموية. كما قسمت مادة المغرب والأندلس الى قسمين لتصبح تاريخ الدويلات الاسلامية في المغرب وتاريخ الأندلس مع إضافة مادة تاريخ الدويلات الاسلامية الى المشرق العربي كما أدخلت مواد جديدة مثل، الأيوبيون والمماليك.

أما مادة الحضارة الاسلامية فقد تم تقسيمها الى مادتين أحداهما تختص بالحضارة الاسلامية تعريفها وعناصر تكوينها ودورها في تكوين الدولة الاسلامية وأثرها على أوروبا. والثانية تختص بالنظم الاسلامية مع أفراد مادة لتاريخ العلوم عند المسلمين.

وفي هذا المجال تمت اضافة مادة تاريخ الدولة الاسلامية في آسيا وإعادة النظر في مسميات بعض المواد فمن ذلك مثلاً: أعيدت تسمية مادة الاسلام والصليبيون الى اسم الحروب الصليبية، على أن تفرد مادة جديدة لتدريس العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين لتغطية الفترة التاريخية السابقة للحروب الصليبية. كما تمت تسمية مادة تاريخ افريقية حتى القرن الثامن عشر والتي كانت تركز على تاريخ الممالك الاسلامية في غرب وشرق أفريقية وانتشار الاسلام فيها.

٣- الاهتمام بالتاريخ العربي وذلك بإدخال مادة تاريخ العرب الحديث والمعاصر.

٤- فصل الحقب التاريخية المختلفة في تاريخ السودان وأفريقيا عن بعضها وتدريسها كمواد قائمة بذاتها، ومن ذلك تقسيم مادة تاريخ السودان الحديث الى مادتين هما: تاريخ الحكم التركي في السودان والدولة المهدية وأيضاً تقسيم مادة تاريخ السودان المعاصر الى مادتين هما: الحكم الثنائي والحركة الوطنية. كما تم أيضاً تقسيم مادة تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر الى مادتين هما: تاريخ الاستعمار في افريقيا، والحركات التحررية والاستقلال.

أما فيما يتعلق بزيادة الساعات الدراسية بما يلزم لتدريس هذه المواد الجديدة حيث أن متوسط عدد الساعات الاسبوعية في الماضي كان ثمانية عشر ساعة ثم تقرر أن تصبح ساعات الدراسة في الاسبوع بالقسم اثنين وعشرين ساعة كحد أدنى وأربعة وعشرين ساعة كحد أقصى.

كما زاد الاهتمام بالمواد التي تعين الطالب على فهم ماهية علم التاريخ ومنهجه وتساعده على أن يصبح مؤرخاً ملما بأدوات علم التاريخ ووسائله. لذلك تقرر ادخال مادة علم التاريخ ومناهجه في الفرقة الأولى وأن تدرس مادة منهج البحث التاريخي للفرقة الثالثة بدلاً من الفرقة الرابعة، على أن تفرد ساعة دراسية للفرقة الرابعة للبحث التكميلي (بحث التخرج).

وتقرر أن يحث الطلاب على الإكثار من كتابة البحوث، خاصة طلاب الفرقتين الثالثة والرابعة وتشجيع الفرقتين الأولى والثانية على كتابة المقالات والأوراق القصيرة مع العمل على مشاركة الطلاب في المنارات التي يقدمها القسم، وأن تكون هذه شهرية ما أمكن ذلك.

هذا واننا في قسم التاريخ نرى أن تنفيذ هذه الخطة الدراسية الجديدة بطريقة جيدة يتطلب تغيير نظام الدورة الدراسية الواحدة التي تعمل بها الجامعة حالياً الى نظام الفصلين الدراسيين لأن ذلك يساعد على تدريس عدد أكثر من المواد خلال العام الدراسي الواحد. ومن ثم يبعدنا عن عملية دمج بعض المواد والاقتصار على تدريس المعالم أو الأحداث الهامة لبعض فترات وحقب التاريخ الهامة والتي نعمل بها الآن.

لقد رأت الجامعة قبل عامين ضرورة تنفيذ نظام الفصلين

الدراسيين والساعات المعتمدة وقمنا في قسم التاريخ بوضع منهجنا وخططنا الدراسية وفقاً لذلك إلاّ أن بعض الظروف والتي كان أهمها النقص في أعضاء هيئة التدريس حال دون ذلك، وهناك أمل قوي الآن بعد تعيين أعداد كبيرة من الأساتذة في أقسام الجامعة المختلفة في أن يبدأ العمل بهذا النظام المقترح.

جـ- تنميـة علاقات أقسام التاريخ مع المجـتمع المحلي:-

إن التاريخ هو دراسة أفعال الماضين وتقاليدهم وأفكارهم وثقافاتهم وكيفية تفاعلهم مع أحداث الحياة في مجالاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية. وبما أن دراسة الماضي تشكل القاعدة الأساسية لبناء الحاضر والمستقبل، فإن المجتمعات البشرية تحرص على استقراء ماضيها لأنه عدة حاضرها ومستقبلها وفي هذا الإطار يلعب دارسو التاريخ دوراً هاماً في مساعدة المجتمع في استقصاء هذا الماضي. وبما أن أقسام التاريخ تمثل الورشة أو المصنع الذي تتشكل فيه هذه الدراسات فإن سعيها لخلق علاقات وطيدة مع قطاعات المجتمع المحلي تصبح أمراً هاماً وأساسياً. بل أن أقسام التاريخ في كثير من الأحيان تعتمد على أفراد وأسر وقطاعات معينة في المجتمع لتزويدها بالوثائق والمخطوطات والمذكرات. كما أن أساتذة وطلاب التاريخ الاجتماعي لا بد لهم من خلق علاقات مع قطاعات المرأة والعمال والطلاب كعناصر أساسية في تشكيل هذا التاريخ. وهكذا حال دارسي التاريخ السياسي والاقتصادي والثقافي بل وأساتذة وطلاب الآثار الذين كثيراً ما تساعدهم علاقاتهم مع سكان مناطق حفرياتهم في تسهيل أعمالهم.

ولذلك فإن قسم التاريخ في تخصصاته المختلفة عمل منذ زمن ليس بالبعيد على تنمية علاقاته بالمجتمع المحلي إلاّ أن معظم هذه العلاقات يقوم على الجهد الفردي وإن كان للقسم تجربة ناجحة في الماضي حين بدأ قبل عدة سنوات الاعداد لمؤتمر جامع بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس مدينة أم درمان العاصمة القومية للسودان إذ استطاع الحصول على موافقة أفراد وقطاعات المجتمع للمشاركة في هذا الحدث الهام.

إن انشاء مركز وثائقي به قسم لجمع التراث من خلال التسجيل الصوتي يساعد كثيراً على تنمية هذه العلاقات. ومثل ذلك أيضاً تشجيع الشخصيات التاريخية الهامة لإلقاء المحاضرات عن تجاربها لطلاب الجامعة عامة ولطلاب التاريخ بصفة خاصة مما سيعين على تعميق هذه الصلات.

د- دور أقسام التاريخ في اعداد الكوادر المؤهلة في مختلف المجالات:

مما لا شك فيه أن دراسة التاريخ واستيعاب معانيه وتدبر عبره أمر لازم لكل فرد من أفراد المجتمع، بل أنه ضرورة حتمية لكل من يتصدى للعمل العام أو قيادة المجتمع في مختلف مجالات الحياة. فدراسة التاريخ لا بد منها لأهل السياسة والإعلام والدعوة والقانون ورجالات الفكر والثقافة على وجه الخصوص.

لكل ذلك تلعب أقسام التاريخ دوراً هاماً في اعداد الكوادر في هذه المجالات ويقوم قسم التاريخ بجامعة أم درمان الاسلامية بدوره في هذا المجال. فانطلاقاً من رسالة الجامعة وأهدافها القائمة على اعداد مواطن مؤمن برسالته الاسلامية والعربية فإن دراسة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية اضافة للتاريخ القطري كانت حتى وقت قريب قاسماً مشتركاً لكل طلاب الجامعة بمختلف تخصصاتهم. فكما يشير دليل «مناهج وخطط شعبة التاريخ لعام ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م» فإن قسم التاريخ كان يقوم بتدريس مواد مثل السيرة وتاريخ الخلفاء والحضارة الاسلامية لطلاب أقسام اللغة العربية والصحافة والوثائق والمكتبات بكلية الآداب وشعبة الدراسات الاسلامية والدعوة والفكر الاسلامي بكلية الدراسات الاسلامية. غير أن السنوات الأخيرة شهدت تقليصاً لهذا الدور حيث عملت بعض الأقسام على استبعاد دراسة التاريخ من خططها الدراسية. إلاّ أن الاهتمام بدراسة التاريخ لغير المتخصصين بدأ يستعيد مكانته حيث قرر مجلس الأساتذة قبل عامين جعل مادة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية من مواد متطلبات الجامعة، تدرس لكل الأقسام غير أن ارتباط هذا القرار يقرر العمل بنظام الساعات المعتمدة والنظام الفصلي والذي لم يبدأ تنفيذه بعد أخر التطبيق الفعلي لذلك - إلاّ أن

احساس بعض الأقسام العلمية بأهمية دراسة التاريخ لطلابها جعلها تعتمد دراسته ضمن خططها الجديدة والتي سيبدأ تنفيذها في العام الدراسي القادم.

من كل ذلك يتضح الدور الذي يمكن أن تلعبه أقسام التاريخ في مجالات الحياة المختلفة، فكثير من طلاب التاريخ قد طرقوا مجالات التدريس والصحافة والإعلام، والعمل الإداري أحياناً ولاقوا نجاحاً كبيراً.

إن وعي قسم التاريخ بالجامعة بالدور الذي يمكن أن يلعبه في إعداد كادر مؤهل في مختلف المجالات دفعه لرفع مذكرة لمجلس الجامعة عن أهمية تدريس التاريخ الاسلامي والقطري لكل طلاب الجامعة كما كان سابقاً.

هـ- العلاقة بين أقسام التاريخ والعلوم الاجتماعية الأخرى:

إن مما يؤسف له أن كثيراً من المؤرخين في بلادنا ما زالوا يدافعون عن ذاتية التاريخ كعلم قائم بذاته. إنهم يتخوفون من حالات التقدم العلمي، كما عبر عن ذلك جيمس هارفي روبسن[6] ذلك أن كل علم انما يعتمد على العلم الآخر، بل يدين له بفرصة نحو التقدم فالمؤرخ أصبح يستعين في كثير من الأحيان بمناهج العلوم الاجتماعية الأخرى في الوصول الى الحقائق التاريخية ولفهم بعض أحداث التاريخ. ذلك أن التاريخ والعلوم الاجتماعية الأخرى تتلاقى في أهدافها بل أن بعضها ينبع من جذور واحدة. ذلك أن غرضها المشترك هو الفهم الشامل للأفعال والعلاقات الانسانية.

لكل ذلك فإن دارس التاريخ يجد نفسه بحاجة للاستعانة بالعلوم الاجتماعية مثل الانثروبولوجيا، الاجتماع، الاقتصاد، العلوم السياسية، وعلم النفس بجانب اللغات.

ومن هنا فإننا استشعرنا في قسم التاريخ أهمية العلوم الاجتماعية الأخرى كمواد مساعدة للتخصص في التاريخ وأفردنا لذلك حيزاً في مناهجنا وخططنا التي وضعناها قبل عامين وفقاً لنظام الساعات المعتمدة، والذي نطمح في تطبيقه عما قريب كما ذكرت سابقاً.

أما علاقتنا الحالية مع هذه العلوم المحصورة للغاية، حيث أنها حددت في نطاق البحث العلمي للأساتذة وطلاب الدراسات العليا.

وفي ختام هذا البحث المتواضع لا يفوتنا إلاّ أن نتقدم بالشكر الى كل من ساعد في مدنا بالمعلومات وأخص بالشكر الدكتور/ محمود عبد الرحمن الشيخ الذي مدني بكل المعلومات التي أفادتني كثيراً في اعداد هذا البحث. والله نسأله التوفيق والسداد

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،

هوامش البحث

١- سيد عبد العزيز سالم: «التاريخ والمؤرخون العرب» مؤسسة شباب الجامعة ١٩٨٧ ص: ٥.

٢- المرجع السابق ص٥.

٣- د. كامل الباقر - مدير الجامعة الأسبق - بيان نشر، جامعة أم درمان الاسلامية والأحداث الأخيرة.

٤- مجلة معهد أم درمان العلمي - العدد الثالث - ص٣١.

٥- أنظر دليل كلية الآداب بجامعة الإمارات العربية المتحدة لسنة ٨٦/١٩٩٠م ص٥٧.

6- Robison: The New History (1913) P. 43.

أهم المراجع

١- جامعة أم درمان الاسلامية والأحداث الأخيرة المؤسفة ١٩٧٦/١/٢٩م.

٢- دليل كلية الآداب - جامعة أم درمان الاسلامية ١٩٨٨م.

٣- وكيل كلية الآداب - جامعة الإمارات العربية المتحدة ٨٦ - ١٩٩٠م.

٤- الدكتور/ محمود عبد الرحمن الشيخ. «مناهج وخطط قسم التاريخ - كلية الآداب» بحث غير منشور.

٥- مسجل كلية الآداب - جامعة أم درمان الاسلامية.

٦- رئيس قسم التاريخ - جامعة أم درمان الاسلامية.

٧- رئيس قسم التاريخ - جامعة الخرطوم.

٨- الدكتور/ عبد العزيز السيد سالم «التاريخ والمؤرخون العرب» طبعة ١٩٨٧م

9- Robison, The New History (1913) P. 43.

العلاقات العربية الافريقية
(ليبيا - النيجر خلال فترة الاستعمار الأوروبي الحديث ١٨٨٦ - ١٩١٩م)

علي عمر الهازل
مركز الجهاد الليبي - طرابلس

تعتبر العلاقات العربية الافريقية ظاهرة تاريخية متميزة في التاريخ الافريقي والتاريخ العربي الافريقي المشترك بشكل عام، إن العلاقات بين العرب والأفارقة قديمة. وقد ترجع لأكثر من الفي سنة خلت، ولعل الصلة بين افريقيا وسكان شبه الجزيرة العربية قد تكون أقدم مما تمت الإشارة اليه من قبل، لا تختلف المصادر التاريخية حول عراقة وقدم العلاقات بين العرب والأفارقة، بل تشير أغلب الكتب الدينية والنقوش والدساتير الوضعية وكذلك الكتب التاريخية الى عراقة تلك العلاقات.

لم تكن الصحراء الكبرى عائقاً بين التواصل العربي الافريقي فمن الثابت تاريخياً أن قبائل الجرامنت التي كانت تسكن بفزان، قامت بربط الصلات التجارية مع شعوب ومناطق جنوب الصحراء، وكانت همزة الوصل بين السواحل الشمالية لمنطقة البحر الأبيض المتوسط وأراض السودان[١] وتؤكد النقوش المحفورة على الصخور، تلك الروابط من خلال طرق العربات في وسط الصحراء من الشمال الى الجنوب، بالإضافة الى ذلك هناك استيراد البضائع مثل العاج والجلود من طرف الرومان ومن مناطق فزان كل هذا يؤكد وجود تلك الصلات، لأن منطقة فزان لا يوجد بها مثل هذه السلع، كل ذلك ادى بالرومان الى محاولة السيطرة على هذه التجارة الوافدة من جنوب الصحراء،فارسلوا الكثير من الحملات العسكرية ما بين الفترة ٢٠ ق.م - ٨٦م بهدف اخضاع فزان للحكم الروماني غير أن قوة الجرامنت في ذلك الوقت حالت دون تحقيق ذلك الهدف.[٢]

ليس الجرامنت فقط ساهموا في تنشيط الحركة التجارية بين سواحل شمال افريقيا وجنوبها، بل نجد مدينة قرطاج بتونس، لعبت هي الأخرى دوراً هاماً في ذلك، إذ استمدت قرطاج أهميتها وازدهارها من تلك العلاقة التجارية الوطيدة منذ القرن السابع قبل الميلاد، حتى فترة انهيار روما. لقد أخذت الاتصالات مسالك ومعابر كثيرة برية وبحرية فقد تمت في عهد الملك نكاو أول محاولة للالتفاف حول الصحراء بدأت من مصر عن طريق البحر الأحمر، ووصلت الى جبل طارق - الذي يعرف بأعمدة هرقل - وعادت الى مصر .

وهناك رحلة أخرى تمت عن طريق البحر الأبيض المتوسط، ترجح أغلب الدراسات أنها تمت في عهد هيرودوت ٤٢٥ ق.م والمرجح أيضاً أنها وصلت الى نهر السنغال ومصب نهر غامبيا وقد قام بهذه الرحلة هانو على رأس ثلاثين ألفاً من الرجال والنساء[٣].

ومما سبق ذكره يثبت أن العلاقات العربية الافريقية تعود الى عدة قرون. وقد تأثرت بعدة عوامل جغرافية واقتصادية وبشرية وثقافية، زادت هذه العلاقات تأثيراً بعد ظهور الاسلام، فقد شهدت مناطق المغرب العربي مراحل التعريب في القرن الثاني للهجرة/ الثامن الميلادي، وبدأت القبائل العربية تأخذ طريقها نحو الجنوب حتى وصلت الي مشارف النيجر والسنغال لم تقف الصحراء الكبرى حجر عثرة دون خلق الروابط والصلات، بل أن الطرق والمسالك والمنافذ في ما وراء الصحراء، كانت من أهم العوامل التي ساعدت في مد جسور التلاقي بين مناطق المغرب العربي، ومناطق جنوب الصحراء وقد ساعد ذلك على دخول الاسلام الى مناطق غرب افريقيا ووسطها، وترتب على هذا المد الآتي من الشمال الى قيام دويلات وممالك افريقية بلغت درجة عالية من التقدم والإزدهار.

ومن المؤكد أن الممالك الافريقية مثل غانا ومالي وسنغي وكانم وبرنو، لم تصل الى ما وصلت اليه من قوة إلاّ بعد أن أضحى الاسلام عصب قوتها الروحية والمادية[٤] وصارت اللغة

العربية لغتها الرسمية، حدث الامتزاج الكامل بين النظم العربية الاسلامية والأنماط الافريقية بحيث برزت الشخصية الافريقية في اطار اسلامي ولم يحدث ذوبانها.

لقد مرت العلاقات بين مناطق المغرب العربي والمناطق الافريقية فيما وراء الصحراء بثلاث مراحل رئيسية حسب ما يريه الاستاذ محمد المبروك يونس في كتابه تاريخ التطور السياسي للعلاقات العربية الافريقية وهي على النحو التالي:-

١- المرحلة الأولى: وقد اتسمت بطابع الاحتكاك السلمي وقام فيها التجار العرب بدور بارز.

٢- المرحلة الثانية: وغلب عليها جهاد المرابطين الذين أعطوا للوجود العربي الاسلامي المتنامي اقتصادياً وثقافياً بعدا سياسياً.

٣- المرحلة الثالثة، وقد جمعت بين السلم والجهاد وتم فيها ترسيخ العقيدة الاسلامية وتعميق مفاهيمها بين السكان الأصليين في المناطق الأفريقية: حيث انتقلت اليهم الزعامة الدينية والقيادة السياسية والاقتصادية والثقافية، وتوج ذلك بقيام الممالك الاسلامية الأفريقية في مالي وسنغي وإمارات الهوسا.(٥)

ولعبت المصالح الاقتصادية المتمثلة في تجارة الذهب والملح، الدور الهام في انتقال الهجرات العربية المغربية، وحدوث التصاهر والاختلاط مع العناصر الافريقية، وقد اشار المؤرخ بوفيل الى ذلك حيث قال (... ان دماء هؤلاء الذين قدموا من الصحراء أو من الأراضي الممتدة الى شمالها ما زالت تجري في عروق بعض شعوب السودان)(٦)

لقد شهدت العلاقات العربية الافريقية ازدهاراً كبيراً في ظل الاسلام، ولقد لعب التجار العرب من المغرب دوراً بارزاً في ربط الصلة التجارية بين الممالك الافريقية في غرب افريقيا ووسطها من ناحية، وبين مناطق البحر المتوسط والبلدان الأوروبية من ناحية أخرى، ونشطت حركة تجارة القوافل عبر الصحراء بواسطة العديد من الطرق التي تبدأ من طرابلس وتونس وتلمسان ومراكش، وتصل الى المراكز الرئيسية في غرب أفريقيا ووسطها مثل تمبكتو وكانم وبرنو وإمارات الهوسا.

لقد امتد التبادل الحضاري بين مناطق المغرب العربي والمناطق الافريقية ما وراء الصحراء ليشمل النواحي الثقافية والعلمية والفكرية، وبرزت مراكز ثقافية كثيرة، لعل أشهرها مدينة تمبكتو في القرن الحادي عشر الميلادي، حيث جمعت هذه المدينة بين الأهمية التجارية كملتقى للبضائع القادمة من المغرب العربي وبلدان أوروبا، وبين الازدهار الثقافي والعلمي الذي حظيت به، إذ قال عنها الرحالة العربي ابن بطوطة (... أنفق شئ في أسواقها كانت الكتب..)(٧) وتشير بعض المصادر الى أن ازدهار النواحي الثقافية والأدبية في مملكة برنو يعود الفضل فيه الى حرص حكام المملكة على انشاء الروابط الثقافية والسياسية مع طرابلس وتونس ومراكش، وإيفاد طلاب العلم الى هذه الأماكن للدراسة، والحصول على المؤلفات العلمية في مختلف مجالات المعرفة، وانشئت في الصحراء الليبية عدة مراكز تجارية، اشتهرت بنشاطها وعلاقاتها الاقتصادية والثقافية، حيث سهل اقليم فزان على القوافل التجارية عملية الاتصال والتبادل التجاري، واحكم الصلة بين الرحلات الوافدة من الشمال الى الجنوب، كما قام سكان واحات هذا الاقليم بدور ايجابي في استقبال القوافل وارشادها عند المغادرة وتوفير احتياجاتها من المياه وغيرها من الخدمات، وكانت هذه القوافل تحمل معها الى جانب السلع التجارية، طلاب العلم والعلماء والفقهاء والكتب الثقافية في شتى فروع المعرفة(٨).

الجهاد المشترك ضد الاستعمار الأوروبي

عرفت القارة الأفريقية الاستعمار الأوروبي الحديث منذ وقت مبكر في بدايات القرن التاسع عشر، إذ نجد أن فرنسا قامت باحتلال الجزائر سنة ١٨٣٠، على أن هذا التاريخ لا يعني وصول الأوروبي الأول الى هذه القارة، ولكن في الواقع الاستعمار بدأ قبل هذا التاريخ بعدة قرون، ويمكن تحديد سنتي ١٨٨٦م، وسنة ١٨٩٩م كسنتي وصول الاستعمار الفرنسي الى بلاد النيجر، وبالتحديد بداية الزحف الفرنسي نحو شمال البلاد، إذ تم في هذه السنوات توقيع معاهدات بين فرنسا وبريطانيا لتحديد مناطق نفوذ كل دولة في القارة الأفريقية.

أما بخصوص وصول الاستعمار الأوروبي الى ليبيا فإنه

كان متأخراً قليلاً عن ذلك، حيث بدأ الاستعمار الايطالي في ضرب البلاد الليبية في اواخر سنة ١٩١١م، ونتج عن ذلك قيام الشعب الليبي والنيجري بمقاومة الاستعمار الأوروبي بشكل عام، وسوف نعرض لهذه المقاومة بشيء من التفاصيل في السطور التالية، والتي أرى أنها عبارة عن مفتاح لمناقشة هذا الموضوع والتركيز عليه من طرق الباحثين عن تاريخ هذه البلدان، وأود الإشارة الى أنني لا أدعي شمولية الدراسة أو أنني أتيت بشئ جديد، وإنما هي محاولة لدفع حركة البحث لتركيز الاهتمام بهذا الموضوع الهام في تاريخ البلدين.

عند الحديث عن الجهاد المشترك ضد الاستعمار في ليبيا والنيجر وعن اشتعال الثورة ضد الوجود الفرنسي في النيجر، فإنني أجد نفسي مضطراً الى تتبع بعض الشخصيات التي كان لها دور بارزٌ في مقاومة الاستعمار الفرنسي في النيجر أو الاستعمار الايطالي في ليبيا وكان من ابرز هذه الشخصيات ما يأتي:-

١- محمد كاوص، ولد في بلدة دموقو عام ١٨٨٠م، وينتمي الى قبيلة ايكزكزن، احدى القبائل الشريفة التاريخية في سلطنة والليمدن، احدى أهم القبائل بها، وهي بقايا لمتونه زعيمة دولة الملثمين، عندما بدأ الزحف الفرنسي عام ١٩٠١م اصطدم توارق الشمال مع الفرنسيين، هاجر كاوص مع مجموع التوارق نحو الشرق حيث استقر بقورو وانضم للطريقة السنوسية، وشارك في الهجوم على وشنكال في سنة ١٩٠٩م في أواخر شهر نوفمبر من نفس العام، تحت قيادة عبدالله الطوير الزوي شيخ الزاوية في عين كلكا، واسند اليه أحمد الشريف السنوسي قيادة عين أيدي، فقاد الهجوم على بيسكيري عام ١٩١٠م، ولكن القوات الفرنسية ارغمته على اللجوء الى دارفور بالسودان، حيث بقي هناك حوالي ثمانية أشهر، ترك دارفور ، واتجه نحو اوتياكا الكبير ملتحقاً بمحمد السني في سبتمبر سنة ١٩١١م.

في ٢٣ مايو ١٩١٣م حضر كاوص معركة أم العظام ضد الفرنسيين، ولم يتمكن المجاهدون من الانتصار في هذه المعركة، انتقل بعدها كاوص الى فزان حيث وصل الى منطقة فزان وبالتحديد الى واو، واوكل اليه محمد العابد السنوسي جمع الأعشار من السكان، وفي عام ١٩١٥م كان كاوص على رأس قيادة المجاهدين الذين استولوا على مرزق، واوساري وسار مع المجاهدين حتى وصل الى غدامس برفقة محمد المهدي السنوسي، ومن غدامس عاد الى واو، حيث عينه عابد نائباً عنه بالجفرة، حيث ظل هناك لمدة ثلاثة شهور، عاد بعدها الى واو مرة أخرى ومنها انطلق الى شمال النيجر على رأس مجموعة كبيرة من المجاهدين الليبيين، وارسل كاوص عدة رسائل قبل تحركه الى سلاطين توارق والليميدن والايير، والى مشايخ قبيلته يطلب منهم اعلان الجهاد ضد الكفار، وانطلقت حملة كاوص من غات باتجاه اقدز في أواخر عام ١٩١٦م ووصلت الى اقدز بالنيجر في ١٣ ديسمبر ١٩١٦م. وقامت بحصار اقدز من ديسمبر سنة ١٩١٦م الى مارس ١٩١٧، وقد قسم المجاهدون قواتهم الى مجموعتين، الأولى يقودها محمد كاوص والثانية يقودها أغالي، وهو أحد رجال قبيلة ايكزكزن، بدأ المجاهدون في قصف حصن اقدز منذ صباح يوم ١٣ ديسمبر لاجباره على التسليم، وفي يوم ١٨ ديسمبر استولوا على المدينة لم يبق في أيدي القوات الفرنسية إلاّ الحصن الذي تخندقت به، وفي يوم ٢٦ ديسمبر ١٩١٦م اصطدمت قوة من المجاهدون مع قوة فرنسية بقيادة الملازم قادمة من زندر، وأبادتها وقتل سودان.

وفي يوم ٢٤ فبراير اصطدمت قوات المجاهدين مع طلائع قوات النجدة الفرنسية ودمرتها في اضربست.

وفي يوم ٣ مارس ١٩١٧م استطاعت القوات الفرنسية الإطباق على قوات المجاهدين المحاصرة لاقدز من جميع الجهات، وفي مساء نفس اليوم استطاع المجاهدون الانسحاب نحو الشمال بعد معركة مشرفة.

بعد انسحاب المجاهدين شمالاً بدأوا في تنظيم صفوفهم متخذين من حرب العصابات وسيلة لهم، وانضم اليهم عبدالرحمن تاقامه، والخورير سلطان والليمدن، حيث خاضوا عدة معارك ضد القوات الفرنسية نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر معركة يوم ١٣ ابريل ١٩١٧م بمنطقة تفرجيت، ومعركة يوم ٢٩ أغسطس ١٩١٧م، حيث هاجم كاوص قوية كولوسكي، في شهر ديسمبر ١٩١٧م انتقل كاوص الى

الشمال الى بلاد الايير، وفي هذه الفترة كثف الفرنسيون من دورياتهم الاستطلاعية، واستطاعو تضييق الخناق على كاوص والمجاهدين بصفة عامة. الأمر الذي جعل كاوص يقرر العودة الى ليبيا.

لقد شارك كاوص في عدة معارك دارت حول درج وسيناون والحراية والجوش بليبيا ما بين عامي ١٩١٤م - ١٩١٥م[٩]

٢- الخليفة ولد محمد.. الخليفة ولد محمد ولد امهمد، كان مولده حوالي عام ١٨٨٢م، تولى زعامة قبيلته أولاد سليمان، بعد عجز والده عن قيادة القبيلة لكبر سنه، قاد الجهاد ضد فرنسا في جنوب الصحراء الكبرى وشارك في الهجوم على قاوه واقدز سنة ١٩١٧م، كانت له السيطرة الكاملة من الساقية الحمراء الى عين صالح في جنوب الجزائر.

٣- السلطان أحمد أمود.. وهو سلطان ازقر، يقطن بجانت، وعندما هاجم الفرنسيون جانت سنة ١٩٠٨م انسحب السلطان امود الى غات، وفي سنة ١٩١٦م قاد السلطان امود هجوماً على جانت على رأس المجاهدين الليبيين، فاستولوا عليها، وقتلوا قائد الحامية الفرنسي وأسروا عدداً كبيراً من الأسرى، ظل السلطان أمود يمد المجاهدين بالرجال والسلاح والتموين وخاصة حركة محمد كاوص في شمال النيجر[١٠].

٤- السلطان عبد الرحمن ثاقامه:- علي الرغم من قلة المعلومات عن الرجل، إلاّ أنه كان من ابرز الشخصيات التي قادت حركة الجهاد في شمال النيجر ضد القوات الفرنسية وهو سلطان اقدز، وكانت له علاقة قوية بالحركة السنوسية بليبيا في تلك الفترة، رفع لواء الجهاد ضد فرنسا استجابة لدعوة الحركة السنوسية بالجهاد، وأعلن الاستعداد للثورة ضد القوات الفرنسية المتواجدة بشمال النيجر، أثناء حصار المجاهدين الليبيين بقيادة محمد كاوص لأقدز، كان هذا السلطان يمد المجاهدين بالتموين، طوال مدة الحصار الذي استمر لمدة ثلاثة شهور، انسحب مع قواته بعد فشل المجاهدين في الاستيلاء على اقدز باتجاه فزان بقي بها مدة ثلاثة شهور بعدها انتقل الى الصحراء وأخذ يشن هجوماته على القوات الفرنسية المتواجدة بالمنطقة من غات الى اقدز حتى تم اسره بعد معركة قوية مع القوات الفرنسية في شهر مارس سنة ١٩١٩م اودع السجن في اقدز.

٥- محمد عابد السنوسي: تولى الدعوة السنوسية في فزان واتخذ من واو مقراً له، وقام بتحريك حركة الجهاد ضد فرنسا في جنوب الصحراء الكبرى، وذلك بارسال الحملات الى جنوب الجزائر وشمال النيجر وتشاد ومالي، وهو أخ أحمد الشريف.

٦- أحمد الشريف:- هو أحمد الشريف السنوسي وهو حفيد محمد بن علي السنوسي، صاحب الدعوة السنوسية، ولد بالجغبوب بليبيا سنة ١٨٧٣م درس أصول الدين والفقه وحفظ القرآن بزاوية الجغبوب عندما توفي عمه المهدي، تولى شؤون الدعوة السنوسية، أو الحركة السنوسية، قاد حركة الجهاد ضد فرنسا في شمال النيجر وتشاد ومالي وغيرها، وكانت هذه القيادة اسميه فقط[١١].

هذه بعض الشخصيات الليبية والنيجرية التي لعبت أدواراً قتالية ضد الوجود الفرنسي في الصحراء الكبرى وهي على سبيل المثال لا الحصر، مع العلم أن ليبيا لم تكن وطناً لليبيين المتواجدين على ارضها الآن، بل كانت وطناً لأغلب سكان الصحراء الكبرى منذ أقدم العصور، وما زالت حتى الآن، وأن اشترك الليبيين في القتال ضد الوجود الفرنسي في النيجر وتشاد ومالي، فإما هم يدافعون عن وطنهم ضد الاستعمار الأوروبي الدخيل.

هجرة القبائل الليبية الى النيجر:-

يمكننا اعتبار بلاد النيجر امتداداً طبيعياً لليبيا، وتربطها عدة طرق تجارية مع ليبيا، وتعتبر من أقرب الأسواق للمدن الليبية المنتشرة في الصحراء ، مثل مرزق وغدامس وغات، ولهذا الاعتبار فإن النيجر وقبائلها امتداد لبعض القبائل الليبية نذكر منها:-

١- قبيلة كيل أوراي أو هواري، وهي قبيلة تارقية كانت لها اقامة في منطقة سرت على الساحل الليبي، وانتقلت الى النيجر بعد أن أقامت في جبل الهواري بمنطقة القفرة.

٢- قبيلة أفوغاس، تنتمي الى جدها الشريف محمد المختار

الذي يعود به النسب الى الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وهي قبيلة عربية، تزوج الشريف محمد المختار من امرأة تارقية، فأصبح أولاده توارق علي عادة التوارق الذين ينتسبون لامهاتهم. ومواطن هذه القبيلة مدينة غدامس الليبية حتى تاريخ اليوم ويوجد منها جزء في شمال مالي.

٣- جرمة:- ذكر كتاب جرمة من تاريخ الحضارة الاسلامية لمؤلفه محمد سليمان أيوب ما نصه حول.. قبيلة جرمه المتواجدة في النيجر (... ولا يزال يقيم في النيجر الى اليوم وفي نفس المكان الذي وصل اليه ملك جرمة وما تيرنوس قبيلة اسمها جرمه، وهم أحفاد الجنود الجرامنت الذين ظلوا منذ القرن الأول الميلادي بذلك المكان...) اذن هي قبيلة ليبية من جرمه بفزان.

٤- قبيلة القذاذفة، هاجروا الى بلاد النيجر حوالي سنة ١٤٨١م، يقيمون في شرق نيامي يتكلمون لهجة تختلف عن لهجات التوارق، تعرف بلغة سرت.

٥- قبيلة أولاد سليمان، هاجروا بعد مقتل عبد الجليل سيف النصر، ابان ثورته على الأتراك في ليبيا سنة ١٨٤١م استقروا ما بين نيامي وبحيرة تشاد ومنطقة زندر.

٦- قبيلة الجعافرة، وهي فخذ من قبيلة الجعافرة بغريان بليبيا، ويوجد بين القبيلتين تواصل.

٧- قبيلة الحساونة، وهي فرع من الحساونة المتواجدة بوادي الشاطئ بمنطقة فزان بليبيا يقيمون شرق نيامي.

٨- قبيلة الزوائد، وهي فرع من الزوائد الموجودين بمنطقة الخمس بليبيا ووادي الشاطئ.

٩- القوايد: وهم جزء من القوايد الموجودين بونزريك بوادي الشاطئ، ورفلة، والريانية ضمن أولاد على الشرقية والحرابة، بليبيا.

١٠- قبيلة المقارحة، وهم جزء من قبيلة المقارحة المقيمة بمنطقة الشويرف جنوب غريان ومنطقة وادي الشاطئ بليبيا، يقيم قسم كبير منهم الآن في اقدز مع الطوارق.

١١- قبيلة ورفلة من قبائل ليبيا يقيمون شرقي نيامي وهم حلفاء أولاد سليمان، عاد منهم أخيراً مجموعة الى ارض الوطن[١٢].

وبعد هذا العرض السريع عن البعد التاريخي للعلاقات بين ليبيا والنيجر، اعتقد كل الاعتقاد بأن العلاقات هي أوثق من كل ذلك.

الهوامش والمصادر

١- د. يوسف فضل حسن، دراسات في تاريخ السوْدان وافريقيا وبلاد العرب، الجزء الثاني ط أولى، مطبعة جامعة الخرطوم، السودان، سنة ١٩٨٩م وانظر كذلك، عبد العزيز جلو سياسات الدول الأفريقية تجاه الوطن العربي دراسة عامة. المستقبل العربي، السنة ٣ العدد ٢٢ يناير ١٩٨٠م.

٢- محمد المبروك يونس، تاريخ التطور السياسي للعلاقات العربية الافريقية ط٢ الشركة العامة للورق والطباعة، مطابع الوحدة العربية الزاوية، ليبيا، سنة ١٩٩١م.

٣- جمال زكريا قاسم، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية، معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة ١٩٧٥م.

٤- محمد المبروك يونس، مصدر سابق، انظر كذلك محمد عبد الغني قضايا افريقية، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، سنة ١٩٨٠م.

٥- محمد المبروك يونس، مصدر سابق.

٦- بوفيل، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، ترجمة والهادي أبو لقمة و د. محمد عزيز، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ليبيا، سنة ١٩٨٨م.

٧- ابن بطوطة، تحفة النظار وغرايب الامصار وعجائب الاسفار بيروت، لبنان، سنة ١٩٦٠م.

٨- محمد المبروك يونس، مصدر سابق.

٩- د. محمد سعيد القشاط، جهاد الليبيين ضد فرنسا في الصحراء الكبرى ١٨٥٤ - ١٩٨٨م، ط أولى، منشورات مركز دراسات وأبحاث شئون الصحراء، دار القماطي للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، سنة ١٩٨٩م.

١٠- المكتبة الصوتية، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، مقابلة مع الشريف امود من قبائل التوارق بغات- ليبيا، تاريخ اجراء

المقابلة ١٩٨٥م.

١١- الطاهر أحمد الزاوي، أعلام ليبيا ط١ مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا سنة ١٩٦١م وانظر كذلك، محمد الطيب الأشهب، برقة العربية أمس واليوم، مطبعة الهواري، القاهرة، سنة ١٩٤٧م.

١٢- د. محمد سعيد القشاط، مصدر سابق.



بواكير الفكر القومي العربي
(١٨٧٠ - ١٩١٤)

الدكتور فؤاد صالح شهاب
استاذ التاريخ الحديث المساعد
جامعة البحرين

يرجع ظهور كلمة قومية[١] مصطلحاً سياسياً حديثاً بين كتاب العلوم السياسية في أوروبا. الى النصف الثاني من القرن الثامن عشر[٢] ولقد عبّروا بهذا المصطلح عن مرحلة خاصة في تاريخ أوروبا. مرحلة تميزت بحركات التكتل والتماسك القومي من أجل التحرر والوحدة والمحافظة على المصالح الوطنية[٣] وقد استرعت حركات التماسك والتكتل القومي هذه، انتباه المهتمين بتاريخ الحركات السياسية كظاهرة من ظواهر العصر الحديث فرأوا أن يحللوها الى العناصر والأصول المكونة لها فقالوا: (انها جماعة تجمعهم وحدة جغرافية ذات مساحة وحدود معينة يشتركون في اللغة والمذهب الديني، والمصالح الاقتصادية، والخصائص السلالية والجذور التاريخية، والأمل المشترك للمستقبل، وكل هذه المقومات وغيرها نظروا اليها واعتبروها الدوافع لهذه الظاهرة الكبرى، ظاهرة التماسك والتكتل القومي فيما يسمى الوطن الألماني[٤]. أو الوطن الايطالي[٥] الخ..

والسؤال الذي نود أن نطرحه هنا هو: إذا كانت القومية تعني التكتل والتماسك من أجل تحقيق الكيان القومي. فهل يا ترى تعتبر من مستحدثات هذا العصر كما يذهب اليه مؤرخو الغرب؟ لقد حقق أهل وادي النيل منذ آلاف السنين قبل الميلاد في مصر فكرة التماسك الاجتماعي والتكتل القومي. فحينما يتكشف ستار التاريخ المصري. كما يقول المؤرخ المعاصر ارنولد تويني. «نجد أن أول عمل كان توحيد مصر السفلى مع مصر العليا في مملكة متحدة تتكون منهما معاً وهي التي استمرت في الواقع كوحدة سياسية وقومية واحدة حتى يومنا هذا[٦]».

وبالمثل تماسك الأغريق وتكتلوا وحققوا كيانهم القومي تحت حكم الاسكندر ومع الاسلام قضى على الوجود القبلي للعرب، وتحقق كيانهم القومي. سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ولغوياً، ومن ثم فإن فكرة القومية ليست بفكرة مستحدثة بل على النقيض قديمة.

مفهوم القومية:

منذ أوائل القرن التاسع عشر، اختلف العلماء كثيراً في مفهوم القومية[٧]. وهذا الاختلاف نشأ بوجه خاص بين الفرنسيين)[٨] وبين الألمان. وذلك من جراء اختلاف مصالحهم ازاء قضايا القوميات.

ففي معجم المجمع الفرنسي الذي نشر في سنة ١٨٣٥. جاءت القومية على أنها: «الاجتماع أو التكتل الذي يحدث بين الأفراد. وتم حصوله فعلاً في الواقع. في صورة (أمة) أو كانت تحدو هؤلاء المتكتلين الرغبة في تكوين أمة متميزة عن غيرها من الأمم وذلك - في كلتا الحالتين - بفضل ما يجمع هؤلاء من تقاليد واحدة ومصالح مشتركة وانتمائهم الى أصل»[٩].

جاء هذا التعريف نتيجة لاستكمال فرنسا لوحدتها منذ قرون. وكانت قد استولت على بعض البلاد التي لا يتكلم أهلوها باللغة الفرنسية وفضلاً عن ذلك كانت تطمح منذ أجيال عديدة الى توسيع اراضيها في الشمال بغية الوصول الى حدود طبيعية ممثلة في نهر الراين ومن المعلوم أن الشعوب القاطنة والدول والدويلات القائمة هناك كانت كلها ألمانية اللغة بمعنى آخر أراد السياسيون والاستراتيجيون الفرنسيين القول بأن اللغة ليست هي الأساس للتجمع القومي ولكن الرغبة في المعيشة المشتركة La Volonte de Vivre en commun.

أما الألمان فإنهم يقولون من أن الأساس ومعيار القومية الصحيح هو اللغة[١٠] فكل المتكلمين بالألمانية هم ألمان مهما

كانت الدولة أو الدويلة التي ينتسبون اليها، لأن الألمان كانوا يومذاك منقسمين الى دويلات كثيرة وكانوا ينزعون الى الاتحاد لتكوين دولة واحدة.[١١].

والفيلسوف الانجليزي المعاصر برتراند راسل[١٢] يرى بأن القومية تتبلور في الشعور بعاطفة روحية اجتماعية واحدة. قد تنبثق عن الاشتراك في اللغة. والأصل والتراث الثقافي والصالح المشتركة والخطر المشترك.. هذه العوامل تلعب دورها دون شك في بعث العاطفة القومية فهذه العاطفة وحدها التي تكفل بقاء الكيان القومي للأمة واحداً متماسكاً.

ويؤكد أيضاً الاستاذ أبو خلدون ساطع الحصري على أهمية عنصر العاطفة والشعور. حيث يقول في حديثه عن «الوطنية» «والقومية»:

«إن الوطنية هي حب الوطن والقومية هي حب الأمة. ولما كان الوطن قطعة من الأرض والأمة جماعة من البشر، فإن الوطنية هي ارتباط الفرد بقطعة من الأرض تعرف باسم الوطن. و «القومية» ارتباط الفرد بجماعة من البشر تعرف باسم الأمة. وحب الوطن يتضمن بطبيعته حب المواطنين الذي ينتمون الى ذلك الوطن. كما أن حب الأمة يتضمن في الوقت نفسه حب الأرض التي تعيش عليها تلك الأمة»[١٣].

ولقد أثبتت الوقائع التاريخية والأبحاث العلمية. من أن النظرية الالمانية في تعريف الأمة السائدة[١٤]. ومن أكبر المؤيدين لوجهة النظر الألمانية. المفكر العربي القومي أبو خلدون ساطع الحصري الذي يقول: «الأمة كائن اجتماعي يتصف بالحياة والشعور. حياة الأمة بلغتها، وشعورها بتاريخها: والأمة التي تنسى تاريخها ومع هذا تبقى محتفظة بلغتها تكون بمثابة عضوية اجتماعية فقدت الوعي والشعور ولكنها بقيت على قيد الحياة. والشعور قد يعود اليها، عندما تتذكر وتتعلم تاريخها. ولكن الأمة إذا ما فقدت لغتها وصارت تتلكم بلغة أمة أخرى تكون قد اندمجت في تلك الأمة.. وفقدت كيانها الخاص وزالت من عالم الوجود..»[١٥]
أما الدكتور منيف الرزاز فإنه يرى أن العامل الاساسي لتكوين القومية يكمن في قوة ومتانة شعور مجموعة من الناس بأنهم أبناء قومية واحدة[١٦].

ومما هو جدير بالذكر هنا أن المجتمع الذي أنشأه العرب ضمن الإطار الاسلامي ظل مترابطاً ومتجانساً[١٧]. بالرغم من الأحداث والكوارث التي تعرض لها في القرون السابقة لسيطرة العثمانيين عليه من هجمات صليبية وغزو مغولي ومع انتهاء منتصف القرن السادس عشر تحقق كما يقول المؤرخ الانجليزي المعاصر أرنولد توينبي «نوع من أنواع الوحدة العربية ليس نابعاً من الداخل وإنما مفروض من الخارج من قبل الامبراطورية العثمانية[١٨].

ويرى الباحث أن هذا النوع من الوحدة حدث نتيجة للعوامل التالية:

١- عدم تمكن الاتراك المسيطرين على العالم العربي من صرف العرب عن لغتهم وثقافتهم الخاصة. بسبب عدم امتلاك العثمانيين لرصيد حضاري يمكنهم من فعل ذلك[١٩].

٢- لم يؤثر الحكم العثماني[٢٠] بالرغم من امتداد فترته الزمنية في المجتمعات العربية، نتيجة لمفهوم العثمانيين في الحكم مفهوم قائم على الحكم الغير مباشر ومحصور في حماية الولايات المتحدة التابعة لهم من الغزو الخارجي وإقرار الأمن في الداخل وجباية الضرائب. أما المسائل العامة كالثقافة والتعليم والصحة فلم تكن تدخل بالضبط في مسؤولية الدولة بل تركت للأفراد والجماعات[٢١].

ومما لا جدال فيه هو أنه بالرغم من الوحدة التي عاشها العرب في ظل السيطرة العثمانية حيث كان التنقل السهل بين أقطار – لا حواجز جمركية ولا سياسية – إلاّ أن بريق القومية العربية فقد كثيراً من لمعانه بسبب غلبة الشعور بالقومية الاسلامية العامة. حيث كان العرب وهم جزء لا يتجزأ من دار الخلافة يخلطون نتيجة لتفشي الجهل بينهم ولضعف حالتهم الفكرية بين الاسلام والخلافة. وإن واجبهم كمسلمين يحتم عليهم اطاعة السلطان العثماني لأنه خليفة المسلمين ورمز الاسلام ولا اسلام بلا خلافة أو خليفة[٢٢]. ومما لا شك فيه أن الاتراك استغلوا هذه العاطفة الدينية للاحتفاظ بولاء العرب لهم[٢٣].

بعد هذا العرض الموجز لمفهوم القومية وحالة القومية العربية في ظل الحكم العثماني سننتقل الآن الى الحديث عن مميزات

القومية العربية في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر وحتى اشتعال الحرب الكونية الأولى.

القومية العربية في الفترة من ١٨٧٠ الى ١٩١٤:

ان أول ملاحظة تلفت الدارسين لفكرة القومية العربية في تلك الفترة هي أن الفكر القومي برز بشكل واضح على سطح العلاقات العربية العثمانية في الولايات العربية الخاضعة للحكم العثماني وبالذات في الشام والعراق ويمكن تفسير ذلك في ضوء:

١- أن الولايات المتحدة الخاضعة للحكم العثماني كانت تريد التخلص من سيطرة اسلامية «عثمانية»[٢٤]. في حين أن الوضع في مصر والسودان والمغرب العربي يختلف تمام الاختلاف. حيث كانت هذه الدول خاضعة للاستعمار الأوروبي ومعزولة عن بقية أنحاء الشرق العربي ولذلك اتخذت الحركة الوطنية فيها أشكالاً اقليمية خاصة[٢٥].

٢- كثرة العنصر المسيحي في الولايات العربية العثمانية. حيث كان المسيحيون هم الرواد الأوائل لفكرة القومية العربية[٢٦]. أليست القومية قطباً معادلاً للحركة الاسلامية التي تستبعد العناصر غير الاسلامية[٢٧].

٣- دور المؤسسات التبشيرية في ابراز تاريخ العرب وآدابهم ولغتهم[٢٨]. هذا وقد استعان البروتستانت بكتاب عرب مسيحيين. كالأديب نصيف اليازجي[٢٩] الذي كتب لهم الكتب المدرسية في قواعد اللغة والأدب والمنطق. كما ترجم لهم بطرس البستاني[٣٠] الكتاب المقدس وكاد يتمه لولا أن عاجلته المنية.

الأدوار التي مرت بها الحركة القومية العربية:

مرت حركة العرب القومية في الفترة من ١٨٧٠ الى ١٩١٤ بدورين رئيسيين:

الدور الأول:

هو دور الوفاق[٣١] مع الحركة التركية القومية. وقد حدث التفاهم العربي التركي نتيجة للاسباب التالية:

أ- أن الحركتين كانتا موجهتان ضد الاستبداد الحميدي[٣٢].

ب- أن الحركة التركية كانت تكافح من أجل اقامة نظام دستوري مما سينعكس بالإيجاب بدون شك على الولايات العربية الخاضعة للحكم العثماني.

جـ- التأثير الكبير للحركة القومية التركية في الحركة القومية العربية. خاصة وأن النماذج التركية هي الأكثر مثولاً أما أعين الداعيين الى القومية العربية[٣٣].

د- ويرى الدكتور محمد أنيس[٣٤]. ان من أهم الاسباب التي ادت الى هذا الوفاق هو ضعف الطبقة المتوسطة العربية وتعذر استنادها على مقدراتها الذاتية. وفي أن الطبقة المتوسطة التركية لم تكن كسبت المعركة تماماً مع السلطان عبد الحميد.

الدور الثاني:

بدأ تقريباً في عام ١٩١٢ وفيه بدأت الحركة العربية تتخذ لها موقفاً متميزاً بل ومعادياً للدولة العثمانية والاتحاد والترقي. وذلك بسبب سياسة الاتحاديين الداعية الى عثمنة الولايات التابعة للدولة[٣٥] أو أهمية الامبراطورية العثمانية والتي كانت تعني من الناحية العملية تفوق الجنس التركي على حساب القومياتي الأخرى والتي طلب منها أن تذوب في الدولة العثمانية[٣٦].

وقد بدأ العداء يبرز على سطح العلاقات العثمانية العربية. عندما تطورت حركة الجامعة العثمانية الى الحركة الطورانية[٣٧] والتي تدعو بصراحة الى تفوق الجنس التركي وطمس معالم المقومات العربية الاساسية. اضافة الى أن الفشل العثماني في الذود عن أراضي طرابلس. لعب دوراً كبيراً في تأصيل هذا العداء، لأن الفشل العثماني بيّن للعرب أهمية وضرورة ابراز كيانهم الخاص والمتميز. الذي يمكنهم من الدفاع عن أوطانهم.

وقد تميزت فترة الدور الثاني من الحركة القومية بما يلي:

١- بروز تفكير عربي قومي واضح تمام الوضوح بعد فترة من الخلط بين الفكرة الاسلامية والفكرة العربية. وقد كان ذلك جلياً في الأبحاث التي قدمت لمؤتمر الطلبة العرب في باريس سنة ١٩١٣ فقد عرض عبد الغني العريس لتعريف الأمة العربية فقال: «هل إذا جمعت على رأي علماء الالمان وحدة اللغة ووحدة العنصر. وعلى رأي علماء الطليان: وحدة السطح السياسي. فإذا نظرنا الى العرب في هذه الوجوه الثلاثة علمنا

أن العرب تجمعهم وحدة لغة. ووحدة تاريخ ووحدة عادات. ووحدة مطمح سياسي. فحق العرب بعد هذا البيان أن يكون لهم على رأى كل علماء السياسة دون استثناء: حق جماعة حق أمة[٣٨].

٢- انحصرت الحركة العربية القومية في هذه المرحلة في نطاق عربي ضيق، فقد كانت تشمل بلاد الشام بأجزائها والعراق.

٣- التعاون بين القوميين العرب وبين الدول الأوروبية. ويعكس هذا التعاون الفهم الخاطئ من جانب القوميين العرب لطبيعة الاستعمار الأوروبي. وقد ظهر هذا التحالف بأجّل صورة ابان الحرب العالمية الأولى مع سير هنري مكماهون المعتمد البريطاني في مصر[٣٩]. حينما أصبح قرار قادة الحركة القومية العربية. الاستقلال نهائياً عن الدولة العثمانية.

هذا وقد اتخذت الحركة القومية في هذه المرحلة شكل الجمعيات السرية والعلنية. وسوف نلقي الضوء الآن على الجمعيات التالية

١- جمعية بيروت السرية.

٢- المنتدى العربي .

٣- حزب اللامركزية الإدارية العثماني.

٤- الجمعية القحطانية.

٥- جمعية العربية الفتاة.

مبينين تاريخ انشاء كل جمعية والمؤسسين لها والأهداف التي سعت الى تحقيقها.

دور الجمعيات العربية في تبلور الوعي القومي:

١- جمعية بيروت السرية:

يرى جورج انطونيوس. أن أول جهد منظم في حركة العرب القومية يعود الى سنة ١٨٧٥ - أي قبل ارتقاء السلطان عبد الحميد العرش بسنتين. وذلك من خلال جمعية بيروت السرية. التي الفت من قبل خمسة شبان مسيحيين من الذين درسوا في الكلية البروتستنية. وبسبب ادراك المؤسسين لقيمة اشراك المسلمين والدروز اليهم فإننا نجدهم في فترة لاحقة يضمون اليهم حوالي اثنين وعشرين شخصاً ينتمون الى طوائف دينية مختلفة. وقد استطاع مؤسسوا الجمعية من التقرب الى المحفل الماسوني[٤٠] الذي كان قد دخل بلاد الشام على صورته التي عرفتها أوربا. وذلك عن طريق أحد زملائهم وكانت بيروت هي مركز منظمتهم إلاّ أنهم انشأوا لهم فروعاً أخرى في كل من دمشق وطرابلس وصيدا. وبسبب ثورية أهدافهم نجدهم يقصرون أعمالهم في البداية على الاجتماعات السرية ولصق المنشورات في الشوارع وقد بلغ من شدة براعة التنظيم أن الشائعات بدأت تسري. ان مدحت باشا والي الشام. الصدر الأعظم السابق وصاحب دستور سنة ١٨٧٦ يقف وراء هذه الجمعية ان لم يكن مؤسسها الحقيقي.

وقد ابرزت الجمعية أهدافها في ثلاثة مناشير خرجت من بيروت عام ١٨٨٠ جاء في مضمونها مطالبة الدولة العثمانية بما يلي:

١- الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية في البلاد.

٢- منح الاستقلال لسوريا ولبنان متحدتين.

٣- رفع الرقابة والقيود الأخرى التي فرضها عبد الحميد لمقاومة الآراء الحرة ونشر التعليم.

٤- عدم استخدام القوات العربية المجندة خارج حدود بلادها.

المنتدى الأدبي:

جمعية أنشأها جماعة من الموظفين والنواب والأدباء في القسطنطينية سنة ١٩٠٩م. وكان من بين المؤسسين لها:

عبد الكريم قاسم خليل، صالح حيدر، جميل الحسيني، رفيق سلوم، يوسف مخيبر، وسيف الدين الخطيب. أما منهاج المنتدى الذي وضعه السيد عبد الكريم الخليل فكان يرمي الى جعل المنتدى كمعهد علمي للشباب العربي. وتلقى فيه المحاضرات العلمية في الليل وتؤسس فيه مكتبة قيمة مع اتخاذ البعض من غرفة مأوى لأبناء العرب الذين لم تساعدهم حالتهم المالية على السكن في الفنادق والخانات. وبما أن أهداف المنتدى الظاهرة لم تكن سياسية. فقد وضعه الاتحاديون ردحاً من الزمن تحت رعايتهم. وقد أتت على المنتدى الأدبي فترة أصبحت فيه هيئته الإدارية الوسيط الرسمي المعترف به في المفاوضات التي دارت لتسوية الخلافات بين العرب والاتحاديين[٤١]. أما أعضاؤه فقد كان يقدر عددهم بالألوف

وأكثرهم من الطلاب. كذلك فتح المنتدى له فروعاً عدة في بلدان كثيرة كالشام والعراق. ومن أهم الفوائد التي قدمها المنتدى الأدبي للحركة القومية العربية في تلك الفترة هي انشاؤه الكثير من المراكز التي يجتمع فيها العرب من جميع أنحاء الدولة يتحدثون فيها بحرية وكأنهم في بلادهم بالإضافة الى مساهمته الكبيرة في تقوية الحركة العربية وتوسيع مداها[٤٢].

وقد بقي المنتدى حتى عام ١٩١٥ حين أعدم رئيسه الاستاذ عبد الكريم الخليل على يد السفاح جمال باشا اثر محاكمات ديوان الحرب في عاليه[٤٣].

حزب اللامركزية الإدارية العثمانية[٤٤]:

أنشيء هذا الحزب في القاهرة في أواخر عام ١٩١٢. وكان ذو اتجاهين في أهدافه فهو من ناحية يريد أن يوضح للحكام الاتراك مدى الحاجة الى الإدارة اللامركزية في الدولة ومن ناحية ثانية يريد تعبئة الرأى العام العربي لتأييد اللامركزية. وقد اسندت مهمة الاشراف على هذا الحزب الى لجنة مكونة من عشرين شخصاً يقيمون في مصر وينتخبون من بينهم لجنة إدارية تتكون من ستة أعضاء.

وأنشئت لهذا الحزب فروع في كل مدينة في الشام ووكالات صغيرة في عدد من الأماكن الأخرى. وبعد مرور أقل من سنة على التأسيس أصبح الحزب أفضل من يمثل أهداف العرب وأمانيهم من حيث دقة التنظيم وقوة التأثير[٤٥].

أن قيمة هذه الحزب تكمن في أنها التجربة الأولى التي خاضها العرب في ميدان العمل المنظم حيث قضت حوالي ثلاث سنوات والمعركة بين الاتحاديين الذين ينادون بالمركزية في الإدارة والعرب الذين ينادون بالحكم الذاتي متفرقة ومتقطعة كعادة العرب في حروبهم[٤٦]. وقد حاول هذا الحزب تنظيم الجهود وجمعها في جهد واحد منسق.

٤- الجمعية القحطانية [٤٧]:

بعد أن حلت جمعية الاخاء العربي العثماني وبعد تشدد العثمانيين وتصلبهم من اجل اسكات كل صوت عربي يحاول تغيير الوضع القائم تأسست الجمعية السرية الأولى. وذلك في عام ١٩٠٩ بالآستانة وقد ناضلت الجمعية من أجل تحقيق هدف جرئ وجديد ألا وهو تحويل الدولة العثمانية الى مملكة ذات تاجين[٤٨]. فيضع السلطان العثماني في القسطنطينية على رأسه تاج المملكة العربية الى جانب التاج التركي. كما كان امبراطور آل هايسبورغ[٤٩] في ڤينا يضع على رأسه تاج المجر[٥٠] وأن يكون للولايات العربية مجالسها النيابية الخاصة وإدارتها المحلية وأن تكون لغة معاهدها ومؤسساتها العربية[٥١].

وفي هذا المشروع حدد قادة الجمعية أهدافهم ووضعوا الاسلوب العملي لتحقيقها. ولما كان قادة هذه الجمعية من الرجال العمليين، فإنهم ارتأوا استحالة الجهر بآرائهم. وعلى هذا الأساس قاموا بإخفاء النوايا المرجوة. وكان اختيار أعضاء هذه الجمعية يتم بعناية ودقة ولم يضم اليها عضواً ما لم تكن وطنيته فوق مستوى كل الشبيهات وممن يوثق بقدرته في كتمان السر[٥٢].

وقد استطاعت هذه الجمعية أن تضم الى صفوفها بعض من الضباط العرب من ذوي الرتب العالية في الجيش التركي واثنان من مؤسسي «المنتدى العربي الأدبي» وكانت للجمعية كلمة سر وإشارة لاثبات شخصية العضو[٥٣].

وبالرغم من النشاط الكبير الذي قام به أعضاء الجمعية في سنتها الأولى وبالرغم من انتشار هذه الجمعية بشكل واسع في زمن قصير وبالرغم من الدقة في اختيار الأعضاء إلاّ أن أعضائها تعمدوا انهائها بعد أن اكتشفوا خيانة أحدهم حيث دب القلق في نفوس باقي الجماعة.

أما قيمة هذه الجمعية في تاريخ الحركة العربية فإها تكمن في أنها قامت بالمحاولة الأولى لضم الضباط العرب في الجيش التركي[٥٤].

٥- جمعية العربية الفتاة:

يكاد المؤرخون أن يتفقوا حول المؤسسين لهذه الجمعية. وهم سبعة[٥٥] من الشبان العرب المسلمين. الذين كانوا يواصلون دراستهم العالية في العاصمة الفرنسية.

أما تاريخ تأسيس هذه الجمعية فالبعض يرجعه لسنة ١٩٠٩[٥٦] والبعض الآخر يرجعه لسنة ١٩١١. ولقد كانت باريس هي مقر الجمعية الأولى. وبعد انهاء الطلبة لدراستهم وعودة الطلبة الى ديارهم نقل مركز الجمعية الى بيروت في

عام ١٩١٣ وفي العام التالي ١٩١٤ اصبحت دمشق هي مركز الجمعية[٥٧].

ولقد ظل سر قيام هذه الجمعية خافياً ولم يعرف إلاّ بعد أن تحررت الشعوب العربية من الحكم التركي. وقد كان ذلك ممكناً بفضل التنظيم الرائع لأعضائها حيث العضو يمر بفترة اختبار طويلة قبل أن تقبل عضويته والمرشح يستوجب تقديمه من عضو قديم ممن حلف اليمين. وعندما يقبل العضو في الجمعية يطلب منه تأدية القسم بالسعي في تحقيق أهداف الجمعية حتى ولو اقتضى الأمر التضحية بالنفس[٥٨]. وهذا ما حدث بالفعل. فقد فضل شكري القوتلي أحد أعضائها الانتحار على افشاء سر الجمعية. أما عبد الغني العريسي فقد سيق الى حبل المشنقة حيث لفظ أنفاسه الطاهرة هناك ولم يبح بسر الجمعية.

وقد انحصرت جهود أعضاء الجمعية في المضي حتى حصول الاقطار العربية على الاستقلال من أي سيطرة سواء تركية أو أوروبية. وكذلك الصعود بالأمة العربية كي تحتل مكانتها التي تستحقها بين الأمم. وهنا نجد تقدم ملحوظ في الأهداف إذا ما قيست بالبرامج السابقة التي كانت تنادي بالحكم الذاتي في ظل الدولة العثمانية.

خلاصـــة:

مما تقدم نرى أن السبب الرئيسي لابراز فكرة القومية هو التمزق الذي عاشته بعض الدول. مما أتاح اخضاعها لعدوها الخارجي. لذلك ارتأت هذه الدول أن الحل الأمثل يكمن في وحدتها وان وحدتها هي المفتاح الاوحد لقوتها.

أما بالنسبة للولايات العربية التي كانت خاضعة للامبراطورية العثمانية فقد وجدنا أن الفكر القومي ساد فيها نتيجة لنمو النشاط السياسي والفكري لبعض القيادات والزعماء الذين رأوا – يومذاك – ان الطريق الأمثل لتأكيد العرب لهويتهم السياسية ضد الاتراك وخروجها من التخلف والجمود التي كانت عليها. إنما تتأتى عن طريق تعميق الاحساس وتأصيل الشعور بالقومية. ولقد كانت الظروف يومذاك مواتية لها لضعف الدولة العثمانية وتهالكها. وللتسلط التركي والهجمة الاستعمارية. وكذلك بسبب بروز تيارات فكرية عالمية طرأت على القرن الماضي وساعدت على خلق المناخ الملائم للدعوة الى الفكر القومي في كل البلاد.

هذا وقد اتضح جلياً أن تركيز الحركة القومية في تلك الفترة كان شاخصاً الى استقلال الدويلات العربية الخاضعة للامبراطورية العثمانية ساعياً الى اعلان اتحاد بعضها ببعض. ولقد تبين لنا من هذه الدراسة أن هذه المرحلة قد افتقرت الى نشاط سياسي أو حركة قومية بالغة التنظيم. من أجل ذلك غابت عن الوحدة النواحي التفصيلية والاجرائية والأساليب التي تحقق الوحدة والمراحل التي ستمر بها. ولقد تميّز الفكر القومي في هذه الفترة بتغليب الطابع العرقي على الطابع العلماني والديني كليهما فضلاً عن تغليب الجانب السياسي من الوحدة على النواحي الأخرى الاجتماعية والثقافية والعسكرية.

وبالرغم من بعض السلبيات التي اعترت الفكر القومي في تلك الفترة. إلاّ أننا نتفق مع ما ذهب اليه أحد الباحثين «الدكتور فيصل دراج» في قوله «ان هذا الفكر شكل بوعي أو بلا وعي (العتبة التاريخية) التي انطلق منها الفكر القومي الواعي لذاته[٦٠]. لذلك ينبغي النظر في هذا الفكر يومذاك على علاته وأن نكبره مع ما كان فيه من نقص أو قصور في النظر أو في التطبيق لأنه العتبة الأولى التي انبنى عليها الفكر القومي الحديث الذي ما يزال يعتمل في وجدان الأمة العربية من المحيط الى الخليج وصداه متجسد فيما نراه اليوم من تجمعات عربية شاخصة الى الوحدة العربية.

الهوامش

١– لمزيد من التفصيل حول المفهوم اللغوي لكلمة قومية انظر بحث الدكتور محمد أحمد خلف الله بعنوان «التكوين التاريخي لمفاهيم الأمة، القومية، الوطنية، الدولة. والعلاقة فيما بينها» في كتاب «القومية العربية والاسلام». بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية. مركز دارسات الوحدة العربية. بيروت. الطبعة الأولى. ابريل ١٩٨١.

٢– هناك شبه اتفاق بين المؤرخين على أن كلمة قومية طرحت لأول

مرة في أعقاب الثورة الفرنسية وعلى أن مدام دوستايل (DE STAEL) كانت أول من استخدم هذه الكلمة لتؤدي معنى جديداً ومفهوماً ومحدداً كان لا بد أن يحدد في مصطلح.

٣- القومية وحدة شعورية يستثيرها اللغة، الوحدة، الجغرافية، الجذور التاريخية الخ جاءت في فترة زمنية انتهت فيها فكرة توحيد العالم المسيحي بزعاميته الزمنية والدينية وفي فترة اثبتت فيها أن عناصر الدم والعرق أقوى من الروابط الامبراطورية. وبناء على هذا حلت الدولة الموحدة ذات السيادة التامة من الناحية الزمنية والناحية الدينية وفقد النبلاء أهميتهم كما فقد رجال الكنيسة سلطانهم واستقلالهم. ومقابل ذلك زادت قوة الملوك. وقوة رجل الشعب العادي.

٤- انظر حول الوحدة الألمانية منذ أن أتمها بسمارك في عام ١٨٧١ وحتى التقسيم الى نظامين HENRI BURGELIN "LA SOCIETE ALLMANDE, 1871 - 1968", Ed. Arthaud, Paris 1969.

(٥) لقد كان الغزو النابليوني لايطاليا سبباً رئيسياً في ايقاظ القومية الايطالية والاتجاه نحو الوحدة انظر حول الوحدة الإيطالية:

هـ. أ. ل. فشر «تاريخ أوروبا في العصر الحديث (١٧٨٩-١٩٥٠). تعريب أحمد نجيب هاشم - وديع الضبع، الطبعة الخامسة. دار المعارف بمصر ص ص ٢٢٨ ، ٢٥١.

(٦) ارنولد توينبي: «نظرة في تاريخ الشرق الأوسط». محاضرات ارنولد توينبي في ج.ع.م. الدار القومية للطباعة والنشر سنة ١٩٦١.

٧- يفرق الكتاب بين القومية في أوروبا التي كانت تهدف الى الوحدة وبين القومية في العالم الثالث التي كانت ترمي الى الاستقلال والتخلص من التبعية الاقتصادية بعد الاستقلال.

٨- تيار فكري برز مع الثورة الفرنسية ولكنه لم يعبر عن نفسه بوضوح إلاّ مع نهاية القرن التاسع عشر بعد هزيمة فرنسا من المانيا سنة ١٨٧٠ وبعد أن ضمت الأخيرة اليها الالزاس واللورين.

٩- يوسف خليل يوسف «القومية ودور التربية في تحقيقها». الدار القومية للطباعة والنشر. القاهرة سنة ١٩٦٦ ص ص ٢٥ - ٢٦.

أما في المعجم الفرنسي «روبرت الصغير» فهو يعرف الأمة مجموعة من الناس، عادة تكون كبيرة، تتميز بالشعور بوحدتها ورغبتها في المعيشة المشتركة.

Le Petit Robert I, Por Paul Robert, ed, 1986 P. 1206.

لمزيد من التفصيل حول التعاريف والنظريات الخاصة بالقومية انظر:

أبو خلدون ساطع الحصري «ما هي القومية؟ أبحاث ودراسات على ضوء الأحداث والنظريات». دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٦٣ ص ص ٣٢ - ٤٨.

١٠- لا بد من التركيز هنا، من أن الأدباء الألمان وعلى رأسهم الأديب الكبير جيتا، لعبوا دوراً كبيراً في اعتاق الأمة الالمانية من خضوعهم الكبير للأدب الفرنسي خاصة وأن الأساليب الفرنسية كانت هي السائدة في قصور الملوك والأمراء وفي اللغة والأدب والغرام والعادات والرقص والفن والفلسفة والشعور المستعارة. ولم يتكلم الارستقراطيون الألمان الالمانية إلاّ مع الخدم فقط. وكان الكتاب الألمان يكتبون بالغرنسية للطبقات العليا أو باللاتينية للعالم المثقف.

انظر ول وايريل ديورانت «قصة الحضارة» عصر لويس الرابع عشر، تاريخ الحضارة الأوروبية في عصر بسكال وموليير وكرومول وملتن وبطرس الأكبر ونيوتن وسبينوزا. ١٦٤٨ - ١٧١٥. ترجمة فؤاد اندراوس. مراجعة على أدهم. الجزء الثالث من المجلد الثامن. دار الجيل بيروت ١٩٨٨. ص ص ٧٤ - ٧٧.

١١- أبو خلدون ساطع الحصري. «آراء وأحاديث في القومية العربية». دار العلم للملايين. بيروت. الطبعة الرابعة سنة ١٩٦٤ ص ٦٧.

12) B. RUSSELL, "FREEDON AND ORGANIZATION",G. ALLEN, UNWIN, LTD. 1936. PP. 394 - 395.

١٣- أبو خلدون ساطع الحصري: «آراء وأحاديث في الوطنية والقومية» دار العلم للملايين، بيروت، ط ٢ سنة ١٩٥٨ ص ١٠٤.

١٤- انتقد بعض من الكتاب والمفكرين «فكرة» اعتبار اللغة اساساً للقومية. وحاولوا تدعيم نقدهم بمثال انفصال الولايات المتحدة الأمريكية عن بريطانيا العظمى بالرغم من وحدة اللغة التي تربطهم، لكن هؤلاء الناقدين تناسوا عدة حقائق مهمة:

١- ان استقلال الولايات المتحدة الأمريكية عن بريطانيا العظمى حصل في سنة ١٧٧٦.

٢- البعد الجغرافي بين البلدين حيث وجود المحيط الأطلسي الذي يفصل بريطانيا عن الولايات المتحدة الأمريكية.

٣- لم تكن اللغة الانجليزية هي لغة الأغلبية المطلقة في الولايات المتحدة الأمريكية إلاّ في وقت حديث نسبياً.

٤- يضاف الى ذلك أن اللغة معناها المخزون الثقافي تعني الحضارة. التي هي كيان معنوي جامع ويوحد للعقلية والنفسية للناس. أما أمريكا فلم تصل لهذا العمق إلاّ القليل.

١٥- أبو خلدون ساطع الحصري «آراء وأحاديث في القومية العربية» مصدر سابق ص ص ٦٩ - ٧٠.

١٦-منيف الرزاز «معالم الحياة العربية الجديدة». دار العلم للملايين، ط ٥ ١٩٦٦. ص ص ٢٧٢ - ٢٧٧.

١٧- انظر عبد القادر زبادية «دور الاسلام والعربية لغة وثقافة في تكوين مقومات القومية العربية وفي بعث الوعي القومي العربي». بحث مقدم الى الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية ونشر، في كتاب القومية العربية والاسلام» مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، سنة ١٩٨١ ص ص١١١ - ١١٨.

١٨- نقلت عن ارنولد بوينبي «لماذا تأخرت وحدة العرب» محاضرات أرنولد توينبي في ج.ع.م - كتاب د. يوسف خليل يوسف» القومية العربية ودور التربية في تحقيقها. مرجع سابق ص١٠١.

١٩- الرصيد الحضاري العثماني كان في الأصل طورانياً وكان ضعيفاً فلم تكن لهم حتى أبجدية خاصة ولذلك كان الاسلام رصيدهم الحضاري شأن التتار وشأن الرومان حين أخذوا الرصيد الحضاري اليوناني.

٢٠- لمزيد من التفصيل حول العلاقات العربية العثمانية انظر: عبد الكريم رافق «العرب والعثمانيون. ١٥١٦ - ١٩١٦. مكتبة اطلس دمشق. ط ١، ١٩٧٤.

٢١- لمزيد من التفصيل حول نظام الحكم العثماني انظر:

GIBB H. and BOWEN HAROLD "ISLAMIC SOCIETY AND THE WEST. 2 Vol (Oxford U. P. 1953 - 1957).

٢٢- محمود حلمي «المجتمع العربي». دار الفكر العربي. القاهرة، ط ١ سنة ١٩٦٥. ص٣٧١.

نادى بعض من المصلحين المسلمين بضرورة الحفاظ على الحاكم حتى ولو كان طاغية ومنهم على سبيل المثال لا الحصر الشيخ محمد عبده الذي بدأ حياته مثل استاذه الأفغاني متمرداً مصلحاً وانتهى محافظاً متصالحاً مع النظام قبل أن يبلغ سن الأربعين من عمره. حيث قال في إحدى مقالاته المشهورة عن الفائدة التي يمكن أن نجنيها من طاغية عادل يستطيع أن يحقق لنا في فترة خمسة عشر سنة ما نعجز عن تحقيقه في خمسة عشر قرناً.

ALBERT HOURANI "ARABIC THOUGHT IN THE LIBERAL AGE 1798 - 1939" OXFORD UNIVERSITY PRESS. LONDON OXFORD, NEW YORK P. 158.

٢٣- كتب أبو الهدى الصيادي المتوفى سنة ١٩٠٠ والذي عمل مستشاراً للسلطان عبد الحميد مهاجماً الأفكار الداعية الى نقاوة الاسلام كما تصورتها الوهابية وغيرها من الحركات السلفية ومن أجل الدفاع عن حق السلطان في الخلافة وضرورة اطاعته والالتفاف حوله التالي «ان الخلافة ضرورة ايمانية انتقلت شرعياً من أبي بكر الى العثمانيين، وبأن الخليفة هو ظل الله على الأرض منفذ احكامه وبأن من واجب جميع المسلمين أن يطيعوه وأن يكونوا من الشاكرين إذا أصاب ومن الصابرين إذا أخطأ. وبأن عليهم حتى إذا ما أمرهم بمخالفة شرائع الله أن يلجأوا قبل عصيانه الى النصيحة والدعاء واثقين بأن الله أقوى منهم على تغييره نقلاً عن:

حليم بركات «المجتمع العربي المعاصر، بحث استطلاعي اجتماعي» مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ابريل ١٩٨٤ ص ٤٠٠ انظر كذلك جورج انطونيوس «يقظة العرب» مصدر سابق ص ص١٣٦ - ١٣٨.

٢٤- لمزيد من التفصيل حول هذه النقطة انظر البحث القيم، أحمد كمال أبو المجد «نحو صيغة جديدة للعلاقة بين القومية العربية والاسلام». في كتاب القومية العربية والاسلام. مصدر سابق، ص ص٥٢ - ٥٣٣.

٢٥- انظر حازم زكي نسيبه «القومية العربية. فكرتها - نشأتها - تطورها»، ترجمة عبد اللطيف شراره. منشورات المكتبة الأهلية - بيروت، سنة ١٩٦٢. ط ٢ ص ص٧٦ - ٧٩.

٢٦- يرى بعض المؤرخين أن فكرة القومية نقلت الى الوطن العربي عن طريق المسيحيين العرب الذين كانوا يرتبطون بالغرب بعلاقات خاصة والبعض الآخر يرى من أن البدايات الأولى لليقظة القومية العربية كانت ذاتية حكمتها أوضاع داخلية خاصة بالمجتمع العربي ولم تكن مجرد رد فعل للموجة الغربية أو نتيجة للتأثر بها.

لمزيد من التفصيل حول هذه النقطة انظر:

١- عبد العزيز الدوري «الجذور التاريخية للقومية العربية». دار العلم للملايين، بيروت سنة ١٩٦٠، ط ١ ص٥٦.

٢- جورج انطونيوس «يقظة العرب» مصدر سابق ص ص ١٦٧ - ١٦٨.

٢٧- هناك بعض من الكتاب يرجع مشاركة المسيحيين في ابراز الفكر القومي الى سبب ثقافي لا ديني، حيث كان المسيحيون الأوائل الذي أدخلوا ابناءهم المدارس الأجنبية من امريكية وأوروبية. بينما كانت الروح الطائفية تحول دون المسلم وتثقيف ابنه ثقافة غربية. ومن ثم فإن المسيحيين تأثروا بالأفكار الغربية السائدة في تلك الفترة في أوروبا ونقلوها الى أوطانهم.

انظر أحمد الشيباني «القومية العربية في النظرية والتطبيق»، دار الكتاب العربي بيروت، ط ١. ١٩٦٦ ص٢٨.

جورج انطونيوس «يقظة العرب» مصدر سابق ص ص١٦٧ - ١٦٨.

عبدالله عبد الدائم «الجيل العربي الجديد». دار العلم للملايين. بيروت ط١ سنة ١٩٦١ ص ص١٠٩ - ١١٢.

٢٨- انتقد كثير من المؤرخين الدور الخبيث الذي لعبته المؤسسات التبشيرية في تثبيت الخلافات والانقسامات الطائفية.

انظر جورج انطونيوس «يقظة العرب» مصدر سابق ص ص ١٦٤ - ١٦٦.

٢٩- ناصيف اليازجي (١٨٠٠ - ١٨٧١) ولد لأسرة لبنانية كان ماضيها خيراً من حاضرها «بحسب تعبير جورج انطونيوس» تعلم على يد كاهن القرية وما طالعه من مخطوطات في مكتبات الأديرة وفي السادسة عشرة من عمره اختير سكرتير لاحد كبار رجال الدين ثم اشتغل في ديوان الأمير بشير الشهابي حاكم جبل لبنان وقد اشتهرت كتاباته الأدبية وذاع صيته حتى اتجه اليه المبشرون الأمريكان ليعينهم في اصدار كتيب في علوم العربية.

لمزيد من التفصيل حول حياة اليازجي ونشاطاته انظر:

١- جورج انطونيوس «يقظة العرب» مصدر سابق، ص ص ١٠٩ - ١١٢.

٢- عماد عبدالسلام رؤوف. الجمعيات العربية وفكرها القومي: ملامح الوعي القومي عند العرب منذ مطلع القرن التاسع عشر حتى قيام الحرب العالمية الأولى». المستقبل العربي العدد ٨١. السنة الثامنة. نوفمبر ١٩٨٥ ص ص ١١٩ - ١٢١.

٣٠- بطرس البستاني (١٨١٩ - ١٨٨٣) عربياً نصرانياً من جبل لبنان. تلقى أحسن ضروب التعليم الموجود في عصره وأتقن أكثر من لغة ثم التحق في سن العاشرة بكلية الدير في عين درقة. وتعرف على بعض المبشرين فاعتنق المذهب المشيخي وارتبطت جهوده بجهود البعثة التبشيرية فترجم التوراة وألف معجم «محيط المحيط» ومختصره «قطر المحيط» في اللغة. كما انكب على كتابة دائرة معارف اصدر منها ستة أجزاء قبل وفاته.

٣١- يوسف خليل يوسف «القومية العربية ودور التربية في تحقيقها» مصدر سابق ص ص١١٥ - ١١٦.

٣٢- طبائع الاستبداد لعبدالرحمن الكواكبي هي عبارة عن مجموعة من المقالات نشرت في الصحف المصرية. كان المقصود منها مهاجمة السلطان عبد الحميد بالذات. وقد كتب الكواكبي سلسلة من المقالات عن مستقبل الاسلام جمعها في كتاب «أم القرى» تخيل فيها أن اثنين وعشرين شخصاً خيالياً من العلماء والفقهاء من اثنين وعشرين قطراً من اقطار العالم الاسلامي، قد اجتمعوا في مكة للحج وبعد أن تبادلوا الآراء في أكثر من اثني عشر اجتماعاً رسمياً قرروا أن ينشئوا جمعية ترمي الى احياء الاسلام والنهوض به وجدير بالملاحظة هنا ذكر الفرق بين الكواكبي وجمال الدين الأفغاني لأن الاثنين ناديا بوحدة اسلامية، إلاّ أن الأول ارتأى في أن يكون الحاكم عربياً وأن تكون مركز الخلافة مكة أما الثاني فكان المهم عنده في أن يكون الحاكم مسلما.

انظر حليم بركات «المجتمع العربي المعاصر» مرجع سابق، ص ٤٠٧ - ٤١١. أنور الجندي «الفكر العربي المعاصر في معركة التغريب والتبعية الثقافية» مصدر سابق ص ص٨٦ - ٨٧.

كذلك انظر حول آراء جمال الدين الأفغاني في القومية.

أبو خلدون ساطع الحصري «ما هي القومية؟» مصدر سابق ص ص١٢٧ - ١٤٨.

٣٣- ان التأكد بالجمعيات التركية وصل الى درجة التقليد فسميت احدى الجمعيات العربية بالعربية الفتاة تقليداً لتركيا الفتاة.

٣٤- محمد أنيس «الدولة العثمانية والمشرق العربي» مرجع سابق ص ٢٦٩.

٣٥- انظر حول العلاقات بين القومية العربية والأتراك.

ALBERT HOURANI "ARABIC THOUGHT IN THE LIBERAL AGE" Op. Cite PP. 278 - 290.

جورج انطونيوس «يقظة العرب» مصدر سابق

ص ص١٧٥ – ١٨٠.

٣٦– لمزيد من التفصيل انظر:

جورج انطونيوس «يقظة العرب» مصدر سابق ص ص ١٨٠ – ١٨٣.

٣٧– تهدف الحركة الطورانية الى تمجيد القومية التركية وتشديدها على قرابة الأتراك العثمانيين من اخوانهم الطورانيين في آسيا الوسطى. وكانت ترفض المبدأ القحطاني الذي ينادي بتوحيد عناصر الامبراطورية المختلفة في أمة واحدة.

٣٨– أنور الجندي «الفكر العربي المعاصر في معركة التغريب والتبعيةي الثقافية» مطبعة الرسالة، مصر، بدون تاريخ، ص ص١٠٢ – ١٠٣.

٣٩– انظر حول هذا التحالف:

جورج انطونيوس «يقظة العرب» مصدر سابق، ص٢٠٤ – ٢٧٥.

٤٠– ان الغاية التي انشئت من أجلها الماسونية كما جاء في دستورها هي:

١– التحري عن الحقيقة.

٢– عمل البر والإحسان.

٣– الدعوة الى المناقبية الروحية والعلمية والفنية.، والأخوة الانسانية.

٤– ممارسة الفضيلة في شتى نواحي الحياة.

لمزيد من التفصيل حول الأساس الذي قامت عليه الماسونية. والغاية التي أنشئت من أجلها وهل ما زالت الماسونية تعمل من أجل نفس الأهداف التي أنشئت من أجله،ا انظر:

جورج حنا «الحارثيات» دار الثقافة. بيروت، بدون تاريخ ص ص٧ – ٢٠.

٤١– جورج أنطونيوس: «يقظة العرب» مرجع سابق ، ص ص١٨٤ – ١٨٥.

٤٢– جورج أنطونيوس «يقظة العرب» مصدر سابق، ص١٨٤.

٤٣– د. توفيق اليوزبكي. وآخرون. دراسات في الوطن العربي، الحركات الثورية والسياسية، الطبعة الثانية. مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، العراق ١٩٧٤، ص٦٠.

٤٤– تم تأسيس هذا الحزب على يد الجالية السورية في مصر، الخائفة على مصير بلادها من الأتراك والبلاد الأوروبية. وقد أصبح رفيق بك العظم رئيساً واسكندر عمون نائباً له، وحقي العظم سكرتيراً، ومحب الدين الخطيب نائباً للسكرتير.

وكان رفيق بك العظم من الرجال الذين أحبوا الدولة الاسلامية والعربية وكرس حياته في خدمتها وكان مخلصاً في ذلك ومن أدلة هذا الاخلاص أنه حينما عرض عليه الاتحاديون وزارة الأوقاف أجاب بأنه طالب اصلاحاً لا وظيفة.

٤٥– جورج انطونيوس «يقظة العرب» مصدر سابق، ص١٨٥.

٤٦– تعبير جورج انطونيوس «يقظة العرب» مصدر سابق، ص١٨٦.

٤٧– يوجد تضارب بين المؤرخين حول المؤسس لهذه الجمعية فمن قائل بأن خليل حمادة باشا هو الذي أسسها عندما كان وزيراً للأوقاف، وهناك من يقول بأن عبد الحميد الزهراوي هو الذي أسسها، وهناك من يدعي بأن تأسيسها تم بالتعاون بين كل من هذه الاثنين الزهراوي وعزيز علي المصري وسليم الجزائري.

٤٨– ما هذا الهدف إلاّ محاولة للوصول الى حل للمشكلة التي أوجدتها سياسة الاتحاديين المركزية.

انظر محمد عمارة «القومية العربية والإسلام» الناشر مركز دراسات الوحدة العربية. ط ٢ سنة ١٩٨٢ ص١٦١.

٤٩– اسرة مالكة حكمت النمسا من عام ١٢٧٨ حتى عام ١٩١٨. وقد اتخذ الهابسبورجيون الزواج كطريقة مثلى لتقوية نفوذهم «إذا كان الآخرون يقومون بالحرب فأنت أيها النمساوي السعيد تتزوج». وفي عام ١٨٠٤ أخذت أسرة الهابسبورج امبراطور النمسا، وفي عام ١٨٦٧ لقب ملك المجر والذي كرس حياته لمملكة المزدوجة.

٥٠– جورج انطونيوس «يقظة العرب» مصدر سابق، ص١٨٦.

٥١– حلمي محمود، المجتمع العربي، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٦٥، ص١٤٤ وكذلك جورج انطونيوس «اليقظة القومية مصدر سابق، ص١٨٦.

٥٢– جورج انطونيوس «يقظة العرب» مصدر سبق ذكره ص١٨٦.

٥٣– كانت العلاقة بين أعضاء الجمعية هي ضغط أحد الأصابع على يد المسلم بوضع اصبعين والشهادة والوسطى على الذراع الأيسر واخفاء بقية الأصابع وبتهجئة كلمة (هلال) عند المحادثة فإذا قال الأول

(هاء) قال الثاني (لام) ثم قال الأول (ألفا) فألحقه الثاني بحرف (اللام).

٥٤- جورج انطونيوس «يقظة العرب» مصدر سابق، ص١٨٧.

٥٥- عوني عبد الهادي. جميل مردم، محمد الحمصاني، عبد الغني العريسي، رفيق التميمي، رستم حيدر، توفيق الناطور.

٥٦- أحمد عزت الأعظمي «القضية العربية» الجزء الثاني ص ص٩٧ ، ١٠٢.

٥٧- جورج انطونيوس «يقظة العرب» مصدر سابق، ص١٨٧.

٥٨- المرجع السابق ص١٨٨.

٥٩- جورج انطونيوس «يقظة العرب» مصدر سابق، ص١٨٨.

٦٠- فيصل دراج شكل الفكر العربي القومي العربي في القرن التاسع عشر، المستقبل العربي. العدد (١٩٧٨/٩)، ص٩٧.



حقائق عن زيارة تشارلس كرين الى العراق في العام ١٩٢٩ في ضوء مواد الصحف العراقية

د. أسامة عبد الرحمن نعمان الدوري
كلية الآداب / جامعة بغداد

تمهيد

عرف تشارلس كرين[١] Charles Crane في المشرق العربي من خلال البعثة التي أرسلها الرئيس الأمريكي ودرو ويلسن W.Wilson في العام ١٩١٩، وتعمقت تلك المعرفة من خلال التقرير الذي اعتبر في حينه منصفاً لحقوق العرب وتطلعاتهم والذي نشر لأول مرة بعد الحرب العالمية الأولى بعدة سنوات وتحديداً في الثاني من كانون الأول ١٩٢٢. اعقب كرين زيارته الرسمية تلك بزيارة سورية في العام ١٩٢٤، وكانت له علاقات طيبه مع شخصيات سورية وفلسطينية.

وتعد زيارته للعراق بين الثالث والسادس والعشرين من كانون الثاني ١٩٢٩ الأولى من نوعها للبلاد، استقبله فيها بحفاوة بالغة الملك فيصل الأول وساسة البلاد وقادة الحركة الوطنية وأدبائها، وأقيمت له الحفلات التي أخذت طابعاً سياسياً تنديداً بالإنتداب البريطاني، حتى يمكن اعتبار ما جرى له في العراق صفحة من صفحات النضال الوطني العراقي ضد الوجود البريطاني. ولهذا اقترحت هيمنة «العراق» على الحزب الوطني العراقي، جمع كافة المقالات والقصائد والخطب التي نشرت بمناسبة «تشريف خادم الإنسانية المستر كراين الى العراق «المظلوم» وترجمتها الى الانكليزية وطبعها بصورة رسالة وتقديم نسخة منها الى المشار اليه تذكاراً لزيارته وارسال نسخ كافية منها الى اعضاء عصبة الأمم والصحف الحرة في أمريكا وانكلترة لكيلا تصبح صيحة في واد أو نفخة في رماد، وتلك أعظم خدمة يسديها الحزب المشار اليه الى العراق والعراقيين»[٢].

ومما تجدر الإشارة اليه أنه لم يتعرض لتلك الزيارة المهمة بشيء من التفصيل أي من المؤرخين، فحتى المؤرخ عبدالرزاق الحسني الذي لم يترك شاردة ولا واردة في تاريخ العراق المعاصر دون ذكرها لم يسجل لتلك الزيارة أكثر من ثلاثة أسطر في سفره المعروف «تاريخ الوزارات العراقية»

وهنا إذ تؤرخ تلك الصفحة من النضال الوطني نكون قد حققنا بعد أكثر من اثنتين وستين عاماً ما طالبت به تلك الصحيفة.

الأوضاع العامة في العراق عشية زيارة تشارلس كريين ١٩٢٩

عانى الشعب العراقي الأمرّين أثناء فترتي الاحتلال والانتداب البريطاني وخاب الأمل بعد افتضاح اتفاقية سايكس بيكو، التي كشفت عن المخطط البريطاني الفرنسي لاقتسام المشرق العربي. وجاءت مقررات سان ريمو، التي كشفت هي الأخرى، زيف الوعود البريطانية المتكررة للعرب، ولا سيما للعراقيين.

وقراءة متمعنة لبنود الانتداب، ومن ثم، لبنود معاهدة ١٩٢٢، تؤكد بدون أدنى شك، الأهداف البريطانية بإبقاء العراق تحت هيمنة التاج البريطاني، ليس فقط لامكانياته الاقتصادية، ولا سيما النفطية، ولكن باعتباره ملتقى الطرق المؤدية الى ايران والخليج العربي ومفتاح السيطرة على شبه الجزيرة العربية[٣].

أمام تلك الحقيقة التي واجهها العراقيون بكل بأس وشجاعة وإيمان بقضية بلادهم، عملوا جاهدين من أجل التخلص من السيطرة البريطانية، ودأبوا في العمل من أجل نيل الاستقلال التام بكل الوسائل المتاحة. فلم يتركوا أية فرصة إلاّ وعبروا عن سخطهم على بريطانية، وتشبثوا بكل السبل من أجل ذلك، فمثلاً، ومنذ وقت مبكر، ارسلوا العديد من الطلبات الى لجنة كنك-كريين الأمريكية في العام ١٩١٩، عارضين – إن كان ولا بد، انتداباً أمريكياً على العراق لمدة محدودة[٤].

من الحقائق المعروفة أن بريطانية نجحت في تحويل صك

الانتداب الى معاهدة انتدابية، بعد أن أيقنت كره العراقيين لكلمة الانتداب ومفهومه، ولكنها ومن جهة ثانية لم تفلح على الرغم من كل أساليبها في قمع الحركة الوطنية العراقية منذ العام ١٩٢٢ سواء تلك التي تمت بمنع نشاط الأحزاب السياسية أو ابعاد بعض السياسيين الى خارج الوطن، فبمجرد اعلان حكومة جعفر العسكري عن توقيع المعاهدة العراقية البريطانية الثانية بتاريخ ١٨ كانون الأول ١٩٢٧[٥] تحركت اطراف وطنية لترميم مواقعها، فضلاً عن الصحافة الوطنية التي وجهت نقداً لاذعاً لبنود المعاهدة.

ومما له دلالته أنه لم تمض ثلاثة أسابيع على اعلان المعاهدة، إلاّ وقدمت الوزارة العسكرية استقالتها[٦]، وذلك بسبب الانتقادات الكثيرة التي وجهت لها، وعدم قدرتها على مواجهة المجلس النيابي، واستقالة اثنين من ابرز وزرائها (ياسين الهاشمي وزير المالية ورشيد عالي الكيلاني وزير الداخلية)[٧].

حاول السير هنري دوبس Sir H.DOBBS، المندوب السامي البريطاني في العراق معالجة الموقف، لكنه وقع بخطأ جسيم، وعدم تقدير صائب للموقف، عندما اعتقد بأهلية عبد المحسن السعدون، زعيم حزب التقدم[٨]، وقدرته على معالجة الموقف المتردي، فنزل الملك فيصل الأول عند رغبته، حيث كلف السعدون بتشكيل الوزارة في الرابع عشر من كانون الثاني ١٩٢٨[٩].

ومنذ البداية تشعبت هموم الوزارة السعدونية الثالثة وازدادت المصاعب التي واجهتها، فبعد مرور اسبوعين فقط على تشكيلها واجهت العديد من المظاهرات تنم جميعها عن عداء واضح للوجود البريطاني في البلاد، ومعاداة للحركة الصهيونية ووعد بلفور، وتعبر عن الإيمان بوحدة الأمة العربية[١٠].

كانت حدود العراق الجنوبية غير الآمنة، وفشل المفاوضات العراقية السعودية لحسمها ومن ثم تحسين العلاقات مشكلة أخرى ورثتها الوزارة السعدونية[١١]، ويبدو أن جانباً من تلك المشاكل الحدودية كان بدس بريطاني لوضع الجانب العراقي أمام حقيقة أهمية الوجود العسكري البريطاني في العراق[١٢].

وفضلاً عما تقدم ظلت معاهدة العام ١٩٢٧، المسألة الأكثر الحاحاً وأهمية أمام وزارة عبد المحسن السعدون، وهذا ما أكد عليه منهاج الوزارة، فقد طلب رئيس الوزراء من الملك حل المجلس النيابي واجراء انتخابات عامة جديدة مبرراً ذلك بالأمور الخطيرة التي تتعلق بمصالح الشعب الحيوية كمعاهدة ١٩٢٧ والاتفاقيتين الملحقتين بها (المالية والعسكرية) وقضية الدفاع الوطني[١٣].

اختارت الوزارة أضعف بنود المعاهدة، حسب وجهة نظرها، وهما المادتان ١٢ و ١٣[١٤]، وخلال عام كامل، وهو عمر الوزارة، سعت بشكل متواصل لرفض تلك المعاهدة، وأمام اصرار كل طرف على وجهة نظره[١٥]، أكد السعدون مراراً في مكاتباته ولقاءاته مع السير هنري دوبس، خاصة عشية استقالة وزارة السعدون عدم تزحزح حكومته عن موقفها الذي اتخذته منذ البداية رافضاً أية محاولة لعرض المعاهدة على المجلس النيابي قبل موافقة الحكومة البريطانية على مطالب حكومته، وهكذا وصلت المفاوضات الى طريق مسدود بعد اصرار المندوب السامي البريطاني على موقف الحكومة البريطانية كما جاء في رده بتاريخ السادس عشر من كانون الثاني ١٩٢٩ على آراء رئيس الوزراء العراقي[١٦].

وعلى الرغم من المداولات التي استمرت طيلة العام ١٩٢٨، وما بذلته الحكومة العراقية من أجل التوصل الى تفاهم مع الجانب البريطاني «للحصول على تعديلات تلائم تقدم العراق الذي احرزه» كما يقول توفيق السويدي أحد أقطاب النظام الملكي، في مذكراته، إلاّ أن الطرفين اصطدما في كثير من المواضيع، صعب التوفيق بينهما[١٧].

ففي الجانب العسكري برزت نقاط خلاف عدة يتضح من خلالها التعسف البريطاني ومحاولته إبقاء العراق تبعاً للمستعمرين، معتمداً عليهم في أهم جانب من جوانب كيان الدولة المستقلة، فلم توافق الحكومة البريطانية، مثلاً، على تولي الحكومة العراقية مهمة الدفاع عن الأراضي العراقية، مثلما أصرت على جعل قيادة القوات المشتركة بين قائد بريطاني، وعلى الرغم من معارضة الحكومة العراقية لتلك النقاط طالب الجانب البريطاني بتحمل العراقيين جزءاً من نفقات القوات البريطانية الموجودة في العراق رغماً عنه، فضلاً عن تكاليف

سكة الحديد المؤقتة التي أنشأتها القوات البريطانية لأغراضها العسكرية أبان الحرب العالمية الأولى، مثلما أرادوا تحمل الجانب العراقي نصف نفقات دار الاعتماد البريطاني، ولاعتبارات سوقية واضحة، ارادت ابقاء اشرافها المباشر على ميناء البصرة، وهو الميناء العراقي الوحيد، هذا فضلاً عن إدارة الأحكام العرفية وسلطة قائد القوات الجوية البريطانية وعدد الضباط البريطانيين في الجيش العراقي والإعفاء من الرسوم الكمركية، النقاط التي رفضها الجانب العراقي رفضاً قاطعاً[١٨].

وإزاء هذه الحالة، انتابت أوساط الشعب العراقي، وخاصة المثقفين «خيبة أمل» كما أشار الى ذلك المعتمد السامي البريطاني، في تقريره الى حكومته للعام ١٩٢٨، مؤكداً تردي مكانة بلاده بين العراقيين، مضيفاً أن اعتقادهم، بل ايمانهم بأن المعاهدات مع بريطانية تعد حجر عثرة في طريق تحقيق اماني البلاد السياسة، وتطورها الاقتصادي والاجتماعي حتى أنه اطلق على أوضاع العراق في تلك السنة بأنه «وضع شاذ» أو حالة معقدة.

The Preplexing Predi Coment[١٩]

أما المفتش الإداري البريطاني لدى الحكومة العراقية ستيفن همسلي لونكريك S.H.Longrigg فقد وصف أوضاع البلاد بسبب السياسة البريطانية، بأنه «من أسوأ مراحل الوضع الشاذ» مشيراً الى الضغوط التي تعرضت لها وزارة عبدالمحسن السعدون من البريطانيين والحركة الوطنية على حد سواء[٢٠].

الحركة الوطنية ومعاهدة ١٩٢٧

تصدت الصحافة والأحزاب الوطنية العراقية للضغوط البريطانية يومذاك. كان للصحافة في هذا الميدان باع طويل، إذ هاجمت السياسة البريطانية وحملتها المسؤولية الكاملة وراء تعقد المفاوضات ووصولها الى طريق مسدود، وشهرت بنفس الوقت بسياسة التمويه ونقض العهود البريطانية، وكان ذلك كفيلاً باستفزاز الشعب حسب تعبير عبدالرزاق الحسني، والذي أكد مساندة حتي الصحافة العربية لمطالب الشعب العراقي[٢١].

أما الأحزاب الوطنية، فقد سارع عدد من الزعماء الوطنيين بعد الإعلان عن معاهدة ١٩٢٧، وصرخة الصحافة العراقية لإجراء اتصالات ومشاورات تمخضت عن تأليف «الجمعية الوطنية»[٢٢]، التي ركزت أهدافها بوحدة العراق واستقلاله التام، وبناء علاقات خارجية متساوية وبمنافع متبادلة. ومن جهة ثانية وجد قادة الجمعية الوطنية ضرورة توسيع قاعدة النضال الوطني ضد السياسة البريطانية[٢٣]، وهذا ما وضحه محمد مهدي كبه في مذكراته «في صميم الأحداث» عندما حث زملاءه جعفر أبو التمن[٢٤] لاستئناف العمل السياسي سوية في تلك المرحلة[٢٥].

ومنذ استئناف نشاط الحزب الوطني العراقي عمله السياسي يوم التاسع عشر من تموز ١٩٢٨، عارض سياسة حزب التقدم، وأكد حق الشعب العراقي في التمتع بالسيادة على أرضه، فاضحاً زيف وعود الحلفاء وعهودهم المتكررة، ومنوهاً الى مبادئ ولسن الأربعة عشر، ولكن زعيم الحزب تمنى ومن «صميم فؤاده» بناء علاقات مع بريطانية «حليفة العراق» على أساس المنافع المتبادلة، شرط عدم الإخلال بالسيادة[٢٦].

كان لاستئناف نشاط الحزب الوطني العراقي في الميدان السياسي، ولا سيما بعد اندماج الجمعية الوطنية معه وتوحيد صفوفهما، فضلاً عن عناصر وطنية أخرى[٢٧]، وقع مهم في مسيرة الحركة الوطنية، خاصة في الوقت الذي تقلصت فيه المعارضة بعد اشتراك حزب الشعب المعارض في حكومة حزب التقدم[٢٨]، وقد اتضح ذلك بشكل جلي أثناء زيارة الشخصية السياسية الأمريكية المعروفة تشارلس كرين للعراق وهي ما سيركز عليها البحث، إذ نددت الحركة الوطنية، من خلال الصحافة وخطب عدد من السياسيين وقصائد عدد من ابرز شعراء العراق، كما سنرى، بسياسة الانتداب البريطاني، ولكنها وقعت بخطأ كبير، عندما توهمت فمجدت بالسياسة الأمريكية، ولا سيما مبادئ ولسن الأربعة عشر، وطالبت بالمساعدة الأمريكية للتخلص من السيطرة البريطانية وحصول العراق على الاستقلال التام. ويبدو أن تلك النظرة الإيجابية الى الولايات المتحدة الأمريكية لم تأت من فراغ.

موقف العراق من السياسة الأمريكية

انبهر العديد من السياسين والمثقفين العراقيين بمبادئ الرئيس

ولسن الأربعة عشر(٢٩)، وانطلقت على أكثرهم بعباراتها البراقة(٣٠)، على الرغم من أنها لم تتضمن غير عبارة «الاستقلال الذاتي» للشعوب غير التركية، وهو أمر جرى الاتفاق عليه أصلاً مع لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية(٣١).

احترم أولئك الساسة مقررات وتوصيات لجنة كنك - كرين الأمريكية(٣٢)، فعدوها عادلة ومنصفة لحقوق العرب، على الرغم من أن توصياتها لم تنفذ ولم يظهر نص التقرير إلاّ في الثاني من كانون الأول ١٩٢٢(٣٣).

ويبدو أن النخبة العراقية كانت مرتاحة لتوصيات اللجنة عندما اوصت بنظام الانتداب على العراق لمدة محدودة من أجل «رفاه الشعب وانمائه»، بغية ايصاله الى مرحلة الاستقلال، ولكنها شددت على أهمية صيانة وحدة العراق وإقامة نظام حكم ملكي دستوري، واسهبت من جانب آخر في الكشف عن كره العراقيين وسخطهم لبريطانية(٣٤). إلاّ أ هذا لا يعني أبداً أن بعض المثقفين العراقيين لم تكن لهم آراء مغايرة لما تقدم ذكره من مضامين بنود الرئيس ولسن وتقرير لجنة كنك - كرين(٣٥).

ومهما يكن من أمر، فلم يكن أمام العرب، يومئذ، إلاّ التشبث والبحث عن أي قوة قد تساعدهم في التخلص من المستعمرين (البريطانيين والفرنسيين)، ولهذا فلا عجب إذا ما نال كرين كل الاحترام والتقدير أثناء زيارته للمشرق العربي(٣٦).

وفضلاً عن السمعة والدعاية التي حظيت بها مبادئ ولسن الأربعة عشر وتقرير لجنة كنك - كرين، فأن الصحافة العراقية نقلت لقرائها التطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والفنية التي كانت تشهدها الساحة الأمريكية، وكان ذلك عاملاً مضافاً لخلق الرغبة في تنمية العلاقات العراقية - الأمريكية، بل وحتى الاستنجاد بها للتخلص من الانتداب البريطاني، فمثلاً تابعت الصحافة العراقية انتخابات الرئاسة الأمريكية لعام ١٩٢٨، وفوز هربرت هوفر H.Hoover «وهو ابن عائلة بسيطة ومكافحة لكسب قوت يومها(٣٧).

وفي الجانب الاقتصادي نقلت تطور صناعة السيارات والمكائن الأمريكية والمحاولات الأمريكية لايجاد أسواق لها في المشرق العربي، فضلاً عن سعيها لبيع بعض الطائرات الأمريكية الصنع لتلك الدول(٣٨)، ولم تفوت «الاستقلال» خبر زراعة التمور في كاليفورنيا، والتطور الجاري لزيادة انتاجه وتصديره(٣٩)، مثلما نقلت أخبار التطور الهائل الذي حظيت به القوة العسكرية الأمريكية، خاصة في جانبها الفني، فتطرقت الى القوة البحرية وبناء الغواصات العملاقة، فضلاً عن التقدم الذي شهده الطيران الحربي، وإمكانية تموين الطائرات بالوقود وهي محلقة بالجو(٤٠).

ومما له مغزاه أن الصحافة العراقية كشفت للقارئ العراقي صفحة من الصراع الأمريكي - البريطاني حول نفط العراق، خاصة ما تعلق بنقل النفط العراقي الى طرابلس وهو ما ارادته المصالح الأمريكية، مؤيدة بذلك المصالح الفرنسية، والى حيفا وهو ما احتوت عليه المصالح البريطانية(٤١).

لم تتوقف الصحافة العراقية عند هذا الحد، بل كشفت أيضاً عن الوجه الآخر للعملة الأمريكية، إذ رسمت صورة قاتمة وتحذيرية لسياسة واشنطن الاستعمارية، فمثلاً، أنها استهجنت رفع تمثيلها الدبلوماسي في الصين إلى درجة سفارة دون قيام الصين بالمثل، مشيرة الى أن هذا الأمر أثار غضباً على السياسة الأمريكية، فعلقت بأنه «يظهر أنها عازمة على المضي في سياستها رغم كل مظاهر الاحتجاج»، مضيفة أنها «تعمل لصالحها ولصالحها فقط، ولكل دولة بعد ذلك، أن تفعل ما تشاء»(٤٢) وفي تعليقها علي خبر المكاسب المادية التي حصلت عليها الولايات المتحدة الأمريكية من الحرب العالمية الأولى، ورفضها أن تنتدب على أي من البلدان قالت «الاستقلال» معنى ذلك ان كسب المال أفضل من كسب البلاد عند دول هذا الزمان(٤٣).

وفضلاً عما تقدم كانت البعثات الأمريكية دائمة القدوم الى العراق للبحث والتنقيب عن كنوز وتراث العراق القديم، شأنها شأن البعثات الآثارية البريطانية والألمانية، وقد نفذت تلك البعثات الآثارية مخططاً لنهب القطع الآثرية العراقية منذ بداية العشرينات واستمرت في عقد الثلاثينات(٤٤)، الأمر الذي

رصدته الصحافة العراقية، إلاّ أنها دعت العراقيين، مع ذلك، إلى التعامل الطيب مع الأمريكان واكرامهم، جاء ذلك في مقال افتتاحي نشرته «االاستقلال» بعنوان «الأمريكيون يزورون العراق في عهده الجديد»(٤٥).

وفي ضوء هذه الصورة التي حملها العراقيون عن الولايات المتحدة الأمريكية في المجالات المختلفة، وما نقلته الصحافة العراقية في شخصية تشارلس كرين، اصبحت الظروف مهيأة لاستقباله في بغداد بداية العام ١٩٢٩، خاصة وأنها تزامنت مع الأزمة العراقية - البريطانية بصدد معاهدة ١٩٢٧، ومع رفض الحكومة العراقية للاتفاقيتين المالية والعسكرية، الأمر الذي استثمرته الحركة الوطنية العراقية، وحولت تلك الزيارة الى تظاهرة وطنية ضد سياسة الانتداب البريطاني، وموقف المستعمر من رغبات العراقيين وأمانيهم.

زيارة تشارلس كريين الى العراق (كانون الثاني ١٩٢٩)

بادئ ذي بدء لا بد من التركيز أن هذه الشخصية الأمريكية، فضلاً عما تقدم ذكره عنها، لها خبرة واسعة بشؤون الشرقين الأقصى والأوسط، إذ زار الشرق الأوسط عدة مرات فاطلع على قضاياه، وعمل عضواً في مجلس إدارة كلية روبرت في استانبول(٤٦)، الأمور التي مكنته من بناء علاقات واسعة مع عدد من ساسة الدولة العثمانية. وكان حضوره متميزاً في البعثة التي ارسلها الرئيس ولسن الى سورية وفلسطين منتصف العام ١٩١٩ حتى فرض تسمية أخرى لتلك اللجنة فسميت لجنة كنك- كرين، فعرفه مثقفو العرب وساستهم من التقرير الذي رفعه وزميله الى عصبة الأمم والرئيس ولسن، والذي اتسم بالاستقلالية والنزاهة في اعطاء وجهات النظر حول حقيقة ما كان يدور على الساحة العربية ومستقبل الأقطار العربية ولا سيما العراق(٤٧).

رافق كرين في رحلته، التي شملت عدداً من الأقطار العربية، ابنة جون وزميله الكولونيل واتسن فضلاً عن تابعه(٤٨)، فقد تظاهر بأن رحلته علمية بحتة لدراسة شؤون الأقطار العربية والوقوف على أحوالها، ومن ثم عزمه على تأليف كتاب «ضخم» عن نهضة العرب(٤٩)، ومن جهة ثانية صرح لأحد محرري صحيفة «التقدم».

«لقد شغفت بالشرق، وبمدينة الشرق منذ خمسين عاماً، ومن ذلك الحين دأبت على دراسة أحوال الشرق وتتبع نهضاته، وما زيارتي هذه إلاّ بدافع هذا الحب ولدراسة هذه النهضات العتيدة الحاضرة في بلاد الشمس، وليس لي أية غاية أخرى غير ذلك»(٥٠).

أما في فلسطين، التي زارها بعد مصر، وقبل سفره الى العراق، فقد أكد أثناء حديثه مع رئيس المجلس الاسلامي في القدس الحاج أمين الحسيني، خلال حفل الاستقبال الذي أقيم على شرفه بأنه يجعل« المسلمين قريبين» من قلبه دائماً؟!(٥١)، ومما تجدر الإشارة اليه أن كلماته كان لها وقعها المؤثر في نفوس العراقيين بعدما نقلتها الصحافة العراقية.

ان رائحة النفط كانت تفوح من أي تحرك قامت به واشنطن في الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الأولى، ولهذا فقد واجه البريطانيون والفرنسيون أي محاولة امريكية لاختراق مستعمراتهم في المنطقة ولا سيما النفطية منها.

بعد الحرب العالمية الأولى ساندت الإدارة الأمريكية جهود رجال النفط الأمريكان للحصول على منفذ الى حقول النفط العراقية الواقعة تحت الانتداب البريطاني، وبدا هذا الأمر واضحاً بعد العام ١٩٢١، اذ قدمت إدارة الرئيس الأمريكي الجديد وارين هاردنغ W. Harding (1921-1923) ووزير خارجيته تشارلز هيوز دعماً مباشراً للمصالح النفطية الأمريكية، مؤكدين على مبدأ سياسة الباب المفتوح ومبدأ الفرص التجارية المتساوية في دول الانتداب، وهو الأمر الذي عززه اجتماع هربرت هوفر H.Hoover وزير التجارة الأمريكية مع مدراء شركات النفط الأمريكية الكبرى في واشنطن خلال شهر أيار ١٩٢١ لتعزيز امكانيات الدخول الى حقول النفط العراقية الغنية، وهكذا تجاوزت الخارجية على مبدأ عدم التدخل، بعدما تولدت قناعة تامة بضرورة الحصول على مصادر نفطية جديدة(٥٢)

وفي ضوء هذه الحقيقة المهمة يمكن أن نفهم واحداً من أسباب الامتعاض الفرنسي، مثلاً من زيارة تشارلس كرين الى سورية في العام ١٩٢٤، واعتقالها عدداً من الشخصيات السورية، ومنهم الدكتورَ شهبندر ومن ثم نفيه وعدد من

الزعماء السوريين الى جزيرة ارواد، عقب المعركة الدامية التي جرت في دمشق إثر الاحتفال المهيب الذي أقامه الوطنيون السوريون للسيد كريين، إذ عدت السلطات الفرنسية ذلك الاحتفال بمثابة تظاهرة عدائية لها، الأمر الذي اضطر الزائر الأمريكي الى مغادرة دمشق(٥٣)، ولكنه مقابل ذلك أثبت أن لبلاده رصيداً لا بأس به بين الأوساط السياسية السورية، وهذا الأمر نفسه ينطبق على السياسيين الفلسطينيين، عندما أقام المجلس الاسلامي الأعلى في القدس لعام ١٩٢٩، حفلاً على شرفه اشار فيه الحاج أمين الحسيني الى أن «زيارة المستر كراين للبلاد العربية تذكر الأمة بالأماني الجميلة التي كانت تعقدها على مبادئ ولسن وقد كانت هذه الأماني تبدو حقائق لا شبهة فيها، فأصبحت، مع الأسف الشديد، برقاً خلباً ففارقتنا تلك المبادئ ولم تعد...)(٥٤).

وفضلاً عن النفط، كانت مسيرة زيارة كريين للمنطقة العربية وهو «شيخ في العقد السابع من العمر»(٥٥)، لا تخلو من رغبة في توثيق العلاقات - الأمريكية - العربية في مجالاتها المختلفة، ولا سيما الاقتصادية، خاصة وأنه أعلن عن نيته زيارة مصر وفلسطين والعراق ثم اليمن والحجاز ونجد، وتصريحه أكثر من مرة عن اهتمامه بإدخال مستحدثات العصر التي تلك المنطقة، وأمله بإقامة علاقات اقتصادية متينة معها، وما يعزز هذا الرأى، مثلاً، محاولته اخراج اليمن من عزلتها، وبناء علاقات امريكية يمنية طيبة، فبعث الى الإمام يحيى بهدايا نفيسة امريكية الصنع «بغية تشويقه الى استخدام مستحدثات العصر ومخترعاته...»(٥٦).

ليس من قبيل الصدفة أن تمت زيارة هذه الشخصية الأمريكية ذات الخبرة الدبلوماسية والاقتصادية الى العراق عقب عقد اتفاقية الخط الأحمر في ٢١ تموز ١٩٢٨، اضافة الى تدفق النفط العراقي بغزارة من حقول نفط كركوك(٥٧)، والتي كانت لشركات النفط الأمريكية حصة الربع في شركة نفط العراق، وأن عدم تصريحه أثناء زيارته للعراق أو تلميحه لهذا الأمر لا ينفي أبداً هذه الحقيقة، بل أن عدم تصريحه بما يبل الأوام ضد سياسة الانتداب البريطاني وهو المحب «للشرق والشرقيين» قد أكد هذه الحقيقة، إذ حاول ابعاد الأنظار عن هذا المرفق الاقتصادي الحيوي (النفط) فضلاً عن عدم اثارته المشاكل مع بريطانية.

لقد اكتفى كريين بالتصريح الى امكانية تطوير العلاقات الاقتصادية بين العراق والولايات المتحدة الأمريكية عندما يتطور العراق ويرتقي مستواه اقتصادياً، مشيراً فقط الى امكانيات تطور العراق زراعياً، مؤكداً على أن مجموع استهلاك بلاده من التمور العراقية سنوياً بلغت «مليوناً من الريالات»(٥٨).

تزامن وصول كريين الى العراق مع وصول المفاوضات العراقية - البريطانية حول معاهدة ١٩٢٧ الى طريق مسدود، ولهذا فقد جاء وصول «الضيف الأمريكي» في الوقت المناسب، إذ استثمرت الحركة الوطنية العراقية وجوده والاحتفاء به لتركز من خلال هذه والتعنت البريطاني. ومن هنا يمكن فهم الدوافع الحقيقة التي وقفت وراء الاستقبال الرسمي الشعبي الذي حظي به السيد كريين حال وصوله بغداد مساء الثالث من كانون الثاني ١٩٢٩، إذ استقبل حال وصوله «دار السلام» بالهتاف والتصفيق، وتقدم المستقبلين عدد من ابرز الساسة العراقيين أمثال العين ياسين الهاشمي ومزاحم الباجه جي ومحمد جعفر أبو التمن ومولود مخلص وأحمد عزت الأعظمي ومحمود رامز بك والاستاذ الثعالبي وعطا افندي الخطيب وياسين الخضيري وحمدي الباجه جي، وعدد من النواب الآخرين وشخصيات من المثقفين أمثال ساطع الحصري، ولم يتأخر الشاعر العراقي البارز معروف الرصافي عن اخذ مكانه بين المستقبلين(٥٩).

حتى الملك فيصل الأول، ابدي اهتمامه بهذه الزيارة، حين بعث بسيارته الخاصة لنقل ضيف العراق الى مقر اقامته في فندق كارلتون(٦٠)، ليس هذا وحسب بل احتفى الملك بـ «صديق العرب». واجتمع معه، ثم أقام له أكثر من مأدبه، أولاها مأدبة العشاء التي تناقلت الصحافة أخبارها(٦١)، ثم مأدبة أخرى فاخرة حضرها الوزراء وكبار رجال الدولة(٦٢).

ومنذ وصوله بغداد رحبت به صحف العاصمة، دون استثناء، مشيرة الى ما تأمله البلاد من «مساعدته القيمة للنهضة العراقية»، وذهبت «الاستقلال» بعيداً عندما وضعته في صدر

صفحتها الأولى بأسلوب مثالي كونه «ذلك الرجل الذي حفظ للعروبة الرد والاخلاص» وأنه صاحب «معروف جميل» وأن له خدمات عظيمة وفذه «للقضية العربية» ولم تكتف عند هذا الحد، بل وصفته بالمناضل من أجل «الحقوق المهضومة، والعهود المنكوثة، والكرامات التي أضاعتها القوة من دون وجه حق[٦٣]. واعتبرته «العالم العربي» «صديق العرب العظيم» ضيف العراق المحبوب»، وأنه «لا يرد ذكر اسمه في أي بلد عربي كان إلاّ وتنحني الرؤوس اجلالاً وتخفق القلوب حباً له»[٦٤].

وتبارت «الاستقلال» مع زميلاتها، في هذا الميدان، فأفردت للترحاب به صفحة ونصف الصفحة في عددها الصادر بعد يومين من وصله، مرحبة ومهللة بمقدمه. وعرضت من خلال هذه المناسبة للعراقيين جميعاً أوضاع البلاد السياسية بسبب السياسة الاستعمارية البريطانية،و فكتبت مقالاً افتتاحياً بعنوان «نظرة في القضية العراقية بمناسبة قدوم المستر كراين» ناشدت فيه المسؤولين بعرض قضية العراق على مسامعه، لأنه أمريكي ومدحت بلاده، مشيرة الى بنود ولسن الاربعة عشر، مثلما طالبت بوضع آمال وأماني العراقيين بين يديه، ودعت بهذه المناسبة الى الغاء الانتداب على العراق، والغاء المعاهدات العراقية - البريطانية التي غبنت حق العراق[٦٥]. ثم نددت في الجزء الثاني من مقالها الافتتاحي بأساليب الهيمنة البريطانية على سياسة البلاد الخارجية والداخلية، فأصبح العراق متخلفاً عن جيرانه، تركيه وايران، قائلة «العراق في الحقيقة ليس له من السيادة إلاّ اسمها، وليس له من خيرات بلاده.. سوى الوشل»، ثم أكدت على مطلب العراقيين الرئيس «الاستقلال التام» «لكي يرى النعيم في ظل الحرية الظليل»[٦٦].

كان كريين لا يعرف العربية، ولم يكن بمقدور عدد من المترجمين ترجمة ما كتبته الصحافة العراقية من مقالات سياسية، بمناسبة وصوله البلاد، تلك المقالات التي تتعلق بالسياسة البريطانية تجاه العراق، وهذا يعني الصحافة استثمرت هذه المناسبة، لتثير حماسة ابناء البلاد ضد السياسة البريطانية، إذ أن تلك الكتابات كانت بمثابة حملة شعواء ضد الوجود البريطاني.

ولم تتأخر «العراق»، الصحيفة شبه الرسمية المتخصصة بالمواضيع الأدبية والاقتصادية فضلاً عن السياسية، بالترحيب بالسيد كريين، واصفة البلاد في ظل الانتداب البريطاني بأنها ليست أكثر من «اطلال دوائر وخرائب ينعى عليها يوم الوحشة، فتلك آثار وحشية الانسان وطغيان مطامعه...»، وهنا تذكرّ «العراق» ضيف العراق، بأن هذه البلاد كانت «منبت المدنيات الجبارة والحضارات الجسيمة»، ولا فضل للبريطانيين بأي شيء في هذه البلاد وإن شعب العراق مغلوب على أمره، ولهذا استصرخ المقال الضيف الأمريكي بأن الحرية «أضيع شيء في هذه البلاد وليس التقصير منا بل من مقيدينا الذين لا يروننا أهلاً لهذه الحرية» داعية كريين رفع هذه الشكوى الى بلاده[٦٧].

وكان لصحيفة «العراق» قصدها الواضح عندما نشرت موضوعاً عن «المشاريع الامريكية في تركيه» في اليوم التالي لوصول الضيف الأمريكي، مشيرة فيه الى منافسة الشركات الأمريكية للبريطانية، وحصولها على مشاريع مهمة في قطاع النقل والمواصلات والصناعة كمشروع تجميع السيارات وانشاء السكك الحديدية وانشاء جسر حديدي[٦٨].

ومثل سابقاتها، توهمت صحيفة «النهضة العراقية» لسان حال حزب النهضة العراقي بما يمكن أن تقدمه زيارة كريين للعراق، فلم تكن أقل تفاؤلاً من النتائج المتوخاة لزيارة الشخصية الامريكية، وما يمكن أن تقدمه بلاده للقضية العراقية، إذا برزت في مقالها الافتتاحي عن «انتعاش» و «انشراح وطني» و «فرح العراقيين بزيارته، ولكنه في نفس الوقت تساءلت «هل الناس واهمون أم أنهم محقون؟؟؟؟»، وسارت في نهجها الخاطئ عندما وصفته بأنه «عظيم من عظماء الأمم، وحر من أحرار العالم الجديد»، وأنه يحمل رأفة بشرية ونفساً عادلاً واشفاقاً حاراً على القضية العربية الحقة، وقد «هبط اليوم يستطلع أحوال أمة نكبت بالإنتداب» ولم تكتف بهذا بل اعتبرته «العربي قلباً وشرفاً وعاطفة»، وحسب وصفها، ثم عرضت القضية العراقية، شاكية له مساوئ الغرب، ولا سيما بريطانية بقولها «وها نحن أصبحنا كالطيور

في الأقفاص ليس لإرادتنا الوطنية مجال للتنفيذ ولم نلق من هذه الدول إلاّ التهديد والوعيد يرويدون منا ارقاء صاغرين، ونحن نريد منهم حلفاء صادقين»[٦٩].

وتوهمت مرة أخرى، عندما عدت الولايات المتحدة الأمريكية «رسول السلام في العالم، وملاك الحرية، ومنار الاستقلال»، وإن الأمريكان هم «نصراء الضعفاء وأعداء الحروب وخصوم الغزاة الفاتحين»[٧٠].

أما «التقدم»، جريدة الحزب الحاكم، فلم تتأخر في الترحاب بـ«ضيفنا الأمريكي المحترم المستر كراين»[٧١]. مستعرضة في مقال لها خدمات كريين لبلاده وعلاقته بالعرب، ولكنها بالمقابل خصصت مقالها الافتتاحي في نفس العدد والصفحة للعلاقات العراقية – البريطانية، ووصول المفاوضات الى طريق مسدود، طالبت فيه الحكومة البريطانية «النزول الى مطاليب البلاد»، و«التساهل» مع العراق، إذ يبدو أن الحزب الحاكم، وكما هو واضح من المقال، لا زال يأمل تغيراً ملحوظاً في السياسة البريطانية تجاه العراق، لأن ذلك، وحسب رأي «التقدم» «سترصن السياسة البريطانية في بلاد الشمس وتزيد في قوتها ومناعتها.. وإننا نود من صميم الفؤاد أن تصفى مشاكلنا في عهد قريب فيترك السير هنري دوبس أجمل ذكرى في البلاد...»[٧٢].

ومن الضروري أن نشير الى أن العراقيين لم يكتفوا بطرح القضية العراقية بهذه المناسبة، بل عرضت الصحافة الوطنية أمام «المحسن الكريم» و «صديق العرب» قضايا الأمة العربية وتمزقها، وناشدته «الاستقلال»، مثلاً بتقديم خدمة جليلة للأمة العربية، بعد أن عرضت معاناة الوطن العربي من التمزق والتشتت الى دويلات تحت الهيمنة الاستعمارية، وطالبته بضرورة افهام الغرب بغايات العرب ومطالبهم الحقه، ودحضت بنفس الوقت ادعاءات الكذب والافتراء التي يروجها المستعمرون[٧٣].

وبهذه المناسبة أيضاً أدت القصائد الشعرية دوراً مهماً في إثارة حماسة الشعب، وتأجيج احاسيسه ومشاعره، وهكذا كان في مثل هذا الظرف الصعب الذي مرّ به العراق، فقد انبرى عدد من كبار الشعراء العراقيين فنسجوا قصائداً، تعلقت في اذهان المعاصرين وظلوا يرددونها، أوضحت للعراقيين أكثر مما هي للزائر الأمريكي، طبيعة واهداف السيطرة الاستعمارية البريطانية على العراق، مثلما حذرت معظمها عن قرب اندلاع ثورة وطنية تعصف بالإنتداب من جذوره، وأول تلك القصائد[٧٤]. ما نشرته «النهضة العراقية» بعد يومين فقط من وصول «الضيف الأمريكي»، أوضح فيها الشاعر محمود، بعد الترحيب بالضيف الأمريكي، عمق معاناة الشعب العراقي من سياسة الانتداب البريطاني، وهيمنتهم على مقدرات البلاد السياسية والاقتصادية وفضح وسائل الخداع البريطانية التي مارسوها منذ احتلالهم العراق، وطرق النهب والتعسف والظلم والدسائس التي اتبعوها في حكم البلاد، ولهذا فإن الشاعر العراقي حذر وهدد بثورة سيقوم بها شباب البلاد ضد المحتلين إذ يقول في بعض أبياتها:

كراين لا يخدعك للقطر مظهره ... فقد كذبت والله منه المظاهر
يرونك خيرات جساماً وثروة ... وقد جاع فلاح وأفلس تاجر
يرونك دستوراً تضمن رحمة ... وهل ينفع الدستور والشعب نافر؟
وقالوا أقمنا للعراق عمادة ... وأي عماد ذاك والسوس ناخر
لسان نزار خافت في ربوعه ... وأما لسان الأجنبي فظاهر
بلاد غريب الدار فيها منعم ... ولكن على أهل البلاد مقابر
تماثيل من طيف تقام خديعة ... وهن لم يصغ للطين قالوا مكابر
وان حسنت حال يكن فخراً لهم ... وان قبحت كانت عليها الجرائر
سيسود هذا الأفق من فعل «فتية» إذا نشرت يوم الحساب الدفاتر[٧٥].

تجول السيد كريين في عدد من مدن العراق في شماليه ووسطه وجنوبه، وحاول جهده أن لا يترك لزيارته أي طابع سياسي، على الرغم من كثرة الحفلات التي اقيمت له، ليقينه بأن ذلك، لا يخدم أهداف رحلته، والتي بقيت مبهمة حتى وقتنا الحالي.

المؤشر علي جولات «الضيف الأمريكي» في ارجاء العراق ومن خلال متابعة الصحافة العراقية، يوماً بيوم، أنه لم يطلع على آثار العراق، وهو الذي أعلن أنه يريد الكتابة عنها، بل ساد جولته في الموصل، مثلاً الكثير من الغموض[٧٦]، مع يقيننا بأنها لا تبتعد عن الأطماع الأمريكية في نفط العراق، خاصة وأنها جاءت متزامنة مع ذروة الصراع الدولي على نفط العراق[٧٧]، فخلافاً للاحتفالات والاستقبال الذي حظي به في وسط

وجنوبي العراق لم يجرِّ أي احتفاء بالضيف الأمريكي في الموصل، كما أشارت «صدى الجمهور» الموصلية، على مدى أربعة أيام استغرقتها الزيارة، إذ أشارت «ماذا نقول على انفسنا نحن الموصليين الذين لم نقم، ولم نستطع القيام تجاه الضيف بما علينا من حقوق تفرضها الوجائب الوطنية؟؟!»[٧٨].

حال عودته من الموصل، تهيأت اطراف الحركة الوطنية العراقية المشتعلة غيظاً وغضباً ضد السياسة البريطانية لإقامة احتفالات كبرى، مستثمرة هذه الزيارة للتنديد بالمستعمرين والأطراف المتعاونة معهم، ولا سيما عصبة الأمم المتحدة والموالين لها من السياسيين العراقيين، والهبت حماسة الشعب ضد الانتداب، ومن جهة ثانية عبرت عن امتنانها من السياسة الامريكية ولا سيما مبادئ ولسن الأربعة عشر، مثلما ابدت رغبتها في تطوير العلاقات العراقية – الأمريكية.

جرى الاحتفاء بكريين في بغداد عدة مرات، ففضلاً عن حفلة الحزب الوطني العراقي، أقام الشباب العربي حفلة في فندق كارلتون، حيث مقر إقامة الضيف الأمريكي، كما أقام نادي النهضة النسائية حفل استقبال بسيط على الرغم من ضعف نشاطه، واخفق المحامون ومنتدى التهذيب بإقامة الحفلات له[٧٩].

أقام الحزب الوطني العراقي حفلته عصر يوم الجمعة الحادي عشر من كانون الثاني ١٩٢٩ في مقر الحزب بعد أن وزع رقاع الدعوة على أعيان البلاد ووجهائها، وحضر الحفل الى جانب الضيف الأمريكي ومرافقوه، قنصل الولايات المتحدة الأمريكية في بغداد ومدير المدرسة الأمريكية[٨٠].

استهل جعفر أبو التمن، زعيم الحزب الوطني العراقي، الحفل بكلمة أثنى فيها على «صديق العرب الكبير ونصيرهم الجليل» لعطفه على قضايا العرب وزياراته للمنطقة العربية وخاصة سورية وفلسطين. ثم انتقل الى القضايا المهمة التي تشغل بال حزبه، فطالب باستقلال العراق الكامل، رافضاً جميع المعاهدات والاتفاقيات التي تتناقض مع مبدأ «الاستقلال التام وغير المنقوص» معتبراً كل ما عداها «ليست سوى سلاسل وأغلال يتقيد بها العراق المغلوب على أمره»، ومقابل ذلك آمن بأن «تبقى مصالح انكلتره التي لا تتناقض مع الاستقلال المنشود مكفولة لها ومضمومة».

وفي نفس المحور السياسي عدَّ أبو التمن الحالة السياسية التي كان العراق يمر بها وليدة الانحطاط والتأخر الذي تشهده البلاد في الميادين الزراعية والصناعية وسائر المرافق الأخرى.

وفي مغازلة واضحة لضيفه الأمريكي وبلاده، أفصح زعيم الحزب عن تمنياته بأن «يكون في طاقة أبناء هذه البلاد أن يتخذوا من نضال الأمريكيين في سبيل الاستقلال وسعيهم وراء تعميم المدنية والثقافة أحسن قدوة لهم يحبذونها... وينسجون على منوالها في تكوين المملكة العراقية الجديدة». ثم حيا «المتحدة الأمريكية نصيرة السلام وصديقة الانسانية» والسيد كريين «نصير العرب الجليل وصديقهم الحميم» و «العراق مستقلاً» و «ليحيى جلالة الملك» بعده أوضح أحد أعضاء الحزب، المحامي على افندي محمود، وضع العراق واحواله السياسية في ظل الانتداب، الذي لا يقل – حسب رأيه – وطأة عن الحماية والاستعمار وحتى الضم، فهاجم سياسة الانتداب، الذي وضعت بريطانيه بموجبه «في رقابنا طوق الانتداب العتيد جراء مناصرتنا لهم أيام كربهم وبريطانية نفضت يدها من تلكم العهود والمواثيق فغلت أيدينا بمعاهدات وارهقت حرياتنا باتفاقات وجرحت عزتنا القومية..»

وفي الوقت الذي طالب بالاستقلال كحق طبيعي، أكد على عدم معاداة بريطانية أو الابتعاد عنها، بل يريد حزبه أن يجعل «أساس التحالف بيننا وبينها وطيداً ولتستطع بفضله أن نبادلها كؤوس المودة الدائمة».

ثم تطرق الى معاناة العراقيين الاقتصادية بسبب سياسة الانتداب «الحديدية» فيقول: « ان العراق الكثير البركات...لا يهنأ يوماً بعيش ولا يشعر لحظة بنعيم وأن ابناؤه بؤساء معدمون برغم خصوبة تربتهم وسخاء رافديهم...»

واختتم حديثه مرة أخرى بمغازلة الولايات المتحدة الأمريكية، مثل زعيم حزبه، «لتحيا امريكا نصيرة الضعفاء»؟!

ارتقى معروف الرصافي، شاعر العراق، منصة الاحتفال وألقى قصيدة[٨١] رائعة هزت كيان ووجدان الحاضرين، بل والعراقيين عموماً بعد نشرها، قوبلت بالتصفيق والطلب بإعادتها عدة مرات، تلك القصيدة التي حفظ الطلبة والمثقفون

ابياتها، إذ دغدغت عواطف العراقيين وايمانهم العميق بالإستقلال، والأكثر من ذلك عبرت القصيدة عن سخط وثورة واستنكار للوضع في العراق، ففيها شكوى من فساد الحكم، وصرخة بوجه الغرب جراء الغبن والحيف الذي لحق بأهل الشرق، وفضح لأساليب سرقته ثروات العراق ونهب كنوزه وآثاره، وكشف حقيقة الاسلوب البريطاني في بذر الضغائن بين أبناء البلاد، فاضحاً أساليب الخداع والغش البريطاني فيقول:

ثم يهدد الرصافي بالثورة ويحذر من عواقبها الوخيمة عندما يقول:

أيها المستر كراين ... انظر الشرق وعاين
فهو للغرب أسير ... أسر مديون لدائن
إن هذا الشرق والغر ... ب لمغبون وغابن
فترى الشرق تجاه الغر ... ب يسعى سعي ماهن
وترى الغرب عليه ... واقفاً موقف خائن
منكراً منه المزايا ... موجداً فيه المطاعن
غاصباً منه المواني ... شاحناً فيه السفائن
حافراً فيه المعادن ... نابشاً فيه الدفائن
فهو يمتص دماء الشرق ... من كل الأماكن
باذراً من كيده في ... أهله بذر الضغائن
جاعلاً في رجله قيد ... الوني والقيد شائن
فعلام الغرب لا ينفك ... للشرق مضاغن
يظهرون النصح في ... القول لنا والغش باطن

ثم يهدد الرصافي بالثورة ويحذر من عواقبها الوخيمة عندما يقول:

ان في الشرق تجاه ... الغرب نيراناً كوامن
سوف ينشق حجاب ... الدهر عنا بالدواخن
وإذا قامت حروب ... من بني الشرق طواحن

فمن المسؤول عن ذلك يا مستر كراين

ويستهزأ بطبيعة وتركيبة نظام الحكم في العراق وسيطرة المستمر البريطاني علي مقدرات البلاد فيقول:

وإذا تسأل عما ... هو في بغداد كائن
فهو حكم مشرقي ... الفرع غربي الملاين
وطني الاسم لكن ... انكليزي الشناشن
عربي اعجمي ... معرب اللهجة راطن
فيه للإيعاز من لند ... ن بالأمر كامن
هو ذو وجهين وجه ... ظاهر يتبع باطن
قد ملكنا كل شيء ... نحن في الظاهر لكن
نحن في الباطن لا ... نملك تحريكاً وساكن

أفهذا جائز في الغرب يا مستر كراين؟

ومثل سابقيه وقع الرصافي في فخ المديح والإشادة بمبادئ ولسن الأربعة عشر التي لا تخدم في جوهرها سوى المصالح الأمريكية، فيقول

اين ما قد قاله (ولسن) يا مستر كراين

لم يكن ولسن فرداً إن في الغرب ولاسن[٨٢]

وعلى الرغم من كل تلك الصرخات من جهة، والمديح الذي كيل للسيد كريين وبلاده في تلك الحفلة من جهة ثانية، إلاّ أن كلمات «الضيف الأمريكي» العزيز كانت مخيبة للآمال، وجاءت باتجاه مغاير لما يريده المحتفون به، سواء من الحضور أو الصحافة، ولم يشف حديثه قلوب قوب هتفوا له كثيراً، وتأملوا من بلاده العون في حصول العراق على الاستقلال والتخلص من ربقة الاستعمار البريطاني. فلم يتضمن حديثه أكثر من التوصية بالاهتمام بالجانب الاقتصادي والصحي قبل التعليمي والسياسي.»

ليس غريباً اعترافه بأن معلوماته قليلة عن العراق، ولكن الأغرب أنه يعرف جيداً أن العراق بلد «غني للغاية»؟! وبما أن شعب العراق، كما يعتقد «مجيد وعاقل» فإن «أمام هذا الشعب اشغال خطيرة وصعبة، مؤكداً «أن السياسة وحدها لا تفيد» مشيراً الى ضرورة الاهتمام والتركيز على الزراعة، ومضاعفة الانتاج منها، قبل الاهتمام بالتعليم[٨٣]، المنطق الذي لم يقبله العراقيون كما سنرى.

وفي دار السيدة حسيبة خانم أقام نادي النهضة النسائية[٨٤] في الثاني عشر من كانون الثاني ١٩٢٩، حفلة استقبال للسيد كريين، دار الحديث فيه عن أحوال المرأة العراقية ونهضتها، وفضلاً عن دورها في الترجمة بين الضيف الأمريكي والحاضرات تكلمت السيدة ماري وزير سكرتيرة النادي عن دور النادي والصعوبات التي يواجهها، واحجام الأهالي عن

معاضدته ومساعدته، فحث الضيف الأمريكي الحاضرات على المضي في سبيل النهوض والتجدد(٨٥).

لم تقتصر هموم العراقيين على الانتداب البريطاني، وكيفية التخلص منه، بل كانت قضية فلسطين الأمل باستقلال العرب ووحدتهم، وفضح الأساليب الاستعمارية في نهب الثروة الاقتصادية في العراق، ولا سيما النفط، هي الأخرى قد شغلت بالهم، وبدا ذلك واضحاً من خلال الحفل الذي أقامه الشباب العربي في الفندق الذي ينزل فيه الضيف الأمريكي صباح الثالث عشر من كانون الثاني.

فبعد أن رحب يوسف زينل، في خطابه (بالانكليزية)، بالزائر الأمريكي باسم الشبيبة العربية الممتنة من أعماله الجليلة في سبيل القضية العربية، تحدث عن دور العرب الحضاري عبر التاريخ وما آلت اليه أمورهم، معلناً عدم اعتراف الشبيبة العربية بنظام الانتداب ومقاومتهم لأي محاولة للتدخل في الشوؤن الداخلية، وايمان الشباب العربي المطلق بأن الوحل الوحيد لتطمين الرغائب القومية هو استقلال البلاد العربية تحت راية واحدة، وطلب من كريين حمل تلك الرغائب الى العالم المتمدن، وخصوصاً «أبناء أميركا الأحرار»(٨٦).

ولم يقتصر بشير أفندي جبر، أحد الشباب السوريين في كلمته على المحور السياسي بل تناول المحور الاقتصادي أيضاً. ففي الجانب السياسي أوضح معاناة العرب قائلاً:

«ففي فلسطين وطن يؤثث لغير أهلها وفي سورية دويلات تهبط عاتق الشعب السوري، وفي العراق شعب يتململ من الوضع الراهن ويسعى بكل ما فيه الروح والجسد في التملص منه الى وضع يتناسب وكرامته وحقه في الحياة، فأين هذا مما وعد به العرب الذين اهرقوا دماءهم في سبيل مثلهم الأعلى وما مثلهم إلاّ الاستقلال المطلق واتحاد وثيق العرى(٨٧).

كما فضح الهيمنة البريطانية على مقدرات البلاد الاقتصادية أيضاً قائلاً: «فإذا نظرت الى هذا البلد الطيب نرَ أن الثروة كامنة فيه ولكن من يستغلها؟ البترول تتفجر ينابيعه في انحائه فإلى من يا ترى تصير هذه الثروة؟ هذه أمور لا تخفى على الباحث المنقب. نعم من يقدر على انتزاعها من يد القوي الذي يملي ارادته بقوته وجبروته؟» ولم يهمل موضوع الحواجز الكمركية الذي تحول دون تقدم العرب اقتصادياً، والتي فرضها المستعمرون.

في هذه المرة غيّر كريين من لهجته مركزاً في رده على المحتفين به على دور بلاده، الولايات المتحدة الأمريكية، العالمي فنبه الأذهان الى المساعي التي تبذلها لمساعدة العالم قائلاً:

«ان العالم كبير وليس القوة ولا لشخص أهمية تذكر غير أني أشعر باستطاعتي أن ارفع من ثقل الانسانية ولو قليلاً» وأكد كريين بأن «هذه نظرية كل أمريكي اليوم وهو برفع العبء الثقيل عن عاتق البشرية وهذه الحركة المقصود منها خلاص الانسانية ليست منحصرة في الأعمال السياسية بل هي من نصيب الأعمال الأخرى».

وطالب الحاضرين بـ «أن يزيحوا عن عاتق شعبكم الكريم الأعباء التي ينوء تحتها فيكون عملكم بدء إنشاء دولة قوية دائمة...»(٨٨).

أما الشاعر الكبير محمد باقر الشبيبي(٨٩)، فقد دوى صوته بقصيدة ظل صداها واضحاً، مثل قصيدة الرصافي، بين أوساط المثقفين فضلاً عن الطلبة، فترة غير قصيرة من الزمن فبعد الترحيب بالضيف الأمريكي اشار الى أن مصيبة العراق كتلك التي عانى منها الشعب الأمريكي.

«ضيف من القوم الذين أصابهم … هذا المصاب فجاهدوا واستشهدوا»

وشكى من القيود التي يرزح بها العراق على الرغم من تحرر الكثير من بلدان العالم.

كل البلاد من القيود (تحررت) … إلاّ (العراق) الحر فهو مقيد

واحسرتاه على العراق يسوده … «عهد» بموجبه يذل السيد

ثم هاجم عصبة الأمم التي عهدت بأمور البلاد لمستعبد لا يهمه سوى النهب

ياعصبة الاممم التي قد أوكلت … أمر العراق الذي لا يستعبد

ما كان عهدك وهو عهد جائر … إلاّ لمنفعة الذين تعهدوا

وهاجم السياسة البريطانية التي تلوح باستخدام القوة ضد العراقيين،، وهنا يتساءل مثله مثل الرصافي، عن مصير بنود ولسن.

يا ضيف اين غدت مبادئ ويلسن … قل لي وأين مضى الرئيس المرشدا

جحدوا مبادئه التي قد آمنت كل الشعوب بصدقها فليجحدوا

أشار الشبيبي أن العراق لا يشبه الهند، المستعمرة البريطانية، فتاريخ العراق مشرف مضيء، ولهذا فإنه هدد بأن أوضاع البلاد ما هي إلاّ تهيء وتحشد ضد الوجود البريطاني

ظنوا العراق الهند أو هو مثله كذبت ظنونهم وخاب المقصد
أما العراق فإن في تاريخه شرفاً يضيء كما يضيء الفرقد
ليس السكوت من الخضوع وانما هذا السكوت «تجمع» وتحشد

وهاجم المستشارين البريطانيين المتحكمين بشؤون البلاد، وأن الوزراء ليسوا أكثر من أدوات بأيدي البريطانيين، ولكن الشبيبي على الرغم من كل ذلك العنفوان لا يمانع بالتحالف المتوازن والمتساوي بين الحكومتين العراقية والبريطانية إلاّ أنه يشك بتحقيق ذلك.

قالوا استقلت في البلاد حكومة فضحكت إذ قالوا ولم يتأكدوا
أحكومة والاستشارة ربها؟ وحكومة فيها المشاور يعبد؟
المستشار هو الذي شرب الطلى فعلام يا هذا الوزير تعربد؟؟؟
قالوا التحالف قل ت مرحى، انه حق إذا صدق الحليف - مؤيد
فالحلف بين حكومة وحكومة معناه كل منهما هو سيد
أعلى أساس الرق يعقد حلفنا وعلى أساس الانتداب يشيد؟
هذه يدي للمنقذين أمدها إن كان تنفع منقذاً هذي اليد[٩٠]

وتكلم الشاعر على الندى الخطيب «على المكشوف»[٩١]، هاجم السياسة البريطانية في العراق، وأنها المسؤولة عن «الوضع الشاذ» الذي وصلت اليه البلاد، مثلما هاجم الحكومة والمتواطئين مع البريطانيين، وبعد أن كشف عن الأساليب البريطانية في قمع الحريات العامة، فاق سابقيه، الرصافي والشبيبي، عندما أيقن بقيام الثورة ضد المحتلين والسلطة على حد سواء، وكان صادقاً في إيمانه بقدرات الشعب فيقول

ماذا أقول وقلبي مفعم المـا حقاً عييت ولم استوعب الكلما
بينا نرى دولة افرادها عرب إذا بها دولة تستأمر العجما
ومدع «بشذوذ الوضع» قلت له ان الشذوذ لمن أعمالكم نجما
ضاقت فجوات العيش في وطن اضحت على غيرنا خيراته عمما
والقابضون زمام الأمر أشغلهم عنا المطامع حتى جاوزوا النهما
ما قام معترض منا على هنه إلاّ وكان ومن «السكسون» متهما
بين السكوت وبين النطق مرحلة ان يومها حان تغرى الهام واللمما
اذن سيصبح سفل الأرض عاليها ويصبح الربع بالأهوال محتدما
إذن ستصبح وسط الحي «مقصلة» فيعلم الخائنين الحق والذمما
إذن سيعلم من خارت عزائمهم بأن للشعب حولاً يصدع العلما
إذن سيرفع هذا الشعب هامته اذن سيصبح هذا الشعب محترما
ارى بوادر ذاك اليوم بارقة يعوزها بطل يستنهض الهمما
انـي ارى الهدم لا الترميم ينفعنا فهيؤا المعول الجبار والقدما
ان لم تكن اذن في الحري مصغية الى الفريض فللتاريخ ما نظما[٩٢]

وهي تنقل وقائع حفل الشباب العربي، كتبت «النهضة العراقية» عموداً في صفحتها الأولى جاء فيه «ما نراه ونسمعه وما نكتبه ونذيعه إنما هو شعور منبعث عن قلوب سئمت مطل السياسة كما تقززت من تعجاتها الملتوية ومواثيقها التي لم يتحقق من بحرها قطرة واحدة تبل الأوام»[٩٣].

لم تكتف بغداد بالتعبير عن مطلبها بالاستقلال التام بهذه المناسبة من خلال نشاطات الحزب الوطني العراقي والشباب العربي والمحامين ونادي النهضة النسائية وكتابات الصحف، بل امتد الأمر الى طلبة المدارس، فقد تقدمت الهيئة التدريسية للمدرسة الحسينية الأهلية عدد من طلبتها يوم الرابع عشر من كانون الثاني لتكريم الزائر الأمريكي في مقر إقامته بأهدائه كأس فضي رسمت على سطحه بالمينا خارطة الولايات المتحدة الأمريكية والوطن العربي، كتبت فوق الأولى«لتحيى أميركا نصيرة الحرية»[٩٤].

انتقدت الصحافة العراقية آراء كريين لحل القضية العراقية، وهاجمت صحيفتا «التقدم» و «العراق» مقترحاته، واهملت عدة صحف في العاصمة نشر نشاطاته التاليه. ففي مقالها الافتتاحي عدت «التقدم» كلمته «هادئة وديعة» وأن حزب التقدم «يخالفها مبدئياً» معتبزة حثه الشعب العراقي على التمسك بالشؤون الاقتصادية دون المسائل السياسية إنما يعبر عن «شعور أميركي تدور الدنيا في بلاده على الدولار لا على قرن الثور» وبهذا فإن «التقدم» لا «تشاطره رأيه»، وعدت التمتع بالحرية والاستقلال هو الأساس، وعند ذلك فقط يمكن أن «تجعل خيرات البلاد وبركاتها مقصورة على بنيها دون غيرهم...» وأكدت أن نصيحة كريين سوف لن تجد لها «من أثر وهو عدول العراق عن أساليبه السياسية في نيل حقوقه

المغصوبة..»[٩٥].

وأبدت صحيفة «العراق» في افتتاحيتها ما جاءت به «التقدم» وهاجمت كلمة كرين التي تزامنت مع ذروة الكفاح الوطني ضد الانتداب، مشيرة الى أنه «لم تقع له نصائح المحسن الكبير ابن بلاد الحرية موقعاً حسناً من نفوس سامعيه وانكشفت له خواطر المجاهدين السياسيين في هذا البلد.. وطبيعي أننا لا نلوم المستر كراين على عدم مقابلته لنا بخطب نارية تحاكي ما قابلناه به فقد يكون له من موقعه الخاص ما يحول دون ذلك، ولكننا لم نستحسن منه خطبه في مثل هذه الساعة والبلاد تجيش بالشكوى من الانتداب وثقل وطأته».

وفجأة تحول الضيف الامريكي «العربي قلباً وعاطفة»، والنعوت الكثيرة التي استقبل بها الى «الأمريكي الوادع»، فعبرت صحيفة «العراق» عن خيبة أملها من خطبه، وخشيت أنه سيهاجم العراقيين عند مغادرته البلاد، مثلما فعل الرئيس الأمريكي روزفلت[٩٦] بعد زيارته لمصر التي رحب به أهلها، إلاّ أنه «حمل عليهم حملة نكراء»، واتهمهم «بأنهم لا يصلحون للاستقلال التام، ودعاهم لتهذيب انفسهم وترقية عقولهم» وصارحت الصحيفة الضيف الأمريكي بأن نظرته بتقديم الجهاد الاقتصادي على الجهاد السياسي بأنها «نظرية خاطئة لا تنطبق على واقع الحال[٩٧]... ان الحقيقة التي لا جدال فيها أن الحرية هي الدواء الوحيد للشعوب المستعبدة...» مشيرة أيضاً الى سيطرة البريطانيين على الحياة الاقتصادية في البلاد، سواء كانت التجارة أو منابع الثروة المعدنية والتي «لا يرضى أن يستخدمنا فيها عمالاً نشتغل باليد»، هذا فضلاً عن سيطرته على الزراعة والأمور المالية، مضيفة «وعلة العلل في قضية بلادنا هي أن زمام الحكم الحقيقي بيد الأجنبي فنحن مسيرون غير مخيرين..» وحتى الحكومة الوطنية يقبض عليه، رجال يتعمد الاجنبي في اختيارهم فهم يخضعون للوضع الشاذ فهل مصير هذه الحالة إلاّ الموت المحتوم[٩٨].

سفر كريين الى جنوب البلاد

امام تلك الحالة، وهذه الصورة، غادر كريين العاصمة وسافر الى جنوبي العراق، قاصداً في البداية الحلة وكربلاء والنجف، إلاّ أنه لم يمكث فيها، وظل اعتقاد شباب كربلاء فإن الضيف الأمريكي سيقدم شيئاً ما لقضية بلادهم، لهذا فإنه عندما تجاوز مدينة كربلاء، تابعه وفد من شبابها الى مدينة النجف لدعوته وتكريمه في مدينتهم[٩٩].

ويبدو أن تدهور الأوضاع السياسية في العراق خلال تلك الأيام تحديداً، دفع كريين الى التهرب من حضور احتفال اعدته الشبيبة النجفية لتكريمه وكذلك «لاظهار الاستياء العام من الوضع الشاذ»، لذلك فإنه عندما وصل مدينة النجف ظهر يوم السادس عشر من كانون الثاني برفقة المستشرق الامريكي الدكتور جون فانيس، رئيس البعثة التبشيرية الامريكية في البصرة، والذي عاش فيها أكثر من ستة وأربعين عاماً[١٠٠]، حصر حديثه مع بعض الشباب الذين التقاهم في دار نقيب الاشراف عن شؤون البلاد العلمية والاقتصادية ونهضة الشرق، وحث الحضور على الوفاق، وابدى تفاؤله. بنيل أماني العرب القومية، ثم واصل رحلته الى جنوبي العراق[١٠١].

ليس غريباً أن يلقى كريين كل ذلك الترحاب الواسع في البصرة، إذ يعود الفضل كل الفضل الى نشاط البعثة التبشيرية الامريكية، التي عملت على ابراز دور الولايات المتحدة الأمريكية من خلال اهتمامها بالجانبين التعليمي والصحي منذ نزولها في جنوبي العراق ولا سيما البصرة خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر[١٠٢]، فقد كان لتلك البعثة مدارس عديدة للبنين والبنات في البصرة القرنة والزبير وأبو الخصيب والعمارة والناصرية[١٠٣]، مثلما كان هناك طبيب وطبيبة لعلاج مرضى المدينة[١٠٤].

نزل كريين ضيفاً على الشركة الامريكية هلس اخوان، التي لها أعمالها التجارية في ميناء البصرة منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ليسافر بعد يومين فقط الى الهند، وفي رحلته تلك سيزور بعض موانئ الخليج العربي، كما أوضحت ذلك جريدة «الأوقات العراقية» الصادرة في البصرة[١٠٥].

أقام شباب البصرة، ووفد من مدينة الناصرية حفلة القيت فيها الخطب، ركزت على استقلال العراق ونهضته الاقتصادية، فضلاً عن اعجابهم بالولايات المتحدة الأمريكية عبروا خلالها أيضاً عن رغبتهم في تعزيز العلاقات العراقية

الامريكية بشكل يفوق العلاقات مع بريطانية، وفي نفس الوقت عرضوا شكواهم من نقض بريطانية «لوعودها ومراوغاتها الثعلبية»، ومثلما ما جرى في بغداد، القيت في حضرته القصائد المعبرة منها قصيدتي محمد محمود ومكي السيد جاسم، كما خاطبه أحد الحضور قائلاً:

«نحن معاشر العرب من المحبين لك ولامتك ولقدم صداقتنا المعززة رغم أنوف من يحاول انفصامها...» وطالبوه بنقل معاناة العراقيين» ولا سيما طلبهم الحرية لبلادهم الى الشعب الأمريكي، واعتبروا ذلك أكبر خدمة سيقدمها كريين لقضية بلادهم[١٠٦]. ومثلما فعل طلبة بغداد، الذين وجدوا في النخلة رمزاً عراقياً متميزاً وأصيلاً، قدم شباب البصرة تمثالاً فضياً لنخلة منقوشة بالمينا كهدية جميلة الى الضيف الأمريكي[١٠٧].

وحدث ما لم يكن بالحسبان إذ تعرض موكب كريين لهجوم مسلح وهو في طريقه الى الكويت، ذهب ضحيته الدكتور هنري بلكريت، أحد أعضاء البعثة التبشيرية الأمريكية العاملة في البصرة.

فمن المعروف أن المناطق الحدودية العراقية النجدية شهدت نزاعات عشائريه، ولا سيما بين النجديين والشمريين، خصوصاً منذ العام ١٩٢١، ولم تفلح العديد من المؤتمرات بين البلدين ١٩٢٢ - ١٩٢٨ في انهاء تلك المشاكل[١٠٨].

ومما تجدر الإشارة اليه أيضاً أن البريطانيين استخدموا الهجمات التي تعرضت لها الحدود العراقية الجنوبية ورقة ضغط على الحكومة العراقية أثناء المشاورات العراقية البريطانية في لندن لعقد معاهدة ١٩٢٧[١٠٩].

وظل عدم الاستقرار السمة الميزة لحدود البلدين، ففي بداية العام ١٩٢٩ مثلاً، وجراء تنقل العشائر الوهابية داخل الحدود العراقية، ارسلت الحكومة العراقية عدداً من الجنود الى الصحراء للقيام بمهمة الدورية على الحدود، وبعمق مائة ميل عن مدينة كربلاء[١١٠].

ان ما سبق يسمح لنا أن نقول أن البريطانيين ربما كان لهم ضلع فيما حدث لموكب كريين وهو في طريقه الى الكويت، فقد خشي البريطانيون من جولة كريين في مناطق نفوذهم في الخليج العربي، ومما له دلالته أن صحيفة «الاستقلال»، حملت البريطانيين المسؤولية الكاملة لما جرى لموكب الضيف الأمريكي، وطالبتهم بالقبض على الجناة ومحاسبتهم[١١١]. ووصفت صحيفة أخرى ذلك العمل بأنه «بربري»[١١٢].

والشيء الذي له دلالته في تلك الحادثة، مثلما في زيارة كريين، هي المكانة التي حظي بها الأمريكان من خلال بعثاتهم التبشيرية العاملة في العراق، فقد شيّع جنازة القتيل الأمريكي أهالي البصرة، ولا سيما اعيانها ووجهائها الى مقبرة الانكليز في ماركيل بالبصرة في موكب ضم (١٢٢) سيارة، وقدمت الصحافة البصرية التعازي الى عقيلة القتيل وانجاله، وإلى رئيس البعثة التبشيرية «الاستاذ جون افندي وانيس»، [١١٣]، مثلما اقام شباب البصرة حفلاً تأبينياً في رويال سينما في العشاء يوم الخامس والعشرين من كانون الثاني أظهروا فيه، كما عبرت صحيفة «الاخاء» البصرية، «النخوة» و «الشعور الوطني الحقيقي»[١١٤]. من جهتها اولت الحكومة العراقية موضوع مقتل المبشر الأمريكي اهتماماً خاصاً، وتابعته لفترة ثم اسدل الستار عليه[١١٥].

الخاتمة

وهكذا غادر الزائر الأمريكي العراق في السادس والعشرين من كانون الثاني على ظهر الباخرة البريد البطئ «ياربينا» قاصداً مسقط ثم الهند(١١٦)، بعد أن ساهمت زيارته في تلك المرحلة وبدون تخطيط مسبق، في اعطاء المظلة الكافية للحركة الوطنية العراقية لاستثمار الزيارة بإقامة الحفلات والتجمعات لالهاب حماسة العراقيين ضد سياسة الانتداب البريطاني.

ومما يؤكد الحقيقة السابقة، مثلاً أن الصحافة العراقية اهتمت بتغطية زيارة كريين الى «دار السلام»، واعطتها حجماً واسعاً من صفحاتها، أكثر بكثير من اهتمامها بزيارة ملك العراق فيصل الأول الى مدينتي النجف والبصرة التي جرت قبل عدة أيام فقط من قدوم الزائر الأمريكي الى البلاد.

ومن اللافت للنظر أن الأصوات التي تعالت أثناء زيارة كريين لم تقتصر على «القضية العراقية» بل امتدت الى استقلال العرب ووحدتهم اضافة الى طلب المساعدة الأمريكية من أجل أن ينعم أبناء البلاد بثروتهم النفطية.

ولا بد من الإشارة أيضاً أن تلك الزيارة تزامنت مع تبادل وجهات النظر لعقد معاهدة عراقية بريطانية – امريكية، أسست بداية جديدة لعلاقات عراقية – امريكية، والتي تم التوقيع عليها بعد عام واحد فقط من تلك الزيارة[١١٧].

يبدو من خلال البحث أنه على الرغم من الانطباع الطيب الذي حمله العراقيون بسذاجة أحياناً، عن السياسة الامريكية، ورغبتهم في الحصول على مساعدة امريكية إلاّ أن الإدارة الأمريكية لم تكن راغبة في زج نفسها كمنافس للبريطانيين في العراق ما دامت المصالح الامريكية في البلاد مضمومة، ولا سيما أنها كانت مقتصرة على الجانبين الاقتصادي والثقافي (حصة الربع في نفط العراق)[١١٨].

كما أن وصية كرين الى العراقيين بالاهتمام بالجانب الاقتصادي ثم التعليمي، لم تأت من فراغ، فعقب تلك الزيارة بثلاث سنين قدمت بعثة تربوية (بول مونرو) في شباط ١٩٣٢[١١٩]، ثم وصل العراق عدد من المستشارين والخبراء الامريكان في ميادين متعددة، فمثلاً، وصل البلاد استاذ الكيمياء في الجامعة الأمريكية في بيروت البروفسور الامريكي كلوس Cluas، في الثالث والعشرين من تموز ١٩٣٢ لوضع برامج المدارس المهنية في العراق، خاصة فيما يتعلق بطرق تدريس الزراعة[١٢٠].

وأخيراً لا بد من القول أن الحركة الوطنية العراقية نجحت في استثمار تلك الزيارة للتشهير بسياسة الانتداب البريطاني، وأوصلت صوتها الى الشعب العراقي والى البريطانيين أنفسهم، إذ تم عقد معاهدة ١٩٣٠[١٢١]، فعلى الرغم من عيوب تلك المعاهدة وتناقضاتها إلاّ أنها ادت الى اعتراف بريطانية باستقلال العراق التام ودخوله عصبة الامم في العام ١٩٣٢.

الهوامش

تفضل مشكوراً استاذي الجليل الدكتور كمال مظهر أحمد بقراءة البحث.

١- من مواليد ١٨٥٨، عمل بين (١٩١٢ – ١٩١٤) مديراً لشركة صناعية متخصصة بانتاج الآلات والاجهزة، ثم انتقل الى العمل الدبلوماسي لصلته الشخصية بالرئيس الأمريكي ودرو ولسن، فعينه ضمن اللجنة الدبلوماسية التي اوفدها الى روسيا العام ١٩١٧. ثم الى الشرق الأوسط العام ١٩١٩ (لجنة كنك – كرين)، بعدها عمل وزيراً مفوضاً لبلاده في الصين (١٩٢٠ – ١٩٢١) وبالإضافة الى ما تقدم له اهتماماته العلمية، إذ قدم منحاً سخية لمعهد أبحاث أمريكي، توفي في العام ١٩٣٨، عن عمر جاوز الثمانين عاماً. انظر:

أحمد عطية الله، القاموس السياسي الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٩٦٨، ص١٩٧٤.

٢- العراق، (جريدة)، سياسية أدبية اقتصادية، بغداد، ١٤ كانون الثاني ١٩٢٩.

٣- البرت م. منتشاشفيلي، العراق في سنوات الانتداب البريطاني، ترجمة الدكتور هاشم صالح التكريتي، بغداد، ١٩٧٨، ص٢٨٢.

٤- لمزيد من التفاصيل انظر:

جورج انطونيوس، يقظة العرب، تاريخ حركة العرب القومية، ترجمة الدكتور ناصر الدين الاسد، والدكتور احسان عباس، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٦٦، ص٦١٩.

٥- عبد الرزاق الحسني، العراق في ظل المعاهدات، الطبعة الثانية، صيدا، ١٩٥٨، ص١٥٧.

٦- قدمت وزارة جعفر العسكري استقالتها في الثامن من كانون الثاني ١٩٢٨.

٧- عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، الطبعة السابعة، الجزء الثاني، بغداد، ١٩٨٨، ص١٤٥-١٤٦.

٨- تألف حزب التقدم في تشرين الأول ١٩٢٥ ليسند وزارة السعدون الثانية في تمشية أعمالها وامرار اللوائح القانونية التي تتقدم بها، انظر:

عبد الرزاق الحسني، المصدر السابق، ص٨٢.

٩- المصدر نفسه، ص١٤٦-١٤٨.

١٠- عبد الرزاق عبد الدراجي، جعفر أبو التمن ودوره في الحركة الوطنية في العراق ١٩٠٨ – ١٩٤٥، الطبعة الثانية، بغداد، ١٩٨٠، ص١٩١-١٩٧.

١١- لمزيد من التفاصيل عن العلاقات العراقية – السعودية في تلك المرحلة. انظر: صادق حسن السوداني، العلاقات العراقية – السعودية (١٩٢٠ – ١٩٣١) دراسة في العلاقات السياسية، بغداد، ١٩٧٦، ص٢٦٣-٣٠٣.

١٢- المصدر نفسه، ص٢٧٤.

١٣- لمزيد من التفاصيل انظر:

لطفي جعفر فرج عبدالله، عبد المحسن السعدون ودوره في تاريخ العراق السياسي المعاصر، الطبعة الثانية، بغداد، ١٩٨٠، ص٢٤٨ - ٢٥٠.

١٤- نصت المادة (١٢) على عقد اتفاقية لتنظيم العلائق المالية بين العراق وبريطانية لتحل محل الاتفاقية المالية المعقودة في ٢٥ آذار ١٩٢٤، مثلما نصت المادة (١٣) على عقد اتفاقية عسكرية جديدة تنظم العلاقة بين الطرفين في هذا الميدان لتحل محل الاتفاقية العسكرية المعقودة في ٢٥ آذار ١٩٢٤. انظر: عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، الجزء الثاني، ص١٤٤.

١٥- لمزيد من التفاصيل عن مفاوضات عبد المحسن السعدون وهنري دوبس انظر: كاظم نعمة (الدكتور)، الملك فيصل الأول والانكليز والاستقلال، الدار العربية للموسوعات بيروت، ١٩٨٨، ص٢٢٥ - ٢٣٨.

١٦- لطفي جعفر فرج عبدالله، المصدر السابق، ص٣٠٠ - ٣٠٢.

١٧- توفيق السويدي، مذكراتي. نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية، بيروت ١٩٦٩، ص١٤٧.

١٨- عبد الرزاق الحسني، العراق في ظل المعاهدات، ص١٥٩-١٦١، توفيق السويدي، المصدر السابق، ص١٤٨، وعن وجهات نظر الطرفين العراقي والبريطاني انظر:

فاروق صالح العمر (الدكتور)، المعاهدات البريطانية وأثرها في السياسة الداخلية ١٩٢٢-١٩٤٨، بغداد، ١٩٧٧، ص٢١٧-٢٤٤.

١٩- يوضح هنري فوستر «الوضع الشاذ» بقوله: «بأن للعراق سيادة وطنية لكنه مع ذلك يخضع للانتداب»، فضلاً عن خضوع الوزارات للمستشارين البريطانيين وعدم قدرة العراق على انشاء جيش وطني للدفاع عن حدوده دون تجنيد الزامي، والحكومة تشرف على سكة الحديد وميناء البصرة ولا تستطيع ادارتهما وفقاً للاتفاقية العسكرية، وللحكومة جيش لا تستطيع تحريكه دون موافقة المندوب السامي ويحظى الرعايا الأجانب بالرعاية والاعفاءات الكمركية والامتيازات القضائية ولا يقابل العراقيون بالمثل، وتدفع الحكومة العراقية نصف نفقات دار الاعتماد دون الاشراف على صرفها. انظر:

هنري فوستر، نشأة العراق الحديث، الجزء الثاني، ترجمة وتعليق سليم طه التكريتي، بغداد، ١٩٨٩، ص٤٥٢-٤٥٣.

٢٠- ستيفن همسلي لونكريك، العراق الحديث من سنة ١٩٠٠ الى سنة ١٩٥٠، الجزء الأول، ترجمة وتعليق سليم طه التكريتي، بغداد، ١٩٨٨، ص٢٩٧.

٢١- عبد الرزاق الحسني، العراق في ظل المعاهدات، ص١٥٩.

٢٢- الجمعية الوطنية حزب سياسي، ابرز قادته محمد مهدي كبه وصادق العصام وعلى محمود الشيخ علي، قدموا طلباً الى وزارة الداخلية في السابع والعشرين من شباط ١٩٢٨ حددوا فيه أهدافهم، وبعد عودة الحزب الوطني العراقي بزعامةجعفر أبو التمن الى نشاطه السياسي انضم اعضاء الجمعية الوطنية اليه.

٢٣- عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، الجزء الثاني، ص١٧٥-١٧٦.

٢٤- زعيم الحزب الوطني العراقي.

٢٥- محمد مهدي كبه، مذكراتي في صميم الاحداث ١٩١٨-١٩٥٨، بيروت، ١٩٦٥، ص٣٢.

٢٦- عبد الرزاق عبد الدراجي، المصدر السابق، ص٢٥٠-٢٥٣.

٢٧- لمزيد من التفاصيل انظر:

محمد مهدي كبه، المصدر السابق، ص٣٣-٣٤.

٢٨- فاروق صالح العمر (الدكتور)، الأحزاب السياسية في العراق ١٩٢١ - ١٩٣٢، بغداد، ١٩٧٨، ص٩٢.

٢٩- قوم محمد طاهر العمري بنود الرئيس ولسن بشكل ايجابي، إلاّ أنه اعتبرها مجرد «صرير باب، وطنين ذباب» أمام «دوي احترامات الدول الكبرى» وأدرك كذلك انها بقيت «حبراً على ورق». انظر محمد طاهر العمري الموصلي، تاريخ مقدرات العراق السياسية، المجلد الثاني، بغداد، ١٩٢٤، ص١٥٣، ١٦٤.

٣٠- وودرو ولسن W.Wilson (١٨٥٦ - ١٩٢٤) عمل استاذاً جامعياً ثم حاكماً لولاية نيوجرسي، ثم رئيساً للولايات المتحدة الامريكية بين (١٩١٣ - ١٩٢١)، ثم اشتهر ببنوده الاربعة عشر، التي احيطت برعاية مبالغ بها، وقد ركز على البند الثاني عشر الذي نص على حق التنمية الذاتية للشعوب غير التركية في الامبراطورية العثمانية. عن تلك البنود انظر: أحمد عطية الله، المصدر السابق، ص١٤١٠، ولمزيد من التفاصيل عن تحليل وتقويم بنود الرئيس ولسن الأربعة عشر انظر:

كمال مظهر أحمد (الدكتور)، أضواء على قضايا دولية في الشرق

الأوسط، بغداد، ١٩٧٨، ص٥٥-٩٩.

٣١- كمال مظهر أحمد، المصدر السابق، ص٧٧.

٣٢- الاسم الرسمي للجنة كنك كريين «الهيئة الأمريكية من اللجنة الدولية لشؤون الانتدابات في تركيه»، إذ زارت سورية وفلسطين في حزيران وتموز ١٩١٩، والتقاها وفد عراقي في سورية عرض عليها مطالب العراقيين وآمالهم.

٣٣- جورج انطونيوس، المصدر السابق، ص٤٠٧-٤٠٨.

٣٤- لمزيد من التفاصيل انظر:

المصدر نفسه، ص٦١٧-٦٢١.

٣٥- لمزيد من التفاصيل. انظر:

اسامة عبد الرحمن نعمان الدوري، العلاقات العراقية - الامريكية ١٩٣٩ - ١٩٤٥، رسالة دكتوراه غير منشورة في التاريخ الحديث، جامعة بغداد، ١٩٨٩، ص٣٦-٣٨.

٣٦- ظل السيد كريين يحظى باحترام العرب لسنوات عديدة بعد ذلك، إذ أهدى جورج انطونيوس كتابه الذائع الصيت «يقظة العرب» «تشارلز كريين الملقب (هارون الرشيد عن جدارة رمزاً للمودة)»، انظر جورج انطونيوس، المصدر السابق، ص٦٥.

٣٧- انظر على سبيل المثال: «الاستقلال»، (جريدة)، بغداد ٢٥ تشرين الأول و ٢٠ تشرين الثاني ١٩٢٨.

٣٨- «الاستقلال»، ٢١ تشرين الثاني ١٩٢٨.

٣٩- «الاستقلال» ١٧ أيلول ١٩٢٨.

٤٠- «الاستقلال»، ١١ كانون الأول ١٩٢٨ و كانون الثاني ١٩٢٩.

٤١- «الاستقلال» ١١ أيلول ١٩٢٨.

٤٢- «الاستقلال» ٧ كانون الأول ١٩٢٨.

٤٢- «الاستقلال» ٢٣ كانون الأول ١٩٢٨.

٤٣- «الاستقلال» ١١، ٣، كانون الأول ١٩٢٨.

44- United States National Archievs (USNA), R0ll. 14, 890G. 927/113. No. 457 Diplomatic (Confidential), March 7.1935.

٤٥- «الاستقلال»، ٩ كانون الثاني ١٩٢٩.

٤٦- كمال مظهر أحمد، المصدر السابق، ص٩١.

٤٧- جورج انطونيوس، المصدر السابق، ص٣٩٩.

٤٨- «الأوقات العراقية»، (جريدة يومية عربية جامعة)، البصرة، ٢٤ كانون الثاني ١٩٢٩.

٤٩- «التقدم»، (جريدة)، لسان حال حزب التقدم، ٤ كانون الثاني ١٩٢٩.

٥٠- «التقدم»، ٦ كانون الثاني ١٩٢٩.

٥١- «العالم العربي»، (جريدة)، بغداد، ٨ كانون الثاني ١٩٢٩.

٥٢- توماس أ. بريسون، العلاقات الدبلوماسية الامريكية مع الشرق الأوسط من ١٧٨٤، ١٩٧٥، ترجمة دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ١٩٨٥، ص٢٢٩ - ٢٣٨.

٥٣- «التقدم»، ٤ كانون الثاني ١٩٢٩.

٥٤- «التقدم»، ٦ كانون الثاني ١٩٢٩.

٥٥- «التقدم»، ٦ كانون الثاني ١٩٢٩.

٥٦- «ضيفنا الأمريكي المحترم المستر كراين»، «التقدم»، ٤ كانون الثاني ١٩٢٩.

٥٧- توماس أ. بريسون، المصدر السابق، ص٢٤١.

٥٨- «التقدم»، ٦ كانون الثاني ١٩٢٩.

٥٩- «الاستقلال»، ٤ كانون الثاني ١٩٢٩.

٦٠- «العراق، ٥ كانون الثاني ١٩٢٩.

٦١- «الاستقلال»، ٥ كانون الثاني ١٩٢٩.

٦٢- «العراق، ١٤ كانون الثاني ١٩٢٩.

٦٣- «الاستقلال»، ٤ كانون الثاني ١٩٢٩.

٦٤- «العالم العربي»، ٥ كانون الثاني ١٩٢٩.

٦٥- «الاستقلال، ٥ كانون الثاني ١٩٢٩.

٦٦- «الاستقلال»، ٥ كانون الثاني ١٩٢٩.

٦٧- «الى المستر كراين، «العراق»، ٨ كانون الثاني ١٩٢٩.

٦٨- «العراق»، ٥ كانون الثاني ١٩٢٩.

٦٩- «النهضة العراقية، (جريدة)، لسان حال حزب النهضة العراقية، بغداد، ٦ كانون الثاني ١٩٢٩.

٧٠- «النهضة العراقية»، ٦ كانون الثاني ١٩٢٩.

٧١- عنوان مقال كتبه في صدر صفحتها الأولى في عددها الصادر يوم الرابع من كانون الثاني ١٩٢٩.

٧٢- «السياسة الصريحة يجب أن تصفي مشاكلنا مع بريطانيا على أساس سالم»، «التقدم»، ٤ كانون الثاني ١٩٢٩.

٧٣- «الاستقلال»، ١١ كانون الثاني ١٩٢٩.

٧٤- تألفت القصيدة من (٢٥) بيتاً.

٧٥- «النهضة العراقية»، ٦ كانون الثاني ١٩٢٩.

٧٦- لم يعثر الباحث في الوثائق غير المنشورة لأي ذكر عن أهداف زيارته للعراق، عدا الإشارة لزيارته فقط وبشكل عابر في احدى الوثائق، كما أن شيخ المؤرخين العراقيين السيد عبد الرزاق الحسني الذي لم يترك شاردة ولا واردة في كتابه الشهير «تاريخ الوزارات العراقية»، لم يذكر أكثر من ثلاثة أسطر فقط عن هذه الزيارة المهمة، والإحتفاء به «صديق العرب الأمريكي الكبير»، كما يسميه، في المدن العراقية الكبرى، ونجاته بأعجوبة حال مغادرته البصرة متوجهاً الى الكويت. انظر: عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، الجزء الثاني، ص١٧٧.

٧٧- نوري عبد الحميد خليل (الدكتور)، التاريخ السياسي لامتيازات النفط في العراق ١٩٢٥-١٩٥٢، بيروت ، ١٩٨٠، ص٢١٨-٢٢٧.

٧٨- «صدى الجمهور»، (جريدة يومية سياسية ادبية اخلاقية عامة)، الموصل، ١٧ كانون الثاني ١٩٢٩.

٧٩- «النهضة العراقية»، الأعداد من ٦ - ٢٣ كانون الثاني ١٩٢٩.

٨٠- «العالم العربي»، ١٣ كانون الثاني ١٩٢٩.

٨١- تألفت القصيدة من (٣٩ بيتاً).

٨٢- انظر نصوص كلمتي جعفر أبو الثمن وعلي محمود وقصيدة معروف الرصافي في «النهضة العراقية»، ١٣ كانون الثاني ١٩٢٩، كما نشرت قصيدة الرصافي أيضاً في العديد من الصحف العراقية منها «الاستقلال»، ١٣ كانون الثاني ١٩٢٩، ونشرت أيضاً في الكتابين التاليين: رؤوف الواعظ، معروف الرصافي حياته وأدبه السياسي، القاهرة، دون تاريخ، ص١٧٩ - ١٨٠، ديوان الرصافي، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٩٤٩، ص٤٢٨ بعنوان «يا محب الشرق».

٨٣- «النهضة العراقية»، ١٣ كانون الثاني ١٩٢٩.

٨٤- تأسس مطلع العام ١٩٢٣ ، وهو أول ناد للمرأة العراقية، ومن المؤسسات له، عقيلات نوري السعيد وجعفر العسكري وعبد الرحمن باشا الحيدري والشيخ أحمد الداود فضلاً عن أسماء الزهاوي ونعيمة سلطان حموده وحسيبه جعفر بك وبولينا حسون صاحبة مجلة (ليلى). تعاهدت الهيئة المؤسسة في اربعة اجتماعات عن الاتحاد والتعاضد والتفاني في سبيل النهضة وحددن غايته المقدسة بإرشاد النساء والفتيات لاسعاد انفسهن وأهاليهن والوطن، فضلاً عن عملهن على زيادة عدد مدارس الإناث ومكافحة العادات المستهجنة، وكانت أسماء الزهاوي أول رئيسة للنادي، ولعدة أسباب اضمحلت نشاطاته وتباعدت اجتماعاته، انظر:

صبيحة الشيخ داود، أول الطريق الى النهضة النسوية في العراق، بغداد ١٩٥٨، ص٨٥-٨٩.

٨٥- «العراق»، ١٤ كانون الثاني ١٩٢٩.

٨٦- «النهضة العراقية»، ١٤ كانون الثاني ١٩٢٩.

٨٧- «العالم العربي»، ١٦ كانون الثاني ١٩٢٩.

٨٨- «النهضة العراقية»، ١٤ كانون الثاني ١٩٢٩.

٨٩- لمزيد من التفاصيل عن حياته السياسية وشعره انظر:

عبد الرزاق الهلالي، الشاعر الثائر الشيخي محمد باقر الشبيبي ١٨٨٩ - ١٩٦٠، بغداد، ١٩٦٥.

٩٠- انظر القصيدة كاملة في : «النهضة العراقية»، ١٤ كانون الثاني ١٩٢٩، عبد الرزاق الهلالي، المصدر السابق، ص١١٠-ص١١٣. ومما تجدر الإشارة اليه أن قصيدة الشبيبي تألفت من (٣٤) بيتاً.

٩١- «على المكشوف...؟» عنوان القصيدة التي ألقاها الشاعر علي الندى الخطيب في حفلة الشباب العربي أمام الضيف الأمريكي. (تألفت قصيدته من (٣٣) بيتاً.

٩٢- «النهضة العراقية»، ١٤ كانون الثاني ١٩٢٩.

٩٣- «النهضة العراقية»، ١٤ كانون الثاني ١٩٢٩.

٩٤- «النهضة العراقية»، ١٦ كانون الثاني ١٩٢٩.

٩٥- «بماذا يوصي المستر كراين الشعب العراقي؟»، «التقدم»، ١٤ كانون الثاني ١٩٢٩.

٩٦- تقصد الجريدة الرئيس الأمريكي ثيودور روزفلت الذي قام بزيارة حييه الى افريقيا بعد انتهاء مدة رئاسته في العام ١٩١٠، وفي جولته الافريقية تلك زار القاهرة التي استقبلته استقبالاً حافلاً شبيهاً باستقبال العراقيين لكرين. القى روزفلت في حفل جامعة القاهرة خطاباً كان فيه مس واضح للمصريين، ومدى أهليتهم للاستقلال وأدان بشدة مقتل بطرس غالي الوالد في تلك الأيام.

٩٧- في النص «وقائع».

٩٨- «العراق، ١٦ كانون الثاني ١٩٢٩.

٩٩- «النهضة العراقية»، ١٦ كانون الثاني ١٩٢٩.

١٠٠- سمى العراقيون الدكتور جون فانيس باسم «وانيس». أنظر

«النهضة العراقية»، ٢٢ كانون الثاني ١٩٢٩.

١٠١- «النهضة العراقية»، ٢٢ كانون الثاني ١٩٢٩.

١٠٢- الكسندر آداموف، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها، ترجمة الدكتور هاشم صالح التكريتي، الجزء الأول، البصرة، ١٩٨٢، ص٢٢٩ - ٢٣٠.

١٠٣- جون فانيس (الدكتور)، أقدم أصدقائي العرب، ترجمة جليل عمسو، بغداد، ١٩٤٩. ص٣٣٩ - ٣٤١.

١٠٤- الكسندر آداموف، المصدر السابق، ص٢٣٠.

١٠٥- «الأوقات العراقية» ، ١٩ كانون الثاني ١٩٢٩.

١٠٦- «الاستقلال»، ٣٠ كانون الثاني ١٩٢٩.

١٠٧- «الأوقات العراقية»، ٢٤ كانون الثاني ١٩٢٩.

١٠٨- لمزيد من التفاصيل انظر:

صادق حسني السوداني، المصدر السابق، ص٢٥ - ٣٠٣.

١٠٩- عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق السياسي الحديث، الجزء الثالث، الطبعة السابعة، بغداد، ١٩٨٩، ص٤٩.

١١٠- «الأوقات العراقية»، ٥ كانون الثاني ١٩٢٩.

١١١- «الاستقلال»، ٣ شباط ١٩٢٩.

١١٢- «النهضة العراقية»، ٢٥ كانون الثاني ١٩٢٩.

١١٣- «الأوقات العراقية»، ٥ كانون الثاني ١٩٢٩.

١١٤- «الإخاء»، (جريدة أدبية علمية اجتماعية يومية. تصدر كل يومي الأربعاء والسبت مؤقتاً)، البصرة، ٣٠ كانون الثاني ١٩٢٩، أسمت هذه الصحيفة ضيف العراق «شارلس كريمه».

١١٥- ملفات وزارة الخارجية العراقية، ١٧٨٠/١٧٨٠/٥٠٠، مقتل مبشر أمريكي يعمل في البصرة ١٩٢٩، الإشارة: أخبارية، رقم الصندوق: المكتب الخاص/١٣.

١١٦- «الأوقات العراقية»، ٢٦ كانون الثاني ١٩٢٩.

١١٧- وزارة الخارجية، مجموعة المعاهدات والاتفاقيات الثنائية المعقودة بين العراق والدول الأجنبية، بغداد، ١٩٥٧، ص٢١-٢٥.

118- USNA, R.15, 89 OG.00/613, March, 7. 1933, Subject: (Irag,General Situation).

١١٩- راجع دار الكتب والوثائق، بغداد، الملفتين ١٩٠٨ - وع، البلاد الملكي، الملفة ر/٩، ديوان البلاط الملكي، بعثة مدندو الأمريكية. ١٩٠٩ - وع، البلاط الملكي، الملفة ر/٩، ديوان البلاط الملكي، بعثة مدنرو الامريكية.

120- USNA, R. 9. 890 G.42/ 14, No. 262. August. 1.1932.

١٢١- حول معاهدة ١٩٣٠ العراقية، البريطانية. انظر:

فاروق صالح العمر، المعاهدات العراقية - البريطانية وأثرها في السياسة الداخلية ١٩٢٢ - ١٩٤٨، ص٢٤٣-٣٠١.

قائمة المصادر والمراجع

١- الوثائق الأمريكية غير المنشورة:

1- United States National Archives, Roll. 9, 890G. 42/14, No.262, August1. 1932.

2- Unites States National Archives, R. 14. 890G. 927/113, No. 457 Diplomatic (Confidential), March 7. 1935.

3- United States National Archives, R. 15, 890G.00/ 613, March 17.1933. Subject: (Irag General Situation).

٢- الوثائق العراقية المنشورة وغير المنشورة:

١- ملفات دار الكتب والوثائق بغداد.

١٩٠٨ - وع، البلاط الملكي، الملفه ر/٩، ديوان البلاد الملكي، لجنة مونرو الأمريكية.

١٩٠٩ - وع، البلاط الملكي، الملفه ر/٩، ديوان البلاط الملكي، بعثة مونرو الأمريكية.

٢. ملفات وزارة الخارجية العراقية

١٧٨٠/ ١٧٨٠/ ٥٠٠، مقتل مبشر أمريكي يعمل في البصرة ١٩٢٩، الإشارة: اخبارية، رقم الصندوق: المكتب الخاص/١٣.

٣- وزارة الخارجية، مجموعة المعاهدات والاتفاقيات الثنائية المعقودة بين العراق والدول الأجنبية، بغداد، ١٩٥٧.

٣- الصحف العراقية

١- «الإخاء»، البصرة، كانون الثاني ١٩٢٩.

٢- «الاستقلال»، بغداد، أيلول تشرين الأول وتشرين الثاني وكانون الأول ١٩٢٨، وكانون الثاني وشباط ١٩٢٩.

٣- «الأوقات العراقية»، البصرة، كانون الثاني ١٩٢٩.

٤- «التقدم»، بغداد، كانون الثاني ١٩٢٩.

٥- «صدى الجمهور» الموصل، كانون الثاني ١٩٢٩.

٦- «العالم العربي»، بغداد، كانون الثاني ١٩٢٩.

٧- «العراق»، بغداد، كانون الثاني ١٩٢٩.

٨- «النهضة العراقية»، بغداد، كانون الثاني ١٩٢٩.

٤- الكتب المعربة:

١- البرت.م منتشا شفيلي، العراق في سنوات الانتداب البريطاني، ترجمة الدكتور هاشم صالح التكريتي، بغداد، ١٩٧٨.

٢- الكسندر آداموف، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها، ترجمة الدكتور هاشم صالح التكريتي، الجزء الأول، البصرة، ١٩٨٢.

٣- توماس أ. بريسون، العلاقات الدبلوماسية الامريكية مع الشرق الأوسط من ١٧٨٤ الى ١٩٧٥، ترجمة دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ١٩٨٥.

٤- جورج انطونيوس، يقظة العرب، تاريخ حركة العرب القومية، ترجمة الدكتور ناصر الدين الأسد والدكتور احسان عباس، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٦٦.

٥- جون فانيس (الدكتور)، أقدم أصدقائي العرب، ترجمة خليل عمسو، بغداد، ١٩٤٩.

٦- ستيفن همسلي لونكريك، العراق الحديث من سنة ١٩٠٠ الى سنة ١٩٥٠، الجزء الأول، ترجمة وتعليق سليم طه التكريتي، بغداد، ١٩٨٨.

٧- هنري فوستر، نشأة العراق الحديث، الجزء الثاني، ترجمة وتعليق سليم طه التكريتي، بغداد، ١٩٨٩.

٥- الكتب والمذكرات الشخصية:

١- أحمد عطية الله، القاموس السياسي، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٩٦٨.

٢- توفيق السديري، مذكراتي، نصف قرون من تاريخ العراق والقضية العربية، بيروت، ١٩٦٩.

٣- ديوان الرصافي، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٩٤٩.

٤- رؤوف الواعظ، معروف الرصافي حياته وأدبه السياسي، القاهرة، دون تاريخ.

٥- صادق حسن السوداني، العلاقات العراقية - السعودية (١٩٢٠-١٩٣١).

٦- دراسة في العلاقات السياسية،بغداد ١٩٧٦.

٧- عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق الحديث، الجزء الثالث، الطبعة السابعة، بغداد، ١٩٨٩.

٨- عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، الجزء الثاني، الطبعة السابعة، بغداد، ١٩٨٨.

٩- عبد الرزاق الحسني، العراق في ظل المعاهدات، الطبعة الثانية، صيدا، ١٩٥٨.

١٠- عبد الرزاق عبد الدراجي، جعفر أبو الثمن ودوره في الحركة الوطنية في العراق ١٩٠٨ - ١٩٤٥، الطبعة الثانية، بغداد، ١٩٨٠.

١١- عبد الرزاق الهلالي، الشاعر الثائر الشيخ محمد باقر الشبيبي ١٨٨٩ - ١٩٦٠، بغداد، ١٩٦٥.

١٢- فاروق صالح العمر (الدكتور)، الأحزاب السياسية في العراق ١٩٢١ - ١٩٣٢، بغداد، ١٩٧٨.

١٣- فاروق صالح العمر (الدكتور)، المعاهدات العراقية - البريطانية وأثرها في السياسة الداخلية ١٩٢٢ - ١٩٤٨، بغداد، ١٩٧٧.

١٤- كاظم نعمه (الدكتور)، الملك فيصل الأول، والانكليز والاستقلال، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ١٩٨٨.

١٥- كاظم مظهر أحمد (الدكتور)، أضواء على قضايا دولية في الشرق الأوسط، بغداد، ١٩٧٨.

١٦- محمد طاهر العمري الموصلي، تاريخ مقدرات العراق السياسية، المجلد الثاني، بغداد، ١٩٢٤.

١٧- محمد مهدي كبه، مذكراتي في صميم الأحداث ١٩١٨ - ١٩٥٨، بيروت، ١٩٦٥.

١٨- لطفي جعفر فرج عبدالله، عبد المحسن السعدون ودوره في تاريخ العراق السياسي المعاصر، الطبعة الثانية، بغداد، ١٩٨٠.

١٩- نوري عبد الحميد خليلي (الدكتور)، التاريخ السياسي لامتيازات النفط في العراق ١٩٢٥ - ١٩٥٢، بيروت، ١٩٨٠.

الرسائل الجامعية غير المنشورة:

اسامة عبد الرحمن نعمان الدوري، العلاقات العراقية - الامريكية ١٩٣٩ - ١٩٤٥، رسالة دكتوراه غير منشورة في التاريخ الحديث من كلية الآداب جامعة بغداد، ١٩٨٩.

كفاح المرأة المصرية ضد الاحتلال الفرنسي زمن الحملة الفرنسية على مصر

الدكتورة سحر السيد عبدالعزيز سالم
استاذ التاريخ والحضارة الاسلامية المساعد
كلية الآداب/ جامعة الاسكندرية

مقدمة

كان للمرأة المصرية دائماً عبر كل حقب التاريخ دور أساس لا يقل عن دور الرجل في المجتمع المصري. وتشهد الوقائع التاريخية بذلك، ففي العصور القديمة الفرعونية، ومنذ أن بزغ فجر التاريخ ظهرت ايزيس في الاسطورة المصرية محور العقيدة الفرعونية كمثال للزوجة الوفية، الصامدة، الأبية التي تقف مع الحق، ترفض الظلم والذل، تساند زوجها أوزوريس حتى النهاية في وقوفه الى جانب الخير والعدالة. وكانت نظرية الدم الملكي عند الفراعنة تقوم على المرأة، فالملك يتولى الحكم عن طريق المرأة والحفاظ على نقاء دم الأسرة المالكة يأتي من خلال الأم أو الأخت. وكانت حتشسوت أول ملكة تحكم في العالم، وقد عبر الفن المصري القديم عن احترام المجتمع المصري للمرأة، ومساواتها بالرجل، ويظهر ذلك من خلال التماثيل المصرية التي ظهرت فيها المرأة المصرية على قدم المساواة مع الرجل، وظهرت الزوجة في الفن الى جانب زوجها تحتضنه وترعاه وتخاف عليه وعلى أولادها.

أما ملكة مصر نفرتيتي ابنة الشعب البسيطة وزوجة اخناتون، فهي التي آمنت بعقيدة التوحيد التي جاء بها زوجها وتمسكت بها حتى النهاية رغم كل الصعاب، فقاومت كل المعارضين وسبحت ضد كل التيارات المعادية لهذه العقيدة السامية.

ومن منا ينسى كليوباتره، ملكة مصر البطلمية التي لعبت دوراً ليس في تاريخ مصر فحسب بل في تاريخ روما نفسه.

وعندما جاء الاسلام ، كرّم المرأة ورفع من شأنها ورد لها حقوقها التي كانت مهضومة في الجاهلية، وقد دعا الله سبحانه وتعالى الى مساواة الرجل بالمرأة فوجه تعاليمه السمحة من الآيات القرآنية الكريمة الى كل من المؤمنين والمؤمنات رغم أن كلمة مؤمنين لغوياً تجب النساء والرجال إلاّ أن الاسلام أكّد بذلك حرصه على المساواة، كما طالب الله سبحانه وتعالى كل من المرأة والرجل بطلب العلم وساوى بينهما في الحدود والعقاب وكذلك في الحقوق والواجبات.

ومع الخطوات الأولى للدعوة الاسلامية لمعت أسماء نساء مسلمات، ندينُ لهنّ جميعاً بكل حب وتكريم وتقديس فمن السيدة خديجة أم المؤمنين الى أسماء ذات النطاقين إلى السيدة عائشة حافظة الحديث عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) الى نسيبة بنت كعب وأم سلمة وكرشة بنت الأحرش التي شاركت في جيش علي بن أبي طالب من موقعة صفين والزرقاء بنت عدي وغيرهن.

ومن هذه القاعدة وهذا المنطلق برزت في مصر الاسلامية، وكانت مصر مستقراً لنساء آل بيت رسول الله (ص) مثل السيدة زينب والسيدة نفيسة فوجدتا كل ترحيب وتقدير من أهل مصر رجالاً ونساءً ولا يزال مقامهما حتى الآن مزاراً لكل المصريين لما لهما من مكانة في كل النفوس في مصر.

أما الدولة الفاطمية وهي الدولة التي حكمت مصر أكثر من قرنين، فقد تسمّت باسم السيدة الطاهرة فاطمة الزهراء وهي ابنة رسول الله (ص) وقد أحب المصريون الفاطميين واتسم حكم الفاطميين ببروز دور المرأة فيه، وليس من المبالغة القول أن تاريخ الدولة الفاطمية من الفترة الأولى كان من صنع المرأة، فقد لمعت فيه بنات الخلفاء وزوجاتهن. ولعل أشهرهن السيدة ست الملك بنت عبد العزيز بالله التي حمت الاسلام من جنون أخيها الحاكم بأمر الله ودعواه بالألوهية، وبالبدوية زوجة الآمر بأحكام الله التي برعت في كثير من العلوم كالطب والفلك والموسيقى وكان لها دور واضح في تخليص الدولة الفاطمية من خطر الأفضل شاهنشاه، وكذل كانت والدة الخليفة

المستنصربالله التي نجحت في تسيير شؤون الدولة الفاطمية وبسط نفوذ الفاطميين على الحجاز واليمن والشام والسودان.

وفي أواخر عصر الدولة الأيوبية تولت حكم مصر السلطانة، عصمة الدين، شجرة الدر السلطانة الشهيرة التي قدّر لها أن تواجه عاصفة لا قِبلَ لأعتى الرجال بها، وأعني الحملة الصليبية السابعة، فقادت تلك السيدة الشجاعة جيوش مصر وتمكنت بذكائها وحكمتها وصلابتها من أسر ملك فرنسا الكبير، لويس التاسع وردته الى بلاده ذليلاً بعد أن افتدى نفسه بالمال، تلك كانت امرأة من مصر.

ومضت سنون التاريخ، سجلت خلالها المرأة المصرية أروع الأدوار جيلاً بعد جيل. وأبرز سمات المرأة المصرية، الشموخ، والوقوف الى جانب الحق والخير.

ويتصور البعض أن هذا الدور الرائد والمشرف للمرأة المصرية في العصور القديمة والوسيطة قد انتهى مع مشارف العصر الحديث ودخول العثمانيين الى البلاد، وأنها لم تعد الى مجدها السابق إلاّ مع بوادر ثورة ١٩١٩ التي قادها الزعيم الوطني سعد زغلول ضد الاستعمار الانجليزي، عندما خرجت نساء مصر بالحجاب يهتفن بسقوط الاحتلال.

ولكنني باعتباري مؤرخة في التاريخ الاسلامي، وباعتبار أن بعض المدارس التاريخية تعتبر التاريخ العثماني امتداداً للتاريخ الاسلامي، رأيت أن المرأة المصرية لعبت دوراً في مقاومة الاستعمار في أواخر العصر العثماني وذلك عند قدوم الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت قبل ثورة سعد زغلول بسنوات طوال، وأنها لعبت دوراً حافظت فيه على صورتها الرائدة المعهودة، كما ساءني بعض الكتابات التي وردت في حقها لذلك فقد تصديت للرد على كل تلك الافتراءات الظالمة.

وخرجتُ من هذا البحث بأن المرأة المصرية كانت ولا تزال تقف الى جانب الرجل لتأييد الحق والعدل وفي مقاومة الظلم والبغي والعدوان. وأن دورها السياسي في العصر الحديث قد بدأ قبيل ثورة ١٩١٩ بمراحل فقد بدأ في الواقع زمن الحملة الفرنسية.

كفاح المرأة المصرية ضد الاحتلال الفرنسي زمن الحملة الفرنسية على مصر

لم يحاول العثمانيون منذ بداية سيطرتهم على مصر في سنة ١٥١٧م حتى نزول قوات الحملة الفرنسية بالاسكندرية في يوليو ١٧٩٨م الاندماج في المجتمع المصري، والانصهار في المصريين والتفاعل معهم، فكانوا يؤلفون داخل هذا المجتمع طبقة حاكمة منعزلة عن بقية قطاعات المجتمع وعاجزة في نفس الوقت عن عثمنة البلاد أي صبغتها بالصبغة العثمانية، وإنما عاشوا في مصر طبقة حاكمة منفصلة عن الشعب طابعها الاستعلاء والصرامة[1]. وكان الحكم العثماني على هذا النحو حكماً غير مباشر: فالحاكمون لم يمسوا نظم الحكم القائمة في مصر إلاّ بقدر ضئيل يضمن بقاءها ولاية عثمانية[2]. وكان لضيق النشاط الحكومي وسطحيته، بحيث لم يكن يتجاوز الدفاع عن الولاية، والحفاظ على الأمن الداخلي وتحصيل الأموال الأميرية، والفصل في الخصومات، والإشراف على قوافل الحج[3]، دون أن ينفذ الى صميم حياة المجتمع بما في ذلك نظم التعليم والتنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البلاد وكذلك الشؤون الصحية، بالإضافة الى وضوح النزعة الدينية في سياسة العثمانيين في مصر، وعدم تدخل السلطة الحاكمة في شئون الأزهر، ورسوخ نظام الالتزام في بناء المجتمع المصري[4]، كان لذلك كله أعظم الأثر في ايجاد تلك العزلة التي اتسم بها الحكم العثماني عن الشعب المصري، وقد ساعد على انعزال العثمانيين عن المجتمع المصري احتفاظ العثمانيين بالبناء الاجتماعي الذي كان سائداً في البلاد قبل سيطرتهم عليها، وهو بناء اجتماعي قائم على نظام الطوائف الاقتصادية والاجتماعية شبه المستقلة[5]، وقد ترتب على ذلك أن أصبح الحكم العثماني قليل التأثير في حياة المجتمع المصري الذي احتفظ بثقافته المحلية وتقاليده الذاتية، وبالكثير من أنظمة الحكم التي سبقت الفتح العثماني لمصر[6].

وأتاحت سياسة عدم تدخل الدولة العثمانية في شئون الأزهر المجال لهذه المؤسسة الدينية لتؤدي دورها الفكري والقومي على نحو مذهل تجاوز كل تقدير، فاللغة التركية لم يكن لها أي صدى في أروقة الأزهر، وظلت اللغة العربية

بالفعل لغة السواد الأعظم من شعب مصر. وهكذا حفظ الأزهر لمصر تراثها اللغوي والروحي والقومي، وساعده على تحقيق ذلك التحام شيوخه بجماهير الشعب المصري ومساندتهم لهم في الأزمات الوطنية، باعتبار الأزهر مركز الاشعاع الفكري في البلاد وموضع احترام العثمانيين العميق له ولعلمائه(٧).

من هذا المنطلق يظهر لنا واضحاً رسوخ الطابع الاسلامي الذي عرفته مصر في عصر دولة سلاطين المماليك في البناء الاجتماعي لمصر في العصر العثماني، وأن كان قد تأثرا الى حد كبير بسبب حياة العزلة التي فرضتها السلطات العثمانية على مصر في أعقاب استيلائهم عليها واطاحتهم بشخصيتها المستقلة(٨)، وقد ظل المصريون يحافظون على هذه التقاليد دون أن يمس جوهرها تغيير كبير بصرف النظر عن حالة التأخر الاجتماعي والتخلف العلمي والثقافي والتدهور الاقتصادي التي أصابت البلاد، حتى ختام القرن الثامن عشر، عندما تمكنت الحملة الفرنسية من المشاركة على مسرح الأحداث ومما لا شك فيه أن الحملة الفرنسية على مصر أحدثت هزة عنيفة في البلاد أقل ما يمكن أن يقال عنها أنها حركت المجتمع المصري بعد ما يقرب من ثلاثة قرون من الركود والجمود والعزلة، وأنها مهدت - رغم قصد أمد الاحتلال الفرنسي - الطريق لتغيرات قدر لها أن تبدل صورة مصر على نحو شبه كلي ابان القرن التاسع عشر(٩).

وكانت المرأة المصرية، التي قدر لها أن تعيش في صمت داخل غياهب الحرملك العثماني ما يقرب من ثلاثة قرون، قد حطمت قيودها منذ أن وطئت أقدام الفرنسيين تراب مصر، وشاركت بدور فعال في مقاومة الاحتلال الفرنسي البغيض لبلادها، على الرغم مما وصمت بن من قالات ظالمة وافتراءات مبالغ فيها، سجلتها روايات معاصريها أمثال الجبرتي ونقولا الترك، وقد استهواني حقاً الدور الرائع الذي لعبته المرأة المصرية في السنوات الثلاثة التي استغرقها الاحتلال الفرنسي لمصر، بقدر ما ساءني تحامل معاصريها عليها(١٠)، فرأيت أن أختار ذلك موضوعاً لهذا البحث على الرغم من صعوبته، وقلة المادة التاريخية المتاحة، لاقتناعي بأن المرأة المصرية في هذا العصر مفترى عليها، وكان هدفي انصافها وابراز دورها في مواجهة الغزو الأجنبي واظهار مكانتها في المجتمع المصري الذي لم يكن يقبل أنذاك تحررها، ويعتبر ذلك نوعاً من الخروج، وجريمة تستحق القتل، وهذا ما حدث بالفعل بعد جلاء الفرنسيين عن مصر، عندما تفرغ الرجال لمحاسبة المرأة حساباً عسيراً على ما قدمته.

المرأة المصرية ومكانتها في المجتمع المصري في عهد الحملة الفرنسية

طبقات النساء

أ- نساء مصر في عصر دولة المماليك الشراكسة والعصر العثماني:

كان المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك على حد قول أحد المؤرخين الحديثين مجتمعاً جامداً طبقي البنيان(١١)، يتألف من أخلاط غير منظمة من البشر، منهم أمراء المماليك أنفسهم ويؤلفون الطبقة العسكرية المسيطرة وهي طبقة ذات خصائص تعزلها عن المجتمع الذي تعيش وسطه(١٢)، ويليها طبقة المعممين وتشمل الفقهاء والعلماء وأرباب القلم، ثم طبقة بياض العامة، ويدخل فيها مياسير التجار والصناع، فطبقة العوام ومنهم الباعة والسوقة والسقائين والمكارية، وقد عرف العوام أيضاً بالحرافيش والزعر والمشاعلية، وأخيراً طبقة الفلاحين ويؤلفون السواد الأعظم من سكان مصر ويليهم العربان(١٣).

وكانت المرأة المصرية في عصر دولة سلاطين الشراكسة، سواء في مجتمع الخاصة أو مجتمع العامة تحظى بنصيب وافر من التبجيل والتكريم والاحترام(١٤): ففي مجتمع الخاصة كان لها نفوذ الكلمة ووافر الهيبة، وكان من ألقابها خوند، وخاتون، وكلاهما كان مخصصاً لزوجات الأمراء والسلاطين وكبار رجال الدولة، في حين لقبت أحياناً في مجتمع العامة بست الكل، وست الجميع، وست الأهل، وست من يراها(١٥). ولم تلعب المرأة المصرية في الطبقة العامة دوراً سياسياً على الاطلاق، وإنما اقتصر ذلك على زوجات السلاطين والأميرات من بيوت المماليك الذين كانوا يعيشون بمنأى عن الشعب المصري، وقد بلغ من نفوذ زوجات بعض

السلاطين أنهن كن يشرفن أحياناً على شئون الدولة، ومنهن زينب بنت العلاء على المعروفة بابنة ابنة خاص بك احدى زوجات السلطان الاشرف اينال (٨٥٧-٨٦٥هـ/ ١٤٥٣-١٤٦٠م) وعنها يقول السخاوي: «لم يتزوج عليها.. وكل أولاده المؤيد أحمد وغيره منها، بحيث انفرد عن سائر الملوك بذلك، كما انفردت هي عن سائر الخوندات بالمزيد من نفوذ الكلمة، ووفور الحرمة، وطواعية السلطان جداً لأوامرها حتى كان لا اختيار له معها، وحجت في أيام عزها، فكان أمراً زائد على الحد، وعوفيت من مرض مدة، فطلعت من بيتها ببولاق الى القلعة في محفة، وكل من ولدها وصهريها الدوادار الكبير والثاني والزمام والخازندار بحواشيهم وغيرهم أمام محفتها، وآخرون من الخدام والخدم والمماليك بجوانبها، وخلفها الى غير ذلك من الخوندات ونساء الأمراء والمشاعل والشموع والفوانيس، والأمر في عظمتها فوق هذا كله.. ثم بعد صارت مرعية بالأشرف قايتباي، سيما وقد تزوج عظيم دولته الدوادار الكبير ابنة ولدها»[١٦].

ومع ذلك التقدير الكبير والاجلال الذي يحمله رجال هذا العصر لنسائهم، هناك ما يشير الى أن ذلك لم يكن قاعدة عامة في المجتمع المصري: فقد كانت بعض النساء موضع احتقار واستخفاف، كما أن بعض السلاطين لم يتورع عن ضرب المرأة بين يديه وتشهيرها في الطريق العام[١٧].

ولقد أسهمت نساء هذا العصر بنصيب كبير في الحياة العامة بمصر، فمنهم من اشتغلت بالفقه أو الحديث أو النحو، ومنهن من نظمت الشعر، كما ظهرت منهن بعض المسندات الشهيرات، وقد خصص السخاوي في الضوء اللامع جزءاً قائماً بذاته لتراجم النساء يتضمن ١٠٧٥ ترجمة لنساء لعبت بعضهن دوراً هاماً في الفكر المصري في عصر المماليك الشراكسة، فمن الشاعرات فاطمة ابنة القاضي كمال الدين محمود بن شيرين الحنفي[١٨]، ومن أشهر المسندات: عائشة ابنة محمد بن عبدالهادي (ت ٨١٦) فقد أخذ عنها الأئمة سيما الرحالة فاكثروا[١٩]، ومنهن خديجة ابنة ابراهيم بن اسحق (ت ٨٠٣هـ) آخر من حدث عن ابن مظفر بن عساكر بالسماع وسمع منها الأئمة[٢٠]، وممن اشتهر في التصوف من النساء بلقيس بنت محمد بن عمر البلقيني (ت٨٤١هـ) التي سلكت أكثر من عشر سنين طريق التصوف «ولبست الخرقة من جماعة وتسمت بالشيخة» [٢١]، كذلك غلب التصوف على خوند شكرباي الاحمدية زوجة الظاهر خشقدم، «واتبعت الطريقة الاحمدية ونسبت اليها، ولما توفيت جعل على نعشها خرقة مرقعة للفقراء (أي الصوفية)» ووضع أما نعشها أعلام أحمدية[٢٢]. أما عن النساء اللائي برزن في علوم الفقه والحديث فعديدات بين تراجم الضوء اللامع[٢٣].

أما نساء العامة فكانت منهن البلانة العاملة في الحمامات العامة، وعملها حك الأبدان وتخفيفها وتدليك الأقدام، ومنهن الدلالة والتاجرة وخادمة الفقيرات والخاطبة والداية والمرضعة وضامنة المغاني والغاسلة والماشطة للعرائس والنادبة في الجنائز[٢٤] والخزافة صانعة التحف الخزفية[٢٥].

ويمتدح المؤرخ الكاتب ابن ظهيرة نساء مصر ويصفهن بأنهن «أرق نساء الدنيا طبعاً وأحلاهن صورة ومنطقاً، وأحسنهن شمائل، وأجملهن ذاتاً» ويخص المولدات منهن بالجمال البارع ثم يورد قول الإمام الشافعي: «من لم يتزوج بمصرية لم يكمل عفته»[٢٦]، والواقع أن هذا الاطراء لم يتجاوز الحقيقة بشهادة بونابرت نفسه[٢٧]، وربما كان مصدر جمال المصرية هو اختلاط الاجناس أو الى اهتمامها بزينتها ومبالغتها في تكحيل عينيها والتطيب والتعطر[٢٨].

ولقد استمرت المرأة المصرية تؤدي دورها في المجتمع المصري زمن العثمانيين كما كانت تؤديه من قبل في عصر المماليك، وإن كانت حياة العزلة التي عاشتها مصر في العصر العثماني، بعد أن فقدت استقلالها، وأصبحت مجرد ولاية عثمانية، قد أثر تأثيراً عميقاً على الحياة الاجتماعية للمرأة المصرية، كما أثر بنوع خاص على ثقافتها وشخصيتها، وتفسير ذلك مرده الى تدهور الحياة الاقتصادية في البلاد على المستوى المعيشي للطبقات الكادحة التي كانت تعيش مسخرة لخدمة ساداتها، وقد أدى شعور الناس بالضيق الى الانحراف الاجتماعي والى التعرض للأمراض الاجتماعية: فانتشر تعاطي الحشيش والخمر والبوزة بين أفراد الطبقة الكادحة، كما أدى الى تأخر العلوم، وانحطاط الآداب وغلبة الجمود على القرائح،

وانهيار مستوى التعليم بحيث أصبح قاصراً على الكتاتيب في الوقت الذي اضطربت أحوال الأزهر، ونضبت موارده، كذلك أدى هذا التدهور الى تفشي الجهل بأصول الدين وأصبحت الثقافة الدينية للانسان المصري مجرد قشور، كما أدى الى شيوع الخرافات والشعوذة واستخدامها في العلاج[٢٩]، وعلى هذه الحال السيئة وصلت قوات الحملة الفرنسية الى الاسكندرية.

ب- طبقات النساء في مصر زمن الحملة الفرنسية:

يذكر شابرول دي فولفيك أحد مؤلفي كتاب «وصف مصر» أنه لا توجد في مصر سوى طبقتان من السيدات: «طبقة ترفل في الثراء، ويؤدي الغنى الى رخاوة نسائها فيقضين حياتهن بأكملها داخل مباهج ومسرات الحريم، وطبقة أخرى قدرت على نسائها حياة نشيطة مليئة بالعمل»[٣٠]، ويقصد شابرول بالطبقة الثانية الطبقة العامة الكادحة التي ألفت خشونة العمل، وتمرست على الشقاء وحياة البؤس، وبينما كانت نساء الطبقة الموسرة يقضين جل وقتهن راقدات على الفراش أو متوسدات على الوسائد الرخوة، تحيط بهن بضعة إماء يقفن رهن اشارتهن، نجد نساء الطبقة الثانية، وقد شغلتهن متاعب البيت لا يهدأن لحظة واحدة من العمل المتواصل، الأمر الذي اكسب قوامهن رشاقة، وأبدانهن قوة وصلابة، على نقيض النساء الموسرات اللائي ثقلت حركاتهن بسبب سمنتهن المفرطة، وقلة قيامهن[٣١].

هذا التقسيم الذي يضعه شابرول لنساء مصر في عهد الحملة الفرنسية الى طبقتين اجتماعيتين لا يتفق في رأيي مع الواقع، وأعتقد أن من الأفضل تقسيمهن الى أربع طبقات هي:

١- طبقة مجتمع الخاصة، وتشمل زوجات وبنات الأمراء والمماليك وكبار الشيوخ والعلماء والقادة.

١- الطبقة الوسطى وتضم زوجات وبنات كبار وأرباب الحرف والفقهاء.

٣- طبقة العامة وهن النساء الكادحات ومنهن الدلالات والبلانات والدايات والنادبات في الجنائز والماشطات في الأعراس وضامنات المغاني والبائعات، وتضم الى هذه الطبقة الفلاحات.

وكان من اليسير تمييز الطبقة التي تنتمي اليها المرأة المصرية من مجرد مظهرها العام: فعندما دخل الفرنسيون الاسكندرية، لاحظوا أن شوارع المدينة تكاد تكون خالية من النساء باستثناء «نساء الطبقات الدنيا اللائي أثار مظهرهن تقزز الفرنسيين، وكن يرتدين جلباباً واحداً ازرق في العادة، قذراً دائماً، ويسرن حافيات الأقدام، عاريات السيقان، ويلطخن حواجبهن بالكحل، وأظافرهن بالحناء، ويكشفن في مرح عن أي عضو من أعضائهن إلا وجوههن[٣٢]. ويصف الميجر ديتروا نساء هذه الطبقة في القاهرة في صيف عام ١٧٩٨ بقوله: «ونساء قليلات منكرات الصورة مقززات يخفين وجوههن العجفاء وراء خرق نتنة»[٣٣].

ان هذه النساء اللائي ابصرهن الفرنسيون في الاسكندرية واسترعت انظار الميجر ديتروا في القاهرة لسن في الواقع نساء عاملات فرضت عليهن طبيعة أعمالهن الخروج في الشوارع، أما نساء مجتمع الخاصة ومنهن الخواتين والخوندات وزوجات الأعيان فقلما يخرجن من دورهن إلاّ للتردد على الحمام أو للقيام بإحدى واجبات الزيارة، وإذا اتفق وخرجت يوماً من خدرها فإنها تتزين لكل ما لديها من حلى وجوهر وترتدي افخر ثيابها وتتعطر، ثم تغطي ثيابها الأنيقة تحت البرقع والسبلة «وهي قميص كبير من التافتاز يغطي كل ملابسها وينزل حتى عقبيها[٣٤] وبينما كانت أكثر نساء الطبقة الدنيا يخرجن ماشيات حاسرات، وبعضهن يحملن اطفالهن على الكتف، فإن نساء مجتمع الخاصة كن يركبن الخيول أو الحمير، وقد تنقبن بالبراقع وتغطين بالحبرات ووراءهن يسير الخدم والسياس، ومن الجدير بالذكر أن خروج النساء بمفردهن في الطرقات كن يعرضهن لأنواع من الاعتداءات، فقد استغل بكوات المماليك القصور الواضح في نظم الحكم العثمانية في مصر ومارسوا نوعاً من الظلم والاستبداد نحو الشعب[٣٥] المصري وعلى الأخص في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، ولم يعد الناس يأمنون على أنفسهم وعلى حريمهم بسبب حوادث الاعتداء على النساء عندما يخرجن للنزهة ناحية بركة الأزبكية[٣٦]، ولهذا السبب كان ينادي على النساء بالبقاء في بيوتهن وعدم الخروج بمفردهن وورد في تاريخ

الجبرتي في حوادث جمادى الآخرة سنة ١٢٠١هـ (١٧٨٦م) ما يشير الى أنه نودي على النساء يوم الخميس سادس عشر جمادى الآخرة «أن لا يخرجن الى موسم الخماسين المعروف عند القبطة بالنسيم، وذلك يوم الاثنين صبيحة عيدهم وفي عشرينه... استمرت المناداة على النساء في عدم خروجهن الى الأسواق، وسبب ذلك وقائعهن مع العسكر، منها أنهم وجدوا ببيت يوسف بيك سكن جامجي أوغلي نحو سبعين امرأة مقتولة ومدفونة بالاصطبلات، ومن النساء من لعبت على العسكر وأخذت ثيابه، وأمثال ذلك، فنودي عليهم بسبب ذلك، فتضرر المحترفات منهن مثل البلانات والدايات وبياعات الغزل والقطن والكتان، ثم حصل الاطلاق وسومحوا في الخروج»[٣٧].

وكانت النساء الفاضلات يتنقبن دائماً ولا يظهرن سافرات دون خُمُر، إلاّ داخل بيوتهن، ولم يكن يسمح لأحد من الرجال باستثناء بعض الأقارب بالدخول الى مسكن الحريم الذي يشغل عادة الطابق العلوي من الدار (الحرملك) كما كان من النادر أن يمثل غريب في حضرة زوجة أحد الأعيان، وإنما كانت لا تظهر لناظره، بل كانت تحادثه عن طريق الأغا دون أن تخرج من خدرها[٣٨]، وجاء في كتاب وصف مصر أن السؤال عن حال السيدات كان يعتبر أمراً شائناً مهما كان الدافع اليه، فكان لا يمكن لرجل أن يسأل رجلاً آخر عن أخبار زوجته[٣٩]، وقد استمرت هذه العادة حتى يومنا هذا لا سيما في الريف المصري وذلك عندما يسأل صديق عن حال البيت أو الجماعة. ومن الواضح أن هذا التحجب كان ثمرة من ثمرات العصور الوسطى، أو ارثاً من مخلفات العصر المملوكي عن طريق الترك الذي غمروا العالم الاسلامي منذ عهد الخليفة المعتصم العباسي[٤٠]، ولعل ذلك كان سبباً في تلقيب المرأة المصرية في مجتمعنا القروي في الوقت الحاضر «بالدرة المصونة» وتلقيبها في العصرين المملوكي والعثماني» بالحجاب المنيع والستر الرفيع «وتسمية الدور التي تقيم فيها «بالآدر المصونة» أو «الدار العلية ذات الستر الرفيع»، وكثيراً ما لقبت «بالعفيفة التقية النقية» أو «المحجبة» أو «المحروسة» أو «الجليلة المصونة»[٤١].

ولا ينطبق على نساء الطبقة الكادحة ما ينطبق على نساء الطبقتين الخاصة والوسطى، فقد كن، بحكم عملهن، لا يخضعن لهذه التقاليد، ولهذا السبب كان المجتمع ينظر اليهن نظرة ازدراء، أما الطبقة الرابعة، وهي أدنى طبقات المجتمع النسائي وتشتمل على الجواري والإماء البيض والسود بالإضافة الى النساء غير الفاضلات والمغنيات والراقصات (الغوازي)، فقد انطلقت نحو التحرر من قيود المجتمع المصري بتشجيع من العسكريين الفرنسيين الذين كانوا يبحثون عن اللهو، وقد نشروا بذلك الفساد الاخلاقي بوجه خاص على نحو ما نشير اليه في دراستنا للموضوع الثالث. ولم تكن نساء هذه الطبقة تقدم على ذلك قبل وصول الحملة الفرنسية الى مصر، إذ لم يكن يسمح لهن بذلك إلاّ في مناسبات خاصة، كالاحتفال بوفاء النيل أو زيارة جامع عمرو بن العاص يوم الجمعة اليتيمة وفي هذا اليوم كانوا يفدون الى الجامع من القاهرة ومصر وبولاق، «فيجتمع بصحنه أرباب الملاهي من الحواة والقراداتية وأهل الملاعيب والنساء الراقصات المعروفات بالغوازي»[٤٢]. وكان عامة الناس في العصر الأيوبي يترددون على هذا الجامع رجالاً ونساءاً «قد اتخذوه معبراً بأوطئة أقدامهم، ويجوزون فيه من باب الى باب ليقرب عليهم الطريق، والبياعون يبيعون فيه أصناف المكسرات والكعك وما جرى مجرى ذلك، والناس يأكلون منه في أماكن عدة غير محتشمين لجري العادة عندهم بذلك، وعدة صبيان بأواني ماء يطوفون على من يأكل، قد جعلوا ما يحصل لهم منهم رزقا، وفضلات مآكلهم مطروحة في صحن الجامع وفي زواياه[٤٣].

فضائل المرأة المصرية ودورها في المجتمع في عهد الحملة الفرنسية

أ- الصفات الطيبة في المرأة المصرية:

كانت المرأة المصرية في عهد الحملة الفرنسية، رغم ثقافتها السطحية، وايمانها بالخرافات والشعوذة، تتحلى بصفات طيبة جعلتها موضع احترام الأزواج واجلال الأبناء: ففي مجتمع الخاصة كانت المرأة المصرية أيا ما كان أصلها مسالمة طيعة وتغلب عليها الطيبة وكانت الى جانب ذلك وفية لزوجها، ولا تعصي له أمراً ولا ترد له طلباً، وكانت يغلب عليها عادة حب

الخير والبر، وهي صفات ورثتها عن جداتها من نساء مصر منذ القدم[٤٤]. فالسيدة نفيسة المرادية[٤٥] مثلاً أقبلت على الكتب العلمية تطالعها فارتقت مداركها واكتسبت احترام العلماء وبكوات المماليك ومحبة الشعب لما اشتهرت به من بر واحسان[٤٦]، وكانت على حد قول الجبرتي «من الخيرّات ولها على الفقراء بر واحسان، ولها من المآثر الخان الجديد والصهريج داخل باب زويلة[٤٧]، وتشبه السيدة نفيسة في ذلك السيدة خديجة ابنة أمير حاج بن اليسري[٤٨]. (ت ١٤٧٣م) وكانت امرأة على دين ورياسة وعرفت بولعها ومحبتها الخاصة لأعمال البر والإحسان، وقد انتفع الناس بشفاعتها «وقربت اليها العجائز والفقراء (المتصوفة)، وابتنت رباطاً للأرامل»[٤٩]، كما تشبه السيدة زينب ابنة العلاء زوجة الاشرف اينال (توفيت في أواخر القرن التاسع الهجري)، التي عرفت بنفوذ الكلمة ووافر الحرمة وعظم الثروة، واشتهرت أيضاً بعمل الخير والبر، وأقامت هي الأخرى رباطاً للأرامل[٥٠].

كانت السيدة نفيسة المرادية طوال حياتها موضع احترام الناس، وكان الفرنسيون يبجلونها وكانت شفاعتها عندهم مقبولة لا ترد[٥١]، وقد لقبها عبدالله مينو في كتابه الأخير للديوان «بعمدة العفائف حضرة الست نفيسة خاتون»[٥٢]. وفي صفر ١٢١٣هـ (١٧٩٨م) نادى الفرنسيون على نساء الأمراء بالأمان والسماح لهن بسكنى بيوتهن مقابل ما لديهن من متاع أزواجهن، أو المصالحة على أنفسهن، فصالحت السيدة نفيسة المرادية عن نفسها وعن أتباعها من نساء الأمراء والكشاف بمبلغ قدره مائة وعشرون ريالاً فرنسياً، وأخذت في تحصيل ذلك من نفسها وغيرها[٥٣]، وكانت الى جانب ذلك تتولى حماية من يتصل بها من نساء كبار أمراء المماليك، وتعرضت بسبب ذلك لمضايقات كثيرة، من ذلك أن الجنرال دبوي ارسل اليها في ١٢ ربيع الثاني سنة ١٢١٣هـ (١٧٩٨م) يطلب منها احضار زوجة عثمان بك الطنبرجي، فأرسلت السيدة نفيسة الى مشايخ الأزهر تستغيث بهم، فقدم اليها الشيخ محمد المهدي والشيخ موسى السرسي وحاولا عبثاً أن يثنيا الفرنسيين عن اقتيادها الى مقر دبوي، ولكنهما رافقاها اليه لمعرفة السبب في طلبها، واضطرت السيدة نفيسة الى المبيت عند الفرنسيين ليلة «وصحبتها جماعة من النساء المسلمات والنساء الافرنجيات، وكان الشيخان قد التجآ الى كتخدا الباشا والقاضي، فركبوا جميعاً الى بيت صاري عسكر الكبير، فأمر بالإفراج عنهما بعد أن أغرمت ثلاثة آلاف ريال[٥٤].

وبعد أن جلا الفرنسيون عن ارض مصر أساء اليها الباشا واتهمها بتواطؤ جاريتها منور مع المماليك العصاة والتزامها لهم بجامكية العسكر، فأرسل الباشا في طلبها، فركبت مع الوالي والمحتسب وصحبتها امرأتان، فطلعا بهن الى القلعة حيث استجوبت، وعلى الرغم من هذا الاتهام الموجه الى جاريتها فإن الباشا قام اليها وأجلها وأمرها بالجلوس، ثم أخذ يلومها على تعاونها مع المماليك العصاة، فأجابته «ان ثبت ان جاريتي قالت ذلك فأنا المأخوذ به دونها» فأخرج من جيبه ورقة وقال لها: وهذه؟ وأشار الى الورقة فقالت: «وما هذه الورقة؟ ارنيها فإني اعرف أن أقرأ لانظر ما هي» فأدخلها ثانية في جيبه ثم قالت له: «أنا بطول ما عشت بمصر وقدري معلوم عند الأكابر وخلافهم، والسلطان ورجال الدولة وحريمهم يعرفوني أكثر من معرفتي بك، ولقد مرت بنا دولة الفرنسيس الذين هم أعداء الدين، فما رأيت منهم إلاّ التكريم، وكذلك سيد محمد باشا كان يعرفني ويعرف قدري، ولم نر منه الاّ المعروف، وأما أنت فلم يوافق فعلك فعل أهل دولتك ولا غيرهم «فقال»: «ونحن أيضاً لا نفعل غير المناسب»، فقالت له : «وأي مناسبة في أخذك من بيتي بالوالي مثل ارباب الجرائم؟ «فقال: أنا أرسلته لكونه أكبر اتباعي، فارساله من باب التعظيم» ثم اعتذر اليها وأمرها بالتوجه الى بيت الشيخ السحيمي بالقلعة، وأجلسوها عنده بجماعة من العسكر، ولما شاع الخبر «تكدرت خواطر الناس لذلك، وركب القاضي ونقيب الاشراف والشيخ السادات والشيخ الامير وطلعوا الى الباشا وكلموه في أمرها..وبعد التحقيق في موضعها اطلق سراحها على أن تنزل ببيت الشيخ السادات»[٥٥]

وهناك نساء أخريات أمثال السيدة نفيسة المرادية وقفن مواقف بطولية مشرفة، منهن على سبيل المثال زوجة ابراهيم

بك التي أبى عليها وفاؤها لزوجها أن تتركه يدفن في قبر غير القبر الذي أعدته هي بنفسها له تكريماً وإعزازاً[٥٦]، وإذا كانت هذه الزوجة قد ضربت مثلاً في الوفاء لزوجها فهناك رجال كانوا أوفياء لزوجاتهم وتعلقوا بهن وضربوا المثل الأعلى للوفاء لهن، ومنهم الشيخ مرتضى الزبيدي الذي حزن على وفاة زوجته زبيدة حزناً شديداً، فدفنها عند مشهد السيدة رقيه، وأقام على قبرها ضريحاً ومقصورة وستوراً وفرشاً وقناديل، ولازم قبرها أياماً طويلة، وعمر بيتاً بجوار ضريحها عاش فيه ولما توفى دفن بقبر مجاور لقبرها[٥٧].

د- دور المرأة المصرية في مقاومة الاحتلال الفرنسي:

كانت المرأة المصرية في عهد الاحتلال الفرنسي لمصر – لضعفها وبحكم عزلتها عن الحياة العامة في معظم الأحوال - مغلوباً على أمرها، ولهذا السبب تعرضت لكثير من التعديات التي اقترنت بدخول الفرنسيين الأراضي المصرية دون أن تتمكن من الذود عن بيتها وأبنائها، ومع ذلك، فلم تكن على جميع المستويات امرأة سلبية، لا سيما بعد أن أقدمت السلطات الفرنسية على قتل السيدي محمد كريم والي الاسكندرية الذي اتهمته بالخيانة بسبب اتصاله كتابة بمراد بك يستحثه على حرب الفرنساوية ويوعده بغدر الذين هم في اسكندرية من جماعة الفرنساوية[٥٨]. ويعبر نقولا الترك عما اثاره ذلك من حزن عميق عند طبقات الشعب بقوله: «وكان حزن عظيم عن أهالي مصر لأنه رجل شريف من الأشراف، ومن ذلك الوقت فزّت قلوب الرعايا الاسلام من الفرنساوية وأخذوا يضمروا لضماير الخبيثة»، ومن العوامل المساعدة على تزايد نشاط حركة المقاومة النسائية أن الفرنسيين افسدوا الاخلاق بتشجيعهم للهو والعبث واجتذابهم للنساء الغوازي اشاعة لحياة المجون، ومنها أيضاً أن أمراء المماليك كانوا يكتبون لأهل مصر يحثونهم على الثورة ويعدونهم بالحضور عن قريب[٥٩]، «فمن هذه المكاتبات بدت أهالي الأرض تبدى العصاوة على الفرنساوية ولا سيما إذ فهموا جيداً أن الانكليز قفل عليهم البوغير بأقفال انكليزية انقطع أملهم من امداد يأتيهم من بلادهم[٦٠]».

لم تتقاعس المرأة المصرية عن أداء واجبها الوطني، وأبدت لمقاومة الوجود الفرنسي كثيراً من ضروب الشجاعة والإقدام: فمنذ بداية الاحتلال الفرنسي للاسكندرية أخذت نساء هذه المدينة على عاتقها مقاومة الاحتلال الاجنبي، واتخذت المقاومة النسائية صوراً متعددة، من ذلك أن أهالي الاسكندرية كانوا يطلقون الرصاص من بيوتهم على الجنود الفرنسيين، ويروي بورين، السكرتير الخاص لبونابرت «أنه (أي بونابرت) دخل المدينة من حارة لا تكاد لضيقها تسع اثنين يمران جنباً الى جنب، وكنت ارافقه في سيره، فأوقفتنا طلقات الرصاص صوبها علينا رجل وامرأة من إحدى النوافذ واستمرا يطلقان الرصاص فتقدم جنود الحرب وهاجموا المنزل برصاص بنادقهم وقتلوا الرجل والمرأة[٦١]».

ومن مظاهر المقاومة الشعبية أن الفرنسيين بطبعهم كانوا يميلون الى اللهو ولا يحترمون التقاليد المحافظة، فظنوا «ذواتهم أنهم في مدينة باريس، فكانوا دائماً في وسط المدينة يدورون من غير أسلحة ونساء مصر خوارجها كثيرين، فكانوا بهذه الواسطة يدخلوهم الى بيوتهم ويهلكوهم، وبهذه الواسطة فقد منهم ناس كثيرين»[٦٢]. ويذكر نقولا الترك أن نساء الاسكندرية «كن يأخذن الفرنساوية الى منازلهم الزامات ويقتلونهم ويرمونهم في الأبيار، ويخفون منهم الآثار»[٦٣] بينما يأتي الجبرتي بمثل يعبر بوضوح عن العمل الوطني المتستر وراء الخدم فيذكر أن الفرنسيين قتلوا في ٨ رجب سنة ١٢١٥هـ (١٨٠٠م) غلاماً وجارية بباب الشعرية ونودي عليهما: «هذا جزاء من خان وغش وسعى بالفساد، فيقال أنهما كانا يخدمان فرنساوياً فدسا له سما وقتلاه»[٦٤].

ومن الجدير بالذكر أن تعدي الفرنسيين على حرمات الناس رغم صدور اوامر كليبر بالنهي عن ذلك، كان له أعظم الأثر في اثارة مشاعر أهل الاسكندرية، ولهذا عمد الأهالي الى قتل من ينفردوا به من أجنادهم: ففي ١٣ يوليو عام ١٧٩٨ قتل أحد جنود المدفعية البحرية ووجدت جثته مطروحة في الطريق، وفي نفس الوقت دفع بعض عناصر المقاومة الشعبية بخادم فرنسي لأحد ضباطهم في البحر فمات غريقاً، وتحفز الأهالي للثورة، فاضطر كليبر الى معالجة الموقف بالحكمة، فأصدر عقب الحادثة منشوراً وجهه الى عساكره، من بين

بنوده ما يلي: «كل من يدخل مسكن أحد المسلمين في مكان النساء يعد محرضاً على القتل والاخلال بالنظام ويحكم عليه بالإعدام»[٦٥].

وكانت بعض نساء الطبقة العليا يخفين في بيوتهن أنواعاً عديدة من الاسلحة التي يتزود بها المماليك في مقاومتهم للفرنسيين بالصعيد، ومنهن زوجة رضوان كاشف التي كانت قد صالحت على نفسها وبيتها بألف وثلاثمائة ريال، وأخذت من السلطات الفرنسية ايصالاً بذلك الصقته على باب دارها بباب الشعرية، وكانت هذه المرأة الفاضلة تخفي في بيتها كمية كبيرة من الاسلحة وبعض ملابس مملوكية، ويبدو أن احدى جارياتها وشت بها لدى السلطات الفرنسية، ففوجئت في ٢ ربيع الأول سنة ١٢١٣هـ بعدد من عساكر الفرنسيين يطرقون باب بيتها، وقالوا لها: «بلغ صاري عسكراً أن عندك اسلحة وملابس للمماليك» فأنكرت ذلك، فقالوا: لها لازم من التفتيش، فقالت: دونكم، فطلعوا الى مكان وفتحوا مخبأة، فوجدوا بها ٢٤ سروالاً ويلكات وأمتعة وغير ذلك، ووجدوا في اسفها مخبأة أخرى بها عدة كثيرة من الأسلحة والبنادق والطبنجات وصناديق بارود وغير ذلك، فاستخرجوا جميع ذلك، ثم نزلوا الى تحت السلالم، وفجروا الآرض وأخرجوا منها دراهم كثيرة وحجاب ذهب في داخله دنانير، ثم أنزلوا صاحبة الدار ومعها جارية بيضاء وأخذوهما مع الجواري السود، وذهبوا بهم فأقمن عندهم ثلاثة أيام، ونهبوا ما وجدوه بالدار من فرش وأمتعة، وصادر الفرنسيون ما وجدوه في دارها من أمتعة وملابس وسلاح ومال، وأغرموها أربعة آلاف ريال دفعتها ثم أطلقوا سراحها[٦٦].

وثمة حادثة أخرى تعبر عن مقاومة النساء في مصر للاعتداءات الفرنسية، فقد كانت السلطات الفرنسية قد اصدرت امراً بمنع الأهالي من دفن موتاهم، بالمقابر القريبة من المساكن، مثل مقبرتي الازبكية والرويعي خوفاً من انتشار الطاعون، وسمحت لهم بالدفن في القرافات البعيدة، ولكن جماعة من «القواسة» الذين يخدمون الجيش الفرنسي أساءوا التصرف، فقاموا في ١٦ ربيع الثاني من نفس السنة ١٢١٣هـ بهدم التراكيب المبينة على المقابر بتربة الازبكية، وسووها بالأرض، فانتشر الخبر في المناطق القريبة، فخرج أصحاب المقابر بتلك المنطقة من كل حدب، «وأكثرهم النساء الساكنات بحارات المدابغ وباب اللوق وكوم الشيخ سلامة والفوالة والمناصرة وقنطرة الأمير حسين وقلعة الكلاب، إلى أن صاروا كالجراد المنتشر، ولهم صياح وضجيج، واجتمعوا بالأزبكية، ووقفوا تحت بيت صاري عسكر، فنزل لهم المترجمون واعتذروا بأن صاري العسكر لا علم له بذلك الهدم، ولم يأمر به، وإنما أمر بمنع الدفن فقط[٦٧]، وصدر الأمر برفع الهدم، وهدأت ثورة النساء.

وعندما احتدمت ثورة القاهرة في اكتوبر سنة ١٧٩٨ وقفت النساء على أسطح المنازل وعند طيقان البيوت يطلقن بأعلى اصواتهم صيحات مدوية تعبيراً عن مشاعر الغضب على الفرنسيين، فكانت اصواتهن تبعث في سكان القاهرة مزيداً من الرغبة في التحرك والانضمام الى ركب الثوار[٦٨]، وقد انتقم الفرنسيون من نساء مصر بعد أن انتهوا من اخماد الثورة، ويكشف دي بوربيني في مذكراته عن هذه الحقيقة، فيذكر أن عدداً من المقبوض عليهم كانوا يساقون الى القلعة، وكان في كل مساء يتولى بنفسه كتابة أوامر الإعدام، وكانت جثثهم توضع في زكائب وتغرق في النيل، وكان من بين هؤلاء نساء كثيرات نفذ فيهن أوامر الإعدام الليلية[٦٩].

ومن مظاهر انتقام الفرنسيين من أهالي مصر، أنهم دخلوا بولاق واذرعوا في أهلها بسيوفهم، وأسروا جميع النساء والأطفال، «ونصبوا لهم سوقاً لبيع الأسرى، والدلال يبيع وينادي بهم: هذا بعشرين وهذا بخمسين»(٧٠). وقد امتدت موجة الانتقام من النساء الوطنيات الى الريف.

وفي المصادر المعاصرة امثلة عديدة عن نساء من مختلف طبقات الشعب قاومن الفرنسيين واستثرن الرجال على الفتك بهم، فبعد أن استولى الجنرال فيال على دمياط، وخرج اليه العلماء وسلموه المدينة في صفر سنة ١٢١٣هـ، ضبط مدينة دمياط، وأقبل اليه الشيخ حسن طوبار شيخ اقليم المنزلة، فخلع عليه الجنرال الفرنسي وتمهدت دمياط وما حولها للحكم الفرنسي، ولكن أحمد باشا الجزار حاكم عكا كتب الى الشيخ طوبار رسائل يستثيره على الفرنسيين ويعده مقابل ذلك بأطيب

الوعود، كذلك تلقى طوبار رسائل بنفس المعنى من ابراهيم بك وعندئذٍ تحركت غيرته على بلده، وأخذ يفصح عن عدائه للفرنسيين، ويذكر نقولا الترك أن امرأة مسلمة عجوز من دمياط اتجهت الى القرية الواقعة عند الميناء وأبلغت أهلها أن أهالي دمياط هاجموا الفرنسيين الذين يحتلونها وقتلوهم عن آخرهم، وأخذت ترغبهم وتستحثم على الوثوب بالحامية الفرنسية المرابطة بقريتهم، وما زالت تحرضهم على ذلك حتى اشتدت حيمتهم، فهاجموا الحامية الفرنسية بالقرية وعدتها خمسة من المقاتلين فذبحوهم، ثم حاولوا الفتك بحامية القلعة الغربية[٧١]، ولكن هؤلاء استخدموا المدافع في رد الهجوم، ونستدل من هذه الحادثة على أن المقاومة النسائية ضد الفرنسيين كانت ذات أثر فعال، وأنها لم تكن وقفاً على الشباب وإنما شاركت فيها حتى العجائز من النساء.

ويأتي المارديني بمثل صارخ عن الدور البطولي الذي قامت به نساء عدة قرى بالمنوفية في مقاومة الغزو الفرنسي، منها قرية عمروس، وقرية يقال لها تت، وتقع بالقرب من مدينة منوف، وبلدة منية العطار، فقد قاتلت نساء هذه القرى الفرنسيين عند دخولهم لها، فانتقم الفرنسيون منهم فيما بعد، فكانوا يتسللون ليلاً الى هذه القرى ويقتلون من بها من النساء والأطفال[٧٢].

وفي الصعيد لقي الفرنسيون من أهلها مقاومة عنيفة، فعندما أراد القائد الفرنسي بليار احتلال جزيرة فيلة «علت صيحات الأهالي وراحت النسوة ينشدن أناشيد المعركة، ويثرن الغبار، ثم أعطين اشارة القتال» ولكن بليار أمر بإعداد اطواف اقتحم بها الجزيرة ودهم النساء، ويذكر دينون أن أهالي الجزيرة رجالاً ونساءاً وأطفالاً ألقوا بأنفسهم في النهر، وعمدت النساء الى التخلص من بناتهم وذلك بإغراقهن، فيقول: «وكنت ترى النساء الثابتات على فطرتهن الوحشية يغرقن الأطفال الذين لا يستطعن حملهم معهن ويشوهن بناتهن حماية لهن من الفرنسيين»[٧٣].

ومن الأمثلة الدالة على وقوف المرأة المصرية الى جانب مواطنيها، أن امرأة انقذت رهطاً من النجارين والبنائين من تهمة قتل كليبر، فبعد أن طعن سلميان الحلبي كليبر بخنجره، سأل الوزيز داماس كليبر قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة عن القاتل، «فرفع يده وأومأ باصبعه، فالمحل الذي أومأ باصبعه عليه كانت هناك النجارين والبنائين الذين كانوا يشتغلون في البيت، فحالا ارمو عليهم القبض، فصاحت عليهم امرأة من أحد الشبابيك التي كانت تطل على الجنينة وقالت لهم: «ان النجارين بريين والقاتل دخل الجنينة فتخبئ، كون الامرأة نظرته، فمسكه الفسيال»[٧٤].

من هذه الأمثلة العديدة يتبين لنا دور المرأة البطولي في مقاومة الفرنسيين، وقد أثبتت المرأة المصرية دائماً أنها على مستوى المسؤولية حتى بعد خروج الفرنسيين من مصر، وقد بلغت بهن الجرأة والشجاعة الى حد التظاهر ضد البرديسي، وهو أمر لم يفعله الرجال أنفسهم، فعندما ضاق الناس بسبب الغلاء وما قرر عليهم من مغارم وضرائب، ضج الفقراء والعامة وعلى الأخص النساء، فخرجت طوائفهن في ذي القعدة سنة ١٢١٨هـ (١٨٠٣م) يصرخن وبأيديهن الدفوف «يندبن وينعين ويقلن كلاماً على الأمراء مثل قولهن (ايش ناخذ من تفليسي يا برديسي)، وصبغن أيديهن بالنيلة وغير ذلك، فاقتدى بهن خلافهن، وخرجوا أيضاً ومعهم طبول وميارق، وأغلقوا الدكاكين، وحضر الجمع الكثير الى الجامع الأزهر وذهبوا الى المشايخ، فركبوا معهم الى الأمراء، ورجعوا ينادون بابطالها»[٧٥].

التخلي عن التقاليد في ظل التحرر المزعوم للمرأة

أ- التشجيع على الانحراف:

عمل الفرنسيون منذ بداية سيطرتهم على مصر على الإفادة من (الخوارج) في الطبقة الدنيا من المجتمع المصري، لعاملين: الأول بث المفاسد في المجتمع المصري والإطاحة بالمثل الاخلاقية والتقاليد الاسلامية التي ألفها المصريون وسادت في البلاد منذ عهود بعيدة[٧٦]، وكانت مصدراً يستمد منه المصريون روح الصمود والنضال، والثاني اشاعة جو من المرح لاجنادهم الذين انقطعت الصلة بينهم وبين وطنهم عن طريق العناصر المحلية الخارجة عن التقاليد، وكانت أولى خطوات الفرنسيين للتشجيع على الانحراف أنهم أباحوا منذ أن دخلوا القاهرة لنسائهم اللواتي رافقن الحملة، ويقدر عددهم بنحو ثلاثمائة سيدة[٧٧] التبرج والخروج عن قواعد الحشمة والحياء دون أن

يأخذوا في الاعتبار واحترام المبادئ العامة للاسلام والتقاليد الاجتماعية التي ألفها المصريون، وعاشت هذه النساء الفرنسيات في مصر حياة متحررة من قيود المجتمع الاسلامي المحافظ، فمن تبرج لم يألفه المصريون من قبل وسلوك لم تقره العامة والحرافيش وفوضى اخلاقية لم يشهدها المصريون من قبل، وكان من الطبيعي أن تقتدي نساء الطبقة الدنيا من المجتمع المصري بهن وأعني بهذه الطبقة الرقيق والغوازي والخادمات، وتحاول محاكاتهم تقرباً الى العسكريين الفرنسيين وتجريدهم من أموالهم، أو تحرراً من قيود المجتمع المصري المتزمت في نظر الفرنسيين وهي قيود فرضت عليهم قضاء أجمل سني شبابهن وراء المشربيات[٧٨]، والمغلوب على حد قول ابن خلدون «مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده»[٧٩]، وقد وصف الجبرتي الأثر العميق الذي تركته النساء الفرنسيات المتبرجات في نفوس نساء الطبقة الدنيا في مصر فقال: «لما حضر الفرنسيس الى مصر ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون في الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه، لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة، ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميري والمزركشات المصبوغة، ويركبن الخيول والحمير، ويسوقونها سوقاً عنيفاً مع الضحك والقهقهه، ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة. فمالت اليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل... فتداخلن معهم لخضوعهم للنساء وبذل الأموال لهن، وكان ذلك التداخل أولاً مع بعض احتشام وخشية عار ومبالغة في اخفائه»[٨٠]، ثم تبعت هذه المرحلة الأولية مرحلة ثانية أكثر خطورة، استهدف الفرنسيون خلالها افساد فتيات الطبقة الوسطى، يقول الجبرتي: «فلما وقعت الفتنة الأخيرة بمصر وحاربت الفرنسيس بولاق وفتكوا في أهلها، وغنموا أموالها، وأخذوا ما استحسنوه من النساء والبنات، وصرن مأسورات عندهم[٨١]. فزيوهن زي نسائهم، وأجروهن على طريقتهم في كامل الأحوال، فخلع اكثرهن نقاب الحياء بالكلية، وتداخل مع اولئك المأسورات غيرهن من النساء..»[٨٢] ومن الغريب أن ظاهرة سبي النساء التي كانت وصمة في التاريخ القديم والوسيط كانت أمراً عادياً بين الفرنسيين أنفسهم الذين كانوا يتشدقون بالقيم الحضارية للإنسان، وينادون منذ قيام ثورتهم بشعار الحرية والعدالة والمساواة.

وأياً ما كان الأمر، فقد اجتذبت السياسة الفرنسية في الإباحة الأخلاقية سواء عن طريق الرضا أو الإكراه الجواري والإماء، فعمد بعض الجواري السود الى الفرار من اسار الرق في بيوت ساداتهم الى معسكرات الفرنسيين[٨٣] «أفواجاً، فرادى وأزواجا، فنططن الحيطان، وتسلقن اليهم من الطيقان، ودلوهم على مخبآت أسيادهم وخبايا أموالهم ومتاعهم وغير ذلك»[٨٤]، ولم يكتف الفرنسيون بذلك بل نجدهم يسطون على قصور الأمراء فيأخذون الجواري البيض والسود والجيوش من تلك البيوت ويسوقوهم الى معسكراتهم حيث يلبسوهن الثياب الافرنجية فيخرجن معهم في محفات، وكان القادة يتوزعون هذه الجواري الترك والسود، وقد اهديت الى الجنرال ديزيه جارية حبشية اسمها سارة في الخامسة عشرة من عمرها كانت ترافقه في رحلاته، وكان لديه جارية أخرى اسمها فاطمة فارعة الطول حسناء[٨٥]، ويعبر نقولا الترك عن اكتظاظ بيوت الفرنسيين ببنات الاسلام من الجواري البيض والسود بقوله: «وكانت بيوتهم (أي بيوت الفرنسيين) مشحونة من بنات الاسلام ونسائهم من الجواري البيض الذين كانوا في بيوت الغز المماليك، وأما الجواري السود فكانوا بزيادة، وكانوا يلبسونهم كسم بلاد الافرنج ويركبوهم الخيل، ويدوروا في المدينة مكشوفين الوجوه جهاراً. وكانت حرية مطلقة الى جنس النساء والبنات، وخرجت النساء من بيوتهم خروجاً عظيماً لكون أن الجنس الفرنساوي له مداخله وموانسه ومسايرة لجنس النسا بنوع آخر عن باقي الجنوس الموجودة في العالم بأسره»[٨٦].

على هذا يمكننا أن نميز ثلاثة مجموعات من النساء: فريق انحرفن من البداية تحت اغراء المال والتحرر من القيود، وفريق تعرض لهن الفرنسيون وحملوهن كرهاً الى السير في هذه الطريقة المعوجة، وفريق جوار الغز[٨٧] كن قد فقدن رجالهن في المعارك وأصبحن سبياً للفرنسيين، وعلى أية حال فقد كانت النساء المصريات اللائي خرجن على التقاليد ضحايا للفرنسيين، وهكذا أدت موجة اللهو التي شجع عليها

الفرنسيون باسم التحرر من قيود التقاليد الرجعية الى ظهور طبقة تجردت من المثل الأخلاقية، يرفضها السواد الأعظم من المسلمين في مصر، ويلفظها المجتمع المصري المحافظ باستثناء أحط طبقاته الذين أفادوا منها، وفي ذلك يقول نقولا الترك: «ولكن في زمن الفرنساوية كانت الناس الدون في أحسن حال، من بياعين وشيالين وأرباب صنايع وحمير وسيّاس.. وبالنتيجة الاناس الأدنيا كانوا منشرحين وسببه اطلاق الحرية[٨٨].

ولقد حاول الفرنسيون أن يجعلوا من القاهرة مدينة أوروبية تضاهي مدينة باريس في مراقصها، وحاناتها ومقاهيها ونواديها ترفيهاً عن جنودهم المنقطعين عن وطنهم، وتخفيفاً لسأمتهم، وقد وفقوا على الأقل في تحويل الازبكية الى حي شبيه بأحياء باريس[٨٩]، ولهذا استاء شيوخ مصر ورجالها المحافظون من سياسة الفرنسيين الشائنة في افساد المجتمع المصري، لا سيما أنهم كانوا يرون «نسائهم وبناتهم مكشوفين الوجوه، مملوكين من الافرنج جهاراً، ماشيين معهم في الطريق، نايمين قايمين في بيوتهم، فكانوا يكادوا أن يموتوا من هذه المناظرة، وناهيك تلك الخمامير التي اشتهرت في كامل أسواق المدينة جهاراً حتى وفي بعض الجوامع أيضاً. هذه الرؤيا والمنظر كانت تجعل الاسلام يتنفسون الصعداء، ويطلبون الموت في كل ساعة[٩٠]، ومما لا شك فيه أن هذا السخط كان من بين العوامل المباشرة في تفجير الثورة الشعبية على الوجود الفرنسي.

ب- الملاهي والمنتديات الفرنسية ودورها في بث سموم الفساد الاخلاقي:

يذكر الجبرتي أن الفرنسيين[٩١] أحدثوا في شهر جمادى سنة ١٢١٣هـ (١٧٩٨) «بغيط النوبي المجاور للأزبكية ابنية على هيئة مخصوصة منتزهة يجتمع بها النساء والرجال للهو في أوقات مخصوصة وجعلوا على كل من يدخل اليه قدراً مخصوصاً يدفعه أو يكون مأذوناً وبيده ورقة»[٩٢]، هذه الأبنية التي ذكرها الجبرتي كانت قريبة الشبه بنادي للقوات المسلحة، اذن بونابرت لدارجفيل زميل دراسته القديم بإقامته، وأطلق عليه اسم التيفولي تذكرة بملهى باريسي شعبي يحمل هذا الاسم، وكان النادي المذكور يوفر لرواده جميع وسائل الترفيه، فمن فرقة للموسيقى الراقصة وموائد للبليارد وغيرها من اللعبات، ومكتبة، وصحيفتين كان يصدرهما الجيش، وحديقة ملاهي. ومقهى لاحتساء القهوة وتناول الطعام الأوروبي[٩٣]، كذلك اسس الفرنسيون قريباً من هذا الموضع ما يعرف «بالكمري» ولعله «الكاباريه» وكان عبارة «عن محل يجتمعون به كل عشرة ليال ليلة واحدة يتفرجون به على ملاعيب يلعبها جماعة منهم بقصد التسلي والملاهي، مقدار اربع ساعات من الليل، وذلك بلغتهم، ولا يدخل اليه أحد إلاّ بورقة معلومة وهيئة مخصوصة»[٩٤].

هذا وقد تحولت بعض البيوت القاهرية في فترة الاحتلال الفرنسي الى أماكن عامة للهو والتسلية، كما تحولت بعض المقاهي في الأحياء الشعبية الى مراقص تتناوب فيها الراقصات[٩٥]، كما تعددت الخمايراي «الحانات»، ومن بين المقاهي التي افتتحت في القاهرة مقهى فتحه أحد العبيد المالطيين، وكان يجمع الناس فيها للجلوس والسهر حصة من الليل[٩٦]، بالإضافة الى هذه الدور المخصصة للهو والرقص والشراب، أقام الفرنسيون مسرحاً كان يتردد عليه القادة الفرنسيون ومعهم نساؤهم وجواريهم الشركسيات بالإضافة الى كثير من السود الحبشيات[٩٧].

جـ- استغلال الاحتفالات القومية والدينية لبث الفساد الأخلاقي:

في هذا المبنى المعروف بالتيفولي ويسميه الجبرتي «بدار الخلاعة»، احتفل الفرنسيون بعيد رأس السنة الميلادية، فتجمعوا فيها «نساءً ورجالاً وتراقصوا وتسابقوا ووقدوا سراجاً وشموعاً وغير ذلك»[٩٨]، كما احتفلوا عند بركة الأزبكية.

كذلك احتفل الفرنسيون لأول مرة منذ نزولهم في مصر بذكرى قيام الجمهورية في فرنسا في بركة الأزبكية، عند ملتقى النيل بالخليج، وكانوا قد بدأوا يستغلون البركة في اقامة جزيرة وسطى وذلك بردم كميات كبيرة من الأتربة بارتفاع قامة ونصبوا في وسط الجزيرة المذكورة صارياً شديداً الارتفاع يقوم على قاعدة نقشت عليها رسوم، وأقاموا قبالة باب الهواء بالبركة المذكورة[٩٩] بوابة كبيرة من الخشب كسيت بنسيج

مدهون بمثل لون الصاري، وجعلوا على البوابة افريزاً طلي باللون الأبيض، ورسمت عليه رسوم سوداء تمثل انتصارات الفرنسيين على المماليك، وأقاموا بموازاة هذه البوابة عند قنطرة الدكة[١٠٠]، بالجانب الآخر من البركة بوابة أخرى لحرق البارود، ثم نصبوا على مسافات منتظمة أعمدة خشبية تمتد من تلك البوابة الى البوابة الأولى، يبلغ عددها ١٠٥ عموداً تتسع لمحيط البركة، مدت بينها حبال على شكل أقواس وعلق عليها صفان من القناديل، وعلى رأس كل عمود منها علم من الأعلام الفرنسية الملونة[١٠١].

كذلك احتفل بعيد قيام الجمهورية كانت النساء الفرنسيات يراقصن الرجال..

كذلك احتفل في الأزبكية بعود بونابرت من حملته على عكا، ودخل الموكب من باب النصر تتقدمه الطبول والمزامير والخيول والعربات، ثم نزل بونابرت بداره حيث تجمع «ارباب الملاهي والبهالوين وطوائف الملاعبين والحواة والقرادين، والنساء الراقصات.. واستمروا على ذلك ثلاثة أيام وفي كل يوم من تلك الأيام يعملون شنكاً وحراقات ومدافع وصواريخ»[١٠٢].

وأهم الاحتفالات التي استغلها الفرنسيون للهو ونشر الفساد الاحتفال بوفاء النيل والاحتفال بالمولد النبوي الشريف.

فقد جرت العادة عن الاحتفال بعيد وفاء النيل أن يخرج أهل مصر الاقباط والأروام من أهل الشام الى بولاق ومصر العتيقة الروضة، ويكترون المراكب النيلية ومعهم الآلات والمغاني، ويذكر الجبرتي أنهم خرجوا في ربيع أول سنة ١٢١٤هـ (١٧٩٩م) «وصحبتهم نساؤهم.. وشرابهم، وتجاهروا بكل قبيح من الضحك والسخرية والكفريات ومحاكاة المسلمين، وبعضهم تزيا بزي أمراء مصر، وليس سلاحاً، وتشبه بهم وحاكى الفاظهم على سبيل الاستهزاء والسخرية وغير ذلك»، ويضيف الجبرتي قائلاً أنه جرى في تلك الليلة بالنهر وسواحله من التجاهر بالمعاصي ما لا يوصف وأن بعض غوغاء العامة وأسافل الناس ورعاعهم سلكوا مسالك مخجلة دون أن ينكر ذلك أحد من الناس، وكان كل شخص يفعل ما حلا له وما خطر بباله[١٠٣]، وأعيد الاحتفال بوفاء النيل في العام التالي، وفيه أسرف المحتفلون في اللهو وقد تعاطى بعضهم الحشيشة واحتسى بعضهم الخمور، ويصف الجبرتي ذلك بقوله: «وقع عند ذلك من تبرج النساء باختلاطهن بالفرنسيس ومصاحبتهم لهن في المراكب، والرقص والغناء والشرب في النهار والليل في الفوانيس والشموع الموقدة، وعليهم الملابس الفاخرة والحلي والجواهر المرصعة، وصحبتهم آلات الطرب، وملاحوا السفن يكثرن من الهزل والمجون، ويتجاوبون برفع الصوت في تحريك المقاديف بسخيف موضوعاتهم، وكنائف مطبوعاتهم، وخصوصاً إذا دبت الحشيشة في رؤوسهم، وتحكمت في عقولهم، فيصرخون ويطبلون ويرقصون ويزمرون»[١٠٤].

أما الاحتفال بعيد المولد النبوي الشريف فكان من الاحتفالات التي رخص بها الفرنسيون بعد أن أوقفوا الاحتفال بالمولد لفترة من الوقت بسبب ما كان يجري فيها من مفاسد، فلما ثار أهل القاهرة ثورتهم الأولى، واخفقت حملة بونابرت على الشام، اذن الفرنسيون للأهالي الاحتفال على هواهم ببعض الموالد ورخص الفرنساوية ذلك للناس لما رأوا فيه من الخروج عن الشرائع، واجتماع النساء، والتلاهي وفعل المحرمات أعيد هذا المولد «يقصد مولد الشيخ علي البكري»، مع جملة ما أعيد»[١٠٥]. ويصف ديتروا ما كان يجري في الاحتفال بالمولد النبوي، فيقول: «ان الميادين العامة حافلة بالمعارض والفرج الصغيرة، فترى فيها الدببة والقردة المدربة، والمغنين والمغنيات ينشدون أدواراً يجاوبهم فيها آخرون، والنسوة يغنين الاشعار، والحواة يأمرون الثعابين فتختفي..»[١٠٦].

د- تغرير الفرنسيين ببعض الفتيات والنساء عن طريق الزواج الشرعي بالاسم:

أقبل كثير من عساكر الفرنسيين على خطبة بنات الأعيان والزواج منهن تحت ستار من الشرعية الاسمية، ولم تكن هذه الفتيات تزهدن في الزواج من الفرنسيين «رغبة في سلطانهم ونوالهم» وكان يكفي أن ينطق الفرنسي بالشهادتين دون أن يكون قلبه عامراً بالإيمان بهذا الدين حتى يتم الزواج، وما أن يتم الزواج حتى تتخذ هذه السيدات المسلمات أزياء

الفرنسيات[١٠٧].

غير أن هذا الزواج المختلط لم يكن يستند على أسس شرعية بالمعنى الصحيح لأن مجرد النطق بالشهادتين دون فهم كامل وصحيح لمبادئ الاسلام وأركانه لا يكفي للترخيص للمتقدم شرعاً كما أن الزواج من رجل أعجمي لم يشهر اسلامه عن ايمان صادق كان يعرض الزوجة المسلمة بعد الزواج الى ارتكاب المعاصي مجاراة لزوجها الفرنسي، فكان عليها أن تقلده في الشراب وفي الزي وفي اللهو وكثيراً ما كان الزوج بعد زواجه من المسلمة يرتد الى دينه المسيحي، وقد حدث مثل ذلك في أحوال كثيرة من ذلك ما ذكره المارديني وكان معاصراً للحملة الفرنسية إذ يقول: «وكان بمدينة منوف العلا قاض يسمى عابدين سلك مسلكهم حتى أنه حلل امرأة مسلمة لكافر من الفرنسيس، ذلك أنه قال له: «أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله» وعممه بعمامة بيضاء وعقد زواجه، ثم ارتد الكافر»[١٠٨]. ولهذا السبب اعتبر المحافظون من المسلمين هذا النوع من الزواج ضرباً من الكفر، وقد صور نقولا الترك مظاهر الأسى العميق التي كانت تكسو وجوه المصريين المحافظين عندما يروا «نساءهم وبناتهم مكشوفين الوجوه، مملوكين من الافرنج جهاراً، ماشيين معهم في الطريق، نايمين قايمين في بيوتهم»[١٠٩].

وممن تزوج فتيات مسلمات، الحاكم الفرنسي لمنطقة الأزهر، تزوج امرأة «من أولاد البلد المخلوعين، وكان يقضي سهراته معها في مقهى افتتح في هذا الحي الشعبي حيث كانت تحدث أعمال غير لائقة بقصد التسلي»[١١٠]، كذلك تزوجت السيدة هوى زوجة اسماعيل كاشف المعروف بالشامي من نقولا القبطان، وأقامت معه بالقلعة، ثم تحايلت على الفرار بمتاعها عندما اضطربت أحوال الفرنسيين في مصر في عهد مينو، وأصبح جلاؤهم عن الأراضي المصرية حقيقة ماثلة، وتمكنت هوى بالفعل من النزول من القلعة على حمار، وعند أحد المنعطفات في الطريق تركت الحمار ودفعت اجرته واختفت داخل الأزقة، فطلبها الفرنسيون، وبثوا العيون للتفتيش عنها، وعاقبوا سكان الحارة التي اختفت فيها، كما عاقبوا المكارية الذين نقلوها من القلعة ومنعوهم من السروح، فلما جلا الفرنسيون عن مصر، ودخلت قوات العثمانيين، قدم زوجها في جملة من قدم الى مصر، فأمنها وطمأنها، وأقامت معه أياماً «ثم استأذن الوزير في قتلها، فأذنه، فخنقها في ذلك اليوم ومعها جاريتها البيضاء أم ولد، وقتلوا أيضاً امرأتين من أشباههن»[١١١]، كذلك أقدم القائد الفرنسي جاك مينو على الزواج من امرأة مسلمة شريفة من مدينة رشيد تدعي زبيدة[١١٢]، بعد أن اعتنق الاسلام وتلقب بعبد الله منو[١١٣]، وقد انجب مينو من زوجته الرشيدية[١١٤]، ولداً في شعبان سنة ١٢١٥ هـ سماء سليمان مراد[١١٥]. ومن المعروف أن زبيدة كانت ابنة صاحب حمام من رشيد[١١٦]، وقد استحضرها مينو من بلدها قبل أن تجلو قواته نهائياً من مصر، فقدمت في أول سنة ١٢١٦هـ (١٨٠١م) بصحبة اخيها السيد علي الرشيدي أحد أعضاء الديوان، وأقامت ببيت الألفي بالقاهرة مقر صاري عسكر الفرنسيين، ثم صعدت هي وأخوها الى القلعة[١١٧].

وممن غرر بهن من بنات الأشراف زينب بنت الشيخ البكري، ولم تكن قد تجاوزت الستة عشر ربيعاً عندما عرفها بونابرت. ويتساءل كرستوفر هيرولد عن السبب الذي دعا اباها الشيخ يغضى عن هذه الصلة، ثم يجيب على نفسه بأنه ربما كان مشغولاً عن مراقبة ابنته مراقبة مشددة بالجري وراء مملوكه الذي يتنازع عليه اغا الانكشارية[١١٨]. ولقد عرف زينب بفتاة القائد المصرية، والظاهر أن صلتها ببنونابرت كانت قصيرة الأمد، فلم يلبث أن أحب امرأة فرنسية هي بولين فوريه، في غياب زوجته جوزفين بوهارنيه[١١٩]. والظاهر أن زينب البكرية كانت تتبرج مع فرنسيين آخرين[١٢٠]، ولا يمكن اعفاء بونابرت وتبرئة ساحته من هذه الجريمة الشنعاء التي ارتكبها في حق هذه الفتاة البسيطة، ولا شك أنها كانت ضحية تغرير نابليون بها، فبعد أن جلا الفرنسيون عن مصر، استقدمها الوزير في ربيع أول سنة ١٢١٦هـ، فقدمت بصحبة أبيها، «فسألوها عما كانت تفعله، فقالت: اني تبت من ذلك، فقدمت بصحبة أبيها، «فسألوها عما كانت تفعله، فقالت: اني تبت من ذلك، فقالوا لوالدها: ما تقول أنت؟ قال: اقول اني بريء منها فكسروا رقبتها»[١٢١].

هوامش البحث

١- عبد العزيز الشناوي، دور الأزهر في الحفاظ على الطابع العربي لمصر ابان الحكم العثماني، من أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة (مارس، ابريل ١٩٦٩)، الجزء الثاني، القاهرة، ١٩٧١، ص٦١٨،

٢- عبد عبد العزيز عمر، دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، القاهرة، ١٩٦٧، ص٤٥.

٣- محمد أنيس والسيد رجب حراز، الشرق العربي في التاريخ الحديث والمعاصر القاهرة ١٩٦٧، ص٤٥.

4- Stafnford J. Sahw, Landholding and Land-Tax revenues Edited by P.M. Holt on; "Political and social Changes in Modern Egypt: Historical Studies From The Ottoman Conguest to the United Arab Repuplic" London, 1968, PP. 91-103.

٥- محمد أننيس والسيد حراز، المرجع السابق، ص ٥٣-٥٦.

٦- نفس المرجع، ص٤٦.

٧- عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ص ٦٧٨-٦٨٧.

٨- محمد عبد المنعم السيد الراقد، الغزو العثماني لمصر ونتائجه على الوطن العربي، الاسكندرية، ١٩٦٨، ص ٢١٠، ٢٥٦. لم يلبث المجتمع المصري في العصر العثماني أن اصطبغ بالجمود والانغلاق نتيجة للعزلة التي فرضتها عليه السلطة العثمانية الحاكمة، وترتب على ذلك تدهور واضح في كل مظاهر الحياة في المجتمع المصري اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً (راجع: عمر عبد العزيز، مجتمع الاسكندرية في العصر العثماني: مقال في «مجتمع الاسكندرية، عبر العصور» الاسكندرية ١٩٧٣ ص (٣٢).

٩- عمر عبد العزيز، دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، ١٤٠.

١٠- من الممكن أن نلتمس لمعاصري المرأة المصرية العذر في هذا التحامل إذا وضعنا في الاعتبار ظروف العصر سياسياً واجتماعياً وثقافياً، ومن الواضح أن عزلة مصر عن العالم الخارجي واجتراز المجتمع تقاليده البالية العتيقة قد ساعد على نظرة المعاصرين المتحاملة على المرأة المصرية.

١١- علي ابراهيم طرخان، مصر في عصر دولة سلاطين دولة المماليك الجراكسة، القاهرة، ١٩٦٠، ص ٢٤٩.

١٢- سعيد عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة. ١٩٦٢، ص١١ وما بعدها.

١٣- سعيد عاشور، نفس المرجع، الصفحات من ٢٨ الى ٥٤.

١٤- اورد السخاوي في عدد كبير من صفحات الجزء الثاني عشر من كتابه الضوء اللامع ما يشير الى معاني الاجلال والاحترام الذي كان يحمله الناس لنساء هذا العصر، وفيما يلي بعض هذه العبارات: ذات حشمة ورياسة - وكان صينة أصيلة - وكانت كثيرة الرئاسة والحشمة - وكانت جليلة - وكانت تنطوي على دين ورياسة وابعاد لمن يذكر بفحش - كانت جليلة مبجلة (راجع السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج١٢، القاهرة ١٣٥٥هـ صفحات عديدة) وكانت الخوندات يتلقبن بألقاب تشريفية منها على سبيل المثال: «الحجاب المنيع والستر الرفيع» وهو لقب اطلق على فاطمة بنت الأمري قايتباي العمري فرح المعروفة بأم خوند (السخاوي، المصدر السابق، ترجمة ٦٢١). وهذا اللقب ذاته مسجل على واجهة الزاوية التي اسستها بالحرنفش برقم ١٦٧ في احترام المرأة المصرية في هذا العصر راجع:

Ahmed Abd Ar-Raziq, La Femme au temps des Mamlouks en Egypt, Le Caire, 1973, PP. 3-16.

١٥- السخاوي، المرجع السابق، تراجم ٣٤١-٣٤٧، وتراجم ٣١٨-٣٢٣، وتراجم ٣١٣-٣١٥ وترجمة رقم ٣٤٩.

١٦- السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص٤٥، ترجمة ٢٦١.

١٧- ابن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، المشهور بتاريخ مصر، طبعة بولاق، ج٢، ١٨٨٦، ص٣٠٧.

١٨- السخاوي، المصدر السابق، ترجمة رقم ٦٧٤.

١٩- السخاوي، نفس المصدر، ترجمة رقم ٥٩٥.

٢٠- نفس المصدر، ترجمة رقم ١٣٥.

٢١- نفسه، ترجمة رقم ٧٤.

٢٢- ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة في محاسن مصر والقاهرة، ج١٦، تحقيق دكتور جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٧٢، ص٣٤٦.

٢٣- السخاوي، الضوء اللامع، من أمثلة الفقيهات المذكورات راجع تراجم ٣٢، ٣٩، ٤٦، ١٣٥، ١٣٩، ٢٠٨، ٢٣٠، وهلم جرا.

24- Ahmed Abd Ar-Raziq, Op. Cit. PP. 43-87.

٢٥- عثر في حفريات الفسطاط على قطعة من الخزف تحمل نقشاً كتابياً نصه «عمل في خديجة» وهو النقش الوحيد الذي وصل الينا على تحفة خزفية يشير الى صانعة للخزف من العصر الاسلامي (راجع التفاصيل في:

Ahmed Abd Ar-Raziq, Op. Cit. PP.59.

٢٦- ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس، القاهرة، ١٩٦٩، ص٢٠٤.

٢٧- ذكر نابليون بونابرت في مذكراته عن المصريات أنه بهر بما كن يتمتعن به من قوام رائع وأيد جميلة صغيرة وصوت رخيم كما أطرى طريقتهن في الحديث والجلوس والمناقشة وقال انهن كن يضارعن ارقى السيدات في المجتمعات الأوروبية من حيث المظهر والأناقة (راجع عبد العزيز الشناوي، صور من دور الأزهر ص٧٩، وكرستوفر هيرولد، بونابرت في مصر القاهرة، ١٩٦٧، ص٢٨٢).

٢٨- السخاوي، الضوء اللامع، جـ١٢، ترجمة ٤٢١.

٢٩- محمد عبد المنعم السيد، الغزو العثماني لمصر، ص٤١٦ وما بعدها.

٣٠- وصف مصر، المجلد الأول: المصريون المحدثون، ترجمة زهير الشايب، القاهرة ١٩٧٩، ص٥٣.

٣١- وصف مصر، جـ١ ص٥٥.

٣٢- التسمية واردة في تاريخ الجبرتي، جـ٣، ص١٦٠، بمعنى الحبشيات.

٣٣- كرستوفر هيرولد، بونابرت في مصر، ص١٠٠، وانظر: عمر عبد العزيز، مجتمع الاسكندرية في العصر العثماني.، ص٣٢.

٣٤- كرستوفر هيرولد، المرجع السابق، ص١٨٧.

٣٥- وصف مصر، جـ١، ص١٠١.

٣٦- عمر عبد العزيز عمر، دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، ص٦٣، ولمزيد من التفاصيل راجع:

André Raymond, Quartiers et Mouvements Populaires au Caire au XVIII Siécle. dan, " Political and social Changes in Modern Egypt" P.115.

٣٧- عصمت محمد حسن، عبد الرحمن الجبرتي ومنهجه في كتابة التاريخ رسالة تقدمت بها الى كلية الآداب جامعة الاسكندرية في ١٩٨١ للحصول على درجة الماجستير، ص٢٨٠.

٣٨- الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج٢، طبعة بولاق، ١٨٨٠م، ص١٣٩.

٣٩- وصف مصر ،جـ١ ص٥٦.

٤٠- المرجع السابق.

٤١- عندما بالغ الناس في حياة اللهو والترف في العصر العباسي الأول، وتهافتوا على اقتناء الجواري حدث انقلاب في اخلاق الناس نقلهم من حال الى حال وأدى تدفق الأموال على الناس الى الاستكثار من النساء، فأفسد ذلك الاخلاق، ولم يلبث الرجل أن فقد ثقته بالمرأة، فنشأ الحجاب، وأصبح الزوج يحرص على عزل زوجاته عن انظار الرجال، والناس كلما ازدادوا ادماناً للهو، وامعاناً في البذخ والترف، ازدادوا حذراً من المرأة وتضييقاً عليها، يضاف الى ذلك أن الإباحية تسللت في المجتمع الاسلامي في هذا العصر بتأثير من الفرس: فراجت الرذائل وانحطت الاخلاق، وادخل الفرس لوناً جديداً من الشعر الرخيص في الغزل بالمذكر، واستغرق الناس في طلب اللهو وترتب على ذلك أن بالغ الرجال في احتجاز الحرائر من النساء في الخدور، وتشديد الحجاب عليهن، كذلك لا ينبغي أن يفوتنا ذكر النحل التي نادى بها الزنادقة والخرمية والبابكية وأباحت هذه النحل الانحلال الاخلاقي في المجتمع الاسلامي (راجع: زاهية قدوره، الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الاسلامية في العصر العباسي الأول، بيروت، ١٩٧٢، صفحات ١٨٧ وما يليها، السيد عبد العزيز سالم، محاضرات في تاريخ الحضارة الاسلامية ١٩٨٢، ص١٤٠، ١٤١).

٤٢- لمزيد من هذه الألقاب راجع:

Ahmed Abd Ar-Raziq, Op. Cit. PP. 89.

٤٣- تاريخ الجبرتي، جـ٣ ص١٧٠.

٤٤- ابن سعيد الأندلسي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق زكي محمد حسن، وشوقي ضيف، وسيدة كاشف، جـ١، القاهرة ١٩٥٣، ص ٧ من النص.

٤٥- كانت المرأة المصرية في العصور القديمة تجمع بين مهابة القدسية وحنان الزوجة والأم، والمثل الأعلى لها ايزيس الالهة الأم والزوجة، ومعظم التمايل التي تجمع بين أفراد الأسرة الفرعونية تعبر عن الحنان الفياض الذي تمنحه الزوجة لزوجها ولأبنائها، فهي تحيطه بذراعها وتمسك بيده أو تقف بين رجليه.

Abdel Aziz Salman, Situacj on Social de La Mujer en el Egipto Faraonico, Revista "Arquelogia", No. I, Madrid.

٤٦- هي السيدة الجليلة نفيسة خاتون بنت عبدالله البيضاء، كانت سرية على بيك بلوط قبان ومحظيته، فلما توفى علي بيك وتآمر مراد بك تزوج بها وعمرت طويلاً مع العز والسيادة والكلمة النافذة، وأكثر

نساء الامراء من جواريها» (الجبرتي ج٤ ص٢٦٤) ولهذا عرفت بأم المماليك. ويعتبرها المؤرخون أعظم شخصية نسائية ظهرت في ذلك العصر: فقد كانت تجمع الى جمالها البارع وثقافتها الواسعة سمو العاطفة ونبل الأخلاق، ولذلك كانت أحب نساء علي بيك الكبير الى قلبه (محمد رفعت رمضان، علي بيك الكبير، ص ٢٠٣، ٢٠٤) وبعد أن جلا الفرنسيون عن مصر، صادر محمد على ما بقي لها من مال وعقار، وتحملت هذه المصادرات بصبر وجلد، وظلت تقيم في دارها التي كان قد ابتناها لها علي بيك الكبير على بركة الازبكية، فلما توفيت في جمادى الأولى سنة (١٢٣١هـ - ١٨١٥) استولى محمد على دارها واسكن فيها بعض أكابر دولته.

٤٧- الجبرتي، جـ٤ ص٢٦٤، عصمت محمد حسن، الجبرتي ص٢٨٦.

٤٨- الجبرتي، جـ ٤ نفس الصفحة.

٤٩- السخاوي، الضوء اللامع، جـ١٢، ترجمة رقم ١٤٤.

٥٠- السخاوي، نفس المصدر، ترجمة ٢٦١.

٥١- الجبرتي، جـ٤ ص٢٦٤، وكانت قد تشفعت في الشيخ محمد الجوهري عندما توسل بها (الجبرتي، نفس المصدر جـ٣ ص١٠٨).

٥٢- نفس المصدر، جـ٣ ص١٢.

٥٣- نفس المصدر، جـ٣ ص١٩.

٥٤- نفس المصدر، جـ٣ ص٢٩٦.

٥٥- عصمت محمد حسن، المرجع السابق، ص٢٨٧.

٥٦- الجبرتي جـ٢ ص ٢٠١، ٢٠٩.

٥٧- نقولا الترك، مذكرات نقولا الترك، تحقيق جاستون فييت، القاهرة ١٩٥٠،ص٢١.

٥٨- نقولا الترك، نفس المصدر، ص٢٧.

٥٩- نفس المصدر السابق، ص٢٧.

٦٠- عبد الرحمن الرافعي، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، جـ١ ص١٧٨.

٦١- نقولا الترك، المصدر السابق، ص٢٨.

٦٢- محمد محمود السروجي، تاريخ الاسكندرية، عبر العصور الكتاب الذي اصدرته محافظة الاسكندرية ١٩٦٣ص٣٤٢، لم أعثر على نص نقولا الترك المشار اليه.

٦٣- الجبرتي، جـ٣ ص١٣٩.

٦٤- عمر بن عبد العزيز، الاسكندرية في العصر العثماني، ص٣٣٢.

٦٥- الجبرتي جـ٣ ص١٦.

٦٦- الجبرتي جـ٣ ص٢١.

٦٦- عبد العزيز الشناوي، صور من دور الأزهر، ص١١٢.

٦٧- عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق ص١٥٣.

٦٨- المارديني، نص عن الحملة الفرنسية على مصر في رواية أحد المعاصرين، تحقيق الدكتور محمد عبد السلام كفافي، القاهرة ١٩٦٢، ص٣٩٠.

٦٩- نقولا الترك، المصدر السابق، ص٢٢.

٧٠- المارديني، المصدر السابق، ص٣٨٢.

٧١- كرستوفر هيرولد، بونابرت في مصر، ص٣٤٧.

٧٢- نقولا الترك، ص٩٤ وما بعدها.

٧٣- الجبرتي، جـ٣ ص٢٨٣.

٧٤- لم يحترم الفرنسيون التقاليد المصرية الراسخة منذ العهود السابقة، ويذكر الاستاذ جرجي زيدان أن عساكرهم كانت «تدخل بيوت الهوانم اللواتي لم يجسر الباشا أن يدخلها، وكان السبب في ذلك أن بونابرت اجاز لرجاله الدخول في بيوت النساء للتفتيش عن أسلحة أو مخبآت أو أمور أخرى، ولا يخفى ما في ذلك من تغيير القلوب، وكل منا يعلم أن الشرقي أشد حرصاً على عرضه منه على حياته، ناهيك بما كان يأتيه الجند الفرنساوي من الفواحش التي تأباها النفوس الشرقية» (جرجي زيدان، تاريخ مصر الحديث، الجزء الأول، القاهرة، ١٩١١، ص١١٢).

٧٥- كرستوفر هيرولد، بونابرت في مصر، ص٣٨، وراجع: محمد فؤاد شكري عبدالله جاك مينو وخروج الفرنسيين من مصر، القاهرة، ١٩٥٢، ص٥٧٢.

٧٦- عبد العزيز الشناوي، صور من مقاومة الأزهر، ص٧٧، ٧٨، عمر عبد العزيز، عبد الرحمن الجبرتي، ونقولا الترك، دراسة مقارنة، بيروت ١٩٧٨، ص٣٣.

٧٧- عبدالرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق د. علي عبد الواحد وافي، جـ٢ القاهرة ١٩٥٨، ص٤٥٠.

٧٨- الجبرتي جـ٣ ص١٦١.

٧٩- الجبرتي جـ٣ ص١٦٢.

٨٠- الجبرتي، جـ٣ ص١٦٢.

٨١- عمر عبد العزيز، عبد الرحمن الجبرتي، ونقولا الترك، ص٣٤.

٨٢- الجبرتي، جـ٣ ص١٦٢.

٨٣- كرستوفر هيرولد، ص٣١٤.

٨٤- نقولا الترك، ص٦٠، عبد العزيز الشناوي، صور من دور الأزهر، ص٨٠.

٨٥- المارديني، ص٣٨٢.

٨٦- نقولا الترك، ص٣١.

٨٧- نقولا الترك، ص٢٧.

٨٨- عبد العزيز الشناوي، صور من دور الأزهر، ص٨٣.

٨٩- كان هدف الحملة الفرنسية البقاء في مصر وجعلها قطعة من فرنسا، فلما انقطعت السبل بين الحملة وبين فرنسا أمام الحصار الانجليزي للسواحل المصرية، لم يجد الفرنسيون بدا من التكيف في أرض مصر.

٩٠- الجبرتي، جـ٣ ص٣٣.

٩١- كرستوفر هيرولد، ص٢٢٤.

٩٢- الجبرتي، جـ٣ ص١٤٢.

٩٣- الشناوي، صور من دور الأزهر، ص٨٣ - ٨٤، ٩٣.

٩٤- كريستوفر هيرولد، ص٢١٦.

٩٥- محمد فؤاد شكري، عبدالله جاك مينو، ص٥٧٣.

٩٦- الجبرتي، ج٣ ص٥١.

٩٧- كانت هذه البركة تسمى بالأزبكية نسبة الى الأمير ازبك بن ططخ كبير أمراء السلطان قايتباي، الذي أزال كيمان الأزبكية حول بركتها، وأعاد حفر البركة وأجرى اليها الماء من الخليج الناصري، ثم أنشأ مناخاً لجماله، وقصراً له بنفس الموضع، ثم أقام مسجداً كبيراً ألحق به مكتبة وبنى حوله حماماً ووكالة وقياسر التجارة، وانتهى من جميع هذه المنشآت فيما يقرب من سنة ١٤٧٧م وترتب على إعادة حفر البركة وعمل وصيف حولها أن انتجها الموسرون وذوي الثراء العريض ورغبوا في سكنى الازبكية، وأسسوا القصور وغرسوا البساتين حتى أصبحت أقرب الى المدينة التي تناهت الى العظمة والجمال، ويصفها الشيخ شمس الدين محمد بن أبي بكر القادري في ارجوزته الموسومة)بعرف الروضة الذكية في وصف محاسن الأزبكية) بقوله: «فهي أحسن ما عمر في عصرنا، وبها البركة التي ليس في القاهرة أعظم منها، ومن أيامها المعدودة، ذلك اليوم الذي تنساب فيه الى البركة مياه النيل، حيث تضاء البركة والدور حولها، وتدخل اليها المراكب مزدانة، وتقام حولها حفلات الطرب» ويضيف قائلاً: «أنها بركة محفوفة بالمتفرجات والمناظر، ترتاح اليها النفوس وتقربها النواظر، فهي بركة أنيقة المنظر، صافية المخبر، ارضها كالعنبر وعرفها كالمسك الأدفر، ويصف البساتين التي تنظمها وتتوزع فيها كما يصف الحفلات التي تقام فيها والألعاب النارية التي تستعمل فيها فيقول: «فبينما الناس في لهو وفرح، وبسط من الأنس ومرح، إذ اطلع ذلك سماء الماء فلكاً تحمل اشجاراً من نار، يقذف النفط فيها أنواعاً من الأزهار، من مفضض ومذهب، ومديح من ألوان اللهب، وأسهم تنسب مع اصابتها الى الخطأ، وضوء شمس يكشف عن وجه الظلام الغطا في ليلة ينجاب عن وجهها الظلام، وشاهد الناس فيها العجب، لما اصطلح الماء مع اللهب، وطار على وجه الماء فراش من ذهب، ودارت بأكف اللاعبين دواليب من نار، ومن غير رياش تدور على قلبيب ولا زنار، فيها لها من نار أثلجت الخواطر، وأقرت بروايتها من الحاضرين كل ناظر». وقد ظلت برك الأزبكية عامرة بما أقيم حولها من قصور وبساتين، يقصدها أهل القاهرة للنزهة والفرجة والمتعة، ويهرعون اليها في الربيع للتنعم بخضرتها والتمتع بمياهها. وظلت كذلك مسرحاً للفسح ومقصداً للنزهة الى أن استولت الحملة الفرنسية على القاهرة فاغتصب الفرنسيون عدداً كبيراً من قصورها وأنشأوا فيها ملهى التيفولي وأقاموا في سنة ١٨٠٠ مسرحاً كوميديا، ومن أهم القصور التي استولى عليها الفرنسيون بالأزبكية قصد السيد ابراهم بن السيد سعودي الذي الت ملكيته الى الأمير محمد بك الألفي سنة ١٧٩٦، فهدمه، وأعاد بناءه من جديد، وبالغ فيه وتناهى في العناية بزخرفته، ولم يسكن به سوى أياماً الى أن وقع الاعتداء الفرنسي فاغتصبه الفرنسيون واتخذوا مقرأي لبونابرت، ثم أقام به كليبر وبه قتل، ومن القصور المشهورة بالأزبكية دار الشرايبي وكانت مقامة على الحافة الشرقية للبركة، وفي عهد عباس الأول تهدمت فأعاد بناءها ومنذ ذلك الحين سميت المنطقة المحيطة بهذه الدار بالعتبة الخضراء، وقد ردم القسم الأعظم من بركة الأزبكية في منتصف القرن التاسع عشر، وأزيلت الكيمان التي كانت تجاورها، وأقيمت مكانها المتنزهات، وفي سنة ١٨٦٤م تم ردم ما بقي من البركة

وضم هذا القسم الى الحديقة التي أعيد تنظيمها، وأقيمت بها للأكشاك والجبلاية وشقت فيها الشوارع، وانشئ بجوارها ثاني مسرح كوميدي ثم انشئت الأوبرا سنة ١٨٦٩.

راجع التفاصيل في: حسن عبد الوهاب، تخطيط القاهرة وتنظيمها منذ نشأتها، القاهرة، ١٩٥٧، ص ٤٠-٤٥).

٩٨- عرفت أيضاً بقنطرة التركماني نسبة الى الأمير بدر الدين التركناني الذي عمرها، وكانت تقوم على خليج الذكر الذي كان قد حفره شمس الدين الذكر الكركي من امراء الظاهر بيبرس (المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المجلد الثالث، طبع بيروت ص٤٥).

٩٩- الجبرتي، جـ٣ ص١٧.

١٠٠- الجبرتي، جـ٣ ص٧٠.

١٠١- الحبرتي جـ٣ ص٧٨.

١٠٢- الجبرتي جـ٣ ص١٦٢.

١٠٣- الجبرتي، جـ٣ ص٨١.

١٠٤- كرستوفر هيرولد، ص٢٠٧.

١٠٥- الجبرتي، جـ٣ ص١٦٢.

١٠٦- المارديني، ص٣٨٢.

١٠٧- نقولا الترك ص٣١.

١٠٨- عبد العزيز الشناوي، صور من دور الأزهر، ص٨٢.

١٠٩- الجبرتي، جـ٣ ص ١٩٢.

١١٠- الجبرتي، جـ٣ ص١٨٤.

١١١- نقولا الترك ص٩٦ وما بعدها.

١١٢- الجبرتي، جـ٣ ص١٤٢.

١١٣- كرستوفر هيرولد، ص٥٠٤.

١١٤- الجبرتي، جـ٣ ص١٧٦.

١١٥- كرستوفر هيرولد، ص٢٨٢.

١١٦- نفس المرجع، ص٢٨٢.

١١٧- الجبرتي، جـ٣ ص١٩٢.

١١٨- نفس المصدر.

بحوث التاريخ العربي الإسلامي

مقدمة في دراسة التاريخ الاسلامي

د. عبد العزيز عياد
دائرة التاريخ/ جامعة بيرزيت

ينطوي ارتباط تاريخ الشرق الأوسط بالاسلام على أهمية بالغة على صعيد حركة تاريخ الشرق الأوسط ومنهجية دراسة تاريخه بحيث وعلى صعيد الحركة التاريخية، فإن علاقتهما تقوم على عضوية التلازم وجدلية التفاعل الباعث للحدث التاريخي. أما من باب منهجية الدراسة فإن الدارس يجد أحياناً لزاماً عليه افراد الدراسة للاسلام وتاريخه واحياناً أخرى، وعند علاج قضايا الشرق الأوسط التاريخية لا بد وأن يعالج معها البعد والجانب الاسلامي ذي العلاقة.

هذه الارتباطية في تاريخ الشرق الأوسط جلية في كتاب هذا التاريخ في العصر الحديث على يد المؤرخين الغربيين خاصة وبعد تزايد المصالح الغربية في الشرق الأوسط وتعرضه لموجات الزحف الامبريالي الاقتصادي والعسكري والسياسي والثقافي في العصر الحديث الذي استلزم فهم تاريخ وثقافة المنطقة العربية والاسلامية لغايات تسهيل الهيمنة الامبريالية على المنطقة.

وليست حركة الاستشراق (حركة كتابة التاريخ العربي والاسلامي من قبل غربيين تعلموا لغات شرق أوسطية كالعربية والفارسية والتركية) بالأمر الجديد والحديث العهد على الشرق الأوسط وإنما يعود تاريخه الى القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر حين جاء تناوله من قبل مبشرين ورجال أعمال ورحالة ليأتي ارتباط حركة الاستشراق هذه في القرنين التاسع عشر والعشرين بحركة الاستعمار الغربي ولتصبح حركة الاستشراق هذه مؤسسة قائمة على خدمة المؤسسة الاستعمارية وترتبط مصلحياً بها. [١]

لقد خلفت حركة كتابة التاريخ هذه نتاجاً كتابياً في تاريخ الشرق الأوسط ضخماً باللغات الاجنبية المختلفة، كالانجليزية والفرنسية والألمانية، ولكن وعلى الرغم من هذا كله فإن تاريخ الشرق الأوسط لا بد من إعادة كتابته بمنهجية تراعي خصوصيته وعموميته في اطار محاولة توخي الموضوعية في دراسته قدر المستطاع وذلك لما ينتاب تلك الدراسات القائمة على الاستشراق من قصور منهجي يغذيه التوجه السياسي والعقائدي.

صحيح أن هناك بعض المؤرخين العرب والمسلمين الذين تناولوا الكتابة في تاريخ المنطقة العربية والاسلامية كطه حسين وفيليب حته وميشيل المعلوف ولكن هؤلاء المؤرخين وغيرهم من العرب قد نهجوا نهجاً استشراقياً في علاج المسألة التاريخية الشرق أوسطية بارتكازهم على بلورة وجهة نظر في التاريخ المدروس شأنهم في ذلك شأن المستشرقين لتصب دراساتهم بالتالي في قناة الحركة الاستشراقية، ولربما تأتي نهجهم الدراسي هذا للتاريخ بحكم دراستهم وتتلمذهم أصلاً على أيدي مستشرقين غربيين من جهة. ومن الجهة الأخرى كون النهج الاستشراقي نهجاً سائداً في عصرنا الحاضر.

ويقوم النهج الاستشراقي أصلاً على بلورة وجهة نظر في التاريخ تمتد جذورها في الفكر والثقافة الغربية وتعكس تصوراً غربياً أحادي البعد والجانب للأمم والشعوب الأخرى بمعنى ترجمته لتحيز عرقي يقوم على قياس الأمور والقضايا ذات الصلة بتاريخ الشعوب الأخرى بناء على مفاهيم وقيم مستمدة من الثقافة الغربية[٢]، قد تخرج الدراسة أحياناً الى حيز المحاكمة الاخلاقية وليظهر الاسلام معها بصورة قد لا تقترب كثيراً من الواقع.

وفي حين أن الاسلام وعلومه المختلفة هي أصلاً في مجال الدراسة من اختصاص المسلمين المختصين إلاّ أن المستشرقين أخذوا علي عاتقهم دراسة وعلاج هذه العلوم وصبغوها بصبغة غربية من خلال تبنيهم وجهة نظر غربية عند تناول هذه العلوم الاسلامية وليس هذا وحسب، بل أنهم وكما يبدو من كتاباتهم قد خلطوا بين أمر الاسلام كما هو من حيث البناء القانوني والنظامي وأمر الاسلام كما يفسر ويتم تداوله، بحيث ألحقوا بالإسلام ما هو ليس

فيه من خلال حكمهم على الاسلام بالاعتماد على ما هم عليه المسلمون، اضافة الى اعتبارهم الاسلام نموذجاً محرفاً للمسيحية.[٣].

ولا بد هنا أيضاً من الإشارة الى ارتباط الدراسات الغربية للتاريخ الشرق أوسطي بشكل عام والاسلامي بشكل خاص «بالديرك هايميه» ونظريات علم اجتماع الدين والتي تعالج القضية الدينية بالارتباط بالتطور وقدرة الدين على معايشة ذلك التطور[٤]، ناهيك عن الارتباط أحياناً أخرى «بدارونية هربرت سبنسر» الاجتماعية والتي تقوم على أساس افتراض تماثلية في البناء العضوي بين المجتمع والانسان «الكائن العضوي» وتفترض انسجاماً بين البناء والوظيفة للعضو سواء الجهاز الاجتماعي أو أي جهاز في جسم الانسان، واللاانسجام البنائي مع الوظيفي يمثل خللاً مؤسسياً يوصل الى انهيار البناء المؤسسي إذا لم تستطع المؤسسة التكيف والتأقلم في اتجاه إعادة البناء لأداء الوظيفة كما تمليها الحاجات المستجدة، الأمر الذي ارتبط فيه الحديث عن التقليدية والمعاصرة والحداثة.

وهكذا ينحى بعض المستشرقين على علاج القضية التاريخية سواء بالنسبة للاسلام أو الشرق الأوسط منحى الارتكاز على تطورية المجتمع وانتقاله من مرحلة التقليدية الى مرحلة الحداثة، أي افتراضهم أن تلك المجتمعات التي لا تزال تفتقر الى الحداثة التي بلغتها مجتمعاتهم الغربية لا تزال تقليدية تسعى للوصول الى طور الحداثة بالتكيف والتأقلم مع الفكر والثقافة والمؤسسة الغربية الحديثة.

هذه الأمور والقضايا وغيرها التي يتصف بها النهج الاستشراقي تستوجب البحث عن منهجية جديدة في كتابة التاريخ الاسلامي بحيث تراعي الاقتراب من الفهم الأكثر معقولية للاسلام خاصة والتاريخ الشرق أوسطي عامة تسهم في الإفادة من ذلك التاريخ بإظهار مجموع تناقضاته وملابساته ومجموعة الظروف المواكبة لها المكونة في جملتها نسيج التحليل التاريخي للحدث في حركته وتفاعله بمعنى أن الدراسة هنا تهدف الى اقتراح بعض المرتكزات المنهجية التي يمكن للمؤرخ الاستناد اليها في اطار تفاعله الدؤوب مع حقائق التاريخ، ذلك التاريخ الذي يقوم أيضاً على وجود تفاعلية مستمرة بين الماضي والحاضر[٥] هذه المرتكزات في مجموعها قد تسهم في علاج مسألة التاريخ الاسلامي كمنهجية بحث.

التعارضية في مضمار الحركة التاريخية:

هذه المسألة في واقع الأمر ترتبط بالنظرة التقيمية للحركة التاريخية وتصورها وتنعكس على الطريقة التي تعالج فيها القضية التاريخية وتتم كتابتها وتحدد بالتالي في اطار الاختيار لموضوع البحث. طابع الموضوع المبحوث وجوانبه المفترض انضوائها في الدراسة.

ولتوضيح هذا الموضوع أكثر لا بد من تناوله بالتعرض لنظرتين تقيميتين للحركة التاريخية هما في حقيقة الأمر مختلفتان وترتبط كل منهما بمنهجية مختلفة عن الأخرى.

قد تقوم نظرة المؤرخ على أساس تناول الحركة التاريخية كعملية تقوم على رتابة الحال وانتظام ضمن التطور التاريخي للمجتمع البشري، وهذا لا يعني بالضرورة انعدام عامل التناقضية في الحركة التاريخة أو أن التطورية دوماً ترتبط بالتقدم بل أن الدراسة بكليتها يطغى عليهما عامل الرتابة والانسجام ليبقى لعامل التعارضية في الحركة التاريخية دوراً ثانوياً أو لربما ينعدم وجوده.

وهذه الطريقة في الدراسة ترتبط أصلاً باختيار الموضوع وطبيعته، كأن يكون الأمر باختيار موضوع كالدولة الأموية مثلاً، أو بقضية تاريخية كالصراع الأموي العباسي أو الفتنة الكبرى أو تقوم على علاج التطور التاريخي لفكرة كشرعية وراثية الحكم الأموي ليصبح أمر الدراسة فيه شمولية علاجية ولكن فيه أيضاً انسجامية في ارتباط الحدث التاريخي والتطورية في الحركة التاريخية.

في المقابل، فإن هناك منهجية أخرى تقوم على بناء مسألية في الحركة التاريخية تكون فيها النظرة للحركة التاريخية وكأنما هي نهر متدفق ولكن يعتريه في جريانه وتدفقه منعطفات وترتطم أمواجه لتأخذ شكلاً وطابعاً تعارضياً.

تتوخى الدراسة في اطار علاج التاريخ من خلال مسألته تحقيق الشمولية في علاج التاريخ ولكن من خلال التركيز على التعارضية في حركته والذي يمثل أساس بناء المسألة التاريخية وهذه

التعارضية تبنى على أساس اختيار حدث تاريخي عام يكون في تكوينه وتشكل طبيعته واتجاهه معارضاً ومغايراً لما قد يفترض بأنه يمكن أن يكون المألوف أو المتوقع في التطور التاريخي بمعنى وبشكل أدق تعارضه مع حدث أو أحداث تاريخية أخرى سابقة له في وقوعها كأن نأخذ مثلاً تهافت الطبقة التجارية المكية ممثلة بالأسرة الأموية ومنذ عهد الخليفة الراشدي عثمان بن عفان على نشر الاسلام وتولي دوراً ريادياً في الدولة الاسلامية والذي يفترض فيهم أن يكونوا حماة للاسلام مع العلم بأنهم كانوا من أكثر الناس تشدداً في معارضتهم للاسلام في صدر ظهوره.

بعد تحديد المسألة التاريخية والتعارض التاريخي العام يأتي دور تفصيل مكونات هذا التعارض والتي قد تتضمن تعارضات جزئية في المسألة التاريخية تخدم في توضيح التعارض العام وتحديد معالمه وملامحه ليصبح معها التناول للمسألة شمولياً بأن يكشف النقاب عن الكيفية والمضمون لمجموعة السلوكيات والممارسات لطبقة التجار المكية في اطار الحديث عن دورها سواء أيام كانت تعمل لصالح الاسلام وكذلك أيام وقفت ضده في سنين ظهوره الأولى.

ولا بد من وعند علاج المسأل التاريخية من ربطها بعامل ذي طابع تأثيري عام يضع اطاراً نظرياً لعلاجها والوصول الى مسببات تكوينها ووجودها وهذا العامل الرئيسي وعند تناوله يستلزم الأمر كشف النقاب عن مجموعة العوامل الرئيسية الأخرى والفرعية في تداخلها وتفاعلها تشكل في المحصلة النهائية الفكرة الأساسية الموضحة والشارحة لمرتكزات تطور الحدث بالصورة التي جاء عليها.

الحديث إذا بهذا الصدد يتمحور حول العملية التحليلية للحركة التاريخية بشكل عام وارتكاز الدراسة على نظام تحليلي متميز بشكل خاص يشكل ما تم التطرق اليه عند الحديث عن التعارض التاريخي وبناء المسألة التاريخية اطاراً عاماً له وجانباً مهماً في بنائه.

التناقض الاجتماعي والمسالة التاريخية:

وحتى تكتمل مرتكزات البناء التحليلي في الكتابة التاريخية لا بد للدارس من مراعاة عملية الربط بين التعارض التاريخي ومجموعة التناقضات الاجتماعية على اعتبار دورها في تشكيل التعارض التاريخي من جهة وكذلك مكنون ذلك التعارض من الجهة الأخرى حيث أن مجموعة السلوكيات الانسانية المشكلة للحدث التاريخي ولحركة التاريخ نفسها تشكل تعبيراً عن البناء الاجتماعي بكل تناقضاته وتجسيداً لتلك المصالح المتناقضة التي يبلورها التناقض الاجتماعي القائم سواء كانت منبثقة عن وعي طبقي اجتماعي مكتمل الرسوخ والتشكل أو بمستويات دنيا من الوعي ذاته.

ومن البديهي جداً عند الحديث عن المجتمع العربي والاسلامي مراعاة التمايز الطبقي الاجتماعي فيه حيث هو قائم واغفاله لا يعطي حركة التاريخ وعند دراستها عمقاً تحليلياً ولربما أيضاً بعداً شمولياً على اعتبار أن التحليل يمكن أن يفتقر الى اعتماد مرتكز أساسي في شرح السلوك الانساني فيه هذا السلوك الذي لا بد وأن يختلف تباعاً مع الطبيعة التمايزية للواقع الطبقي.

وحيث أن الواقع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي والفكري على علاقة جدلية يلعب الواقع الاقتصادي دوراً مركزياً في تلك العلاقة[٦] فإن الدراسة لا بد وأن تنهج نهج تبيان الطبيعة التكوينية لذلك الواقع لتحديد طبيعة البناء الاجتماعي والسياسي ومجموعة العلاقات الاجتماعية والتحالفات السياسية القائمة فيه على المستويات المختلفة للعوام والنخبة من منطلق تحديد دور وتأثير الفئات الاجتماعية في صناعة الحدث وتشكيله.

واقتصاد كاقتصاد العالم العربي والاسلامي يمثل قطاع التجارة الخارجية ركيزة أساسية له لا بد وأن يؤخذ بعين الاعتبار مجموعة الافرازات الاجتماعية والسياسية عن ذلك الواقع الاقتصادي والمجسدة بكل تناقضاتها عن طموحات وتطلعات مجتمع تجارة خارجية.

مجموعة هذه البنى الاجتماعية والسياسية في المجتمع العربي والاسلامي تفتقر الى التماثلية البنائية في اطار الحركة التاريخية للمجتمع على اعتبار اللااستمرارية في طبيعة الدور الذي لعبه المجتمع العربي على صعيد التجارة الخارجية حيث أن توسط المجتمع العربي بمركز وصدارة التجارة العالمية في العصور الوسطى استحال في العصر الحديث الى دور تبعي اثر تغير طريق التجارة بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح والزحف الامبريالي الاقتصادي

على المنطقة العربية والاسلامية[٧].

ومهما يكن من أمر التحولية في طبيعة الدور الذي لعبه المجتمع العربي تاريخياً في مضمار التجارة الخارجية فإن مركزية هذا القطاع في الاقتصاد العربي تعني ضرورة أخد العوامل الخارجية في اطار الدراسة للتاريخ العربي بالحسبان ليس من منطلق تناوله على أساس الدور التأثيري على الثقافة والفكر فحسب من باب الاستجابة لمجموعة تحديات تاريخية بل توخي اعتبار دور مجموعة التحالفات الطبقية التي تتخطى حدود المجتمع العربي في التأثير على حركته وتشكل تاريخه ومجموعة الافرازات الثقافية والفكرية والسياسية التي تخلفها حركة التجارة الخارجية ناهيك عن دور التهديد الخارجي ومركزيته في بعث الوحدة والوحدوية العربية والاسلامية.

وفي خضم الحديث عن هذه التناقضية وارتباطها بالتعارضية في الحركة التاريخية الهادفة الى اقتراح أسس لدراسة التاريخ العربي الاسلامي لا بد من ادراج الاسلام في اطار الدراسة التاريخية وفحص علاقته بالواقع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي والفكري للمجتمع العربي على أساس أن الاسلام يشكل جزءاً هاماً من هذا التاريخ ويلعب دوراً هاماً في حياة العرب والمسلمين ولا شك بأن ارتباطه بها يمثل في حد ذاته مسألة تاريخية يجدر تناولها بالدراسة والبحث حيث قد تكشف أموراً هامة كثيرة في تاريخ العرب والمسلمين.

جدلية العلاقة:

في سياق الحديث عن تاريخ العرب والمسلمين من الضروري بمكان تحديد طبيعة العلاقة القائمة بين الاسلام من جهة والواقع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي والفكري في الشرق الأوسط من الجهة الأخرى هذه التحديدية في واقع الأمر تساعد في تبيان معالم التطور التاريخي للاسلام والشرق الأوسط في اطار وحدة تاريخية لحركة تاريخ الشرق الأوسط.

هذه العلاقة للاسلام والمجتمع الشرق أوسطي تسهم كمرتكز أساسي في فهم حركة التاريخ المنوي دراسته على أساس ارتباطها الوثيق بمجموعة التناقضات الاجتماعية والموصلة جميعاً من خلال ربطها بالتعارضية في الحركة التاريخية الى فهم ماهية الحدث والحركة التاريخية الشرق أوسطية.

وقبل تحديد هذه العلاقة لا بد من تبيان مكونات الاسلام من أجل تحديد الجزء المقصود هنا بهذه العلاقة خاصة وأن الاسلام دين ونظام حياة لا يمكن شموله ككل بالحديث عند اعتباره في الدراسة كجزء من تاريخ الشرق الأوسط.

يمكن للدارس الحديث عن نوعين من المفاهيم عند علاج المسألة الاسلامية أولهما المفاهيم المطلقة تلك التي تتعلق بالقضايا الالهية كالعقيدة بالوحدانية والنبوؤة والرسل والملائكة وغيرها، وهذه أمور اعتقادية تخضع للتسليم ولا يختلف فيها اثنان من المسلمين وكذلك العبادات حيث لا تعلل تؤخذ من قبل المسلمين كما هي دونما توفر امكانية البحث والنقاش في مسبباتها وأبعاد مضامينها وان اختلف المسلمون فيها يبقى الاختلاف في بعض الشكليات التي لا تؤثر بشكل أو بآخر على مضمونها أو تبتعد عن موارد النص فيها.

وثانيها هي تلك المفاهيم التي تجعل من الاسلام نظاماً حياتياً أي المعالجة الاسلامية بمجموعة الظروف الحياتية من اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية وهذه المعالجة تشتمل على خصوصية النسبية على اعتبار أن هذه المعالجة يراد منها تخطي حواجز الزمان والمكان رغم اختلافهما خلال التطور التاريخي للمجتمع البشري وهكذا أساس يمكن أن يخلق اختلافاً في الفهم لتلك المعالجة الاسلامية بين المسلمين ويفرز اختلافاً في الفهم العام لمجموعة الظروف السائدة والتوجهات السياسية للمسلمين.

ان الدارس لكتابات خير الدين التونسي في القرن التاسع عشر حيث كان رجل دولة يلاحظ نهجاً تبريرياً للواقع القائم حينها ففي كتابه (قوم المسالك) يستخدم مفاهيم اسلامية وأحداث في التاريخ الاسلامي لتبرير قضايا كانت في عصره كالاقتراض من الأجانب والانفتاح الاقتصادي والثقافي على العالم الغربي في ظل الزحف الامبريالي وكذلك الشيخ محمد عبده في النصف الثاني من القرن التاسع عشر إذا استثنيت السنوات الثلاث في المنفى ينحى منحى الدفاع عن الواقع القائم وترسيخه بكل معطياته من خلال اقتراحه سياسات تخدم ذلك الاتجاه ودفاعه عن أسرة محمد علي وتبنيه موقفاً غير مناهض للاحتلال الانجليزي لمصر.

في المقابل فإن حركة المهدي في السودان بعد عام ١٨٨٥ والتي تبنت الخط الإسلامي شكلت حركة تحرر مناهضة للانجليز وكذلك الحال كان بالنسبة لجماعة الاخوان المسلمين أيام حسن البنا زعيمها والعقل الواضع لمرتكزاتها الفكرية والمنهجية وبرنامجها الاصلاحي على الصعد الحياتية المختلفة حيث يمكن اعتبارها جزءاً من الحركة الوطنية المصرية.

ولا تقتصر هذه الظاهرة على العصر الحديث بل أيضاً يمكن العثور عليها في العصور الوسطى على اعتبار أن الحركة التجديدية في الاسلام لم تقتصر على عصر دون غيره ففرقة المعتزلة والتي يمكن اعتبارها حركة انقلابية فكرية في الاسلام بدفاعها عن فكرة (خلق القرآن) قد تبنى خطها الفكري الخليفة العباسي المأمون. في حين أن الإمام أحمد بن حنبل والذي تبنى خطاً معارضاً للمعتزلة وأكد على مفهوم أزلية القرآن قد سجن وعذب.

ايراد هذه الأمثلة يجيء من باب التمثيل لا الحصر، فتاريخ الشرق الأوسط زاخر بمثل هذه الأمثلة وايرادها هنا في هذا البحث يراد به عرض التناقضية الفكرية في المجتمع الاسلامي والمرتبطة أصلاً بالتناقضية الاجتماعية والكاشفة لطبيعة علاقة الاسلام بالواقع الاجتماعي والسياسي والثقافي والفكري.

ولا بد هنا من توضيح الفرق بين قضيتين ألا وهما الاسلام نظام حياة كما هو وارد في نصوص مصادر التشريع الاسلامي والإسلام نظام حياة كما هو وارد في تفسير المجتهدين من المسلمين فالأول يشتمل على نصوص ثابتة لا يكون لها حياة إذا تركت جانباً في حين أن الثاني يتضمن فهم المفسر لتلك النصوص ويستنبط أحكاماً ومفاهيم تخدم في معالجة ظروف عصره وهكذا يعطي تلك النصوص الحياة والديمومة وهذه المسألة تقع في صلب العلاقة المنوي دراستها وتبيانها.

المفسر في واقع الأمر أن المفكر الاسلامي يؤثر في الواقع الذي يعيشه بمقدار تأثير ذلك الواقع عليه[٨]، بمعنى تصويره للواقع العام والخاص الذي يعيش وليس هذا وحسب بل أن عامة المسلمين في فهمهم للاسلام ينحون منحى متأثراً بالواقع المادي الذي يخضعون في حياتهم له.

فبالإضافة الى اللاتماثيلية في واقع المفكرين المسلمين الاجتماعي والتي تعكس نفسها في فهم الاسلام وتصويره فإن الاسلام ذاته يوفر الاساس لكل اللاتماثلية في الفهم على اعتبار أن المعالجة الاسلامية للظروف الحياتية تقع في دائرة باب الاجتهاد والمفتوح أصلاً لكل مسلم قادر على الاجتهاد والاستنباط في الأمور التشريعية.

فالاسلام يتضمن أحكاماً وقوانين فيها عمومية في الصياغة والبناء تفسح المجال أمام عملية اجتهادية قد لا يواكبها اتفاقاً في وجهات النظر أضف الى ذلك العملية الانتقائية في النص والتي تخضع لمقاييس مؤثرات بيئة المفسر العامة والخاصة والرغبة في التأثير عليها.

هذه العملية الاجتهادية في النصوص التشريعية تمثل مرتكز التجريدية في الاسلام ومحققة الدور المؤثر للاسلام في حركة التاريخ الشرق أوسطي والميكانيكية التاريخية لامكانية صلاح الاسلام زمانياً ومكانياً ومواكبة التطور التاريخي وعليه يمكن القول بأن العلاقة بين الاسلام نظام الحياة والواقع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الشرق أوسطي هي جدلية قادرة على حمل الاسلام ومواكبته للتطور التاريخي وتأثيره على الحياة في الشرق الأوسط.

في الختام يمكن القول بأن التوجه نحو بناء نظام تحليلي لحركة تاريخ الشرق الأوسط مضمار إعادة كتابة هذا التاريخ ولغايات بلوغ شمولية فهم له يمكن أن يستند على مرتكزات تحليلية ومنهجية تلتقي معاً في تداخلية وتفاعلية باعثة للحدث المكون في تطوره لحركة التاريخ وهذه المرتكزات ترتبط أصلاً بمسألة التاريخ والتي تقوم على تتبع التعارضية في حلقات سلسلة الحركة التاريخية ووصل هذه التعارضية في اطار الدراسة بالتناقضية الاجتماعية مع التأكيد على جدلية العلاقة القائمة بين الاسلام والواقع المادي العام.

اضافة الى اعطاء هذه المنهجية لتاريخ الشرق الأوسط فهماً جديداً ولربما متميزاً وتلبية حاجات التوجه نحو بلورة فهم جديد لتاريخنا فإنها تنأى بالدارس عن منزلقات الاستشراق وتبعد الدراسة عن تلك المشاكل في المنهج والفهم المترتبة عن الاستشراقية في الدراسة التاريخية للشرق الأوسط خاصة وأنه

إضافة الى تبني منهجية جديدة في الدراسة فإن الطرح هنا يقوم على أساس علاج المسألة الاسلامية بالاعتماد على نظريات علم اجتماع المعرفة والوعي الانساني وليس كما هو الحال بالنسبة للمستشرقين حيث يعتمدون على «الديرك هايميه» وعلم اجتماع الدين.

1- Edward W. Said, ORIENTALISM (New York Vintage Books Random Honse, October 1979, PP. 8-4.

2- Ibid, P.4, And Roger Owen, Studying Islamic History, Journal of Interdisciplinary, IV, 1973.

3- Anwar AbdelMalek, ORIENTALISM is Crisis, Diogenes, XLIV, 1963.

4- Brian, S.Turner, Marx and the End of ORIENTALISM, (Allen and Unwen, London).

5- Edward Hallett (arr, What is History, "The george Machaulay Terelyan, Lectures Delirered at the University of Cambridge January - March 1961 by the Author "(New York Vintage Books Adivision of Random Honse 1961) P.35.

6- Karl Marx and Friedrich Engels, The German Ideology, (NewYork: International Publishers Inc, 1939), P.13.

7- Samir Amin, The Arab Nation, "Translated by Michal Pallis" (London Zedpress Ltd, 1978).

8- Karl Marx and Friedrich Engls, The German Ideology, (New York: International Publishers, Inc. 1939), P-h.

مناهج العلماء المسلمين في كتابة التاريخ

علوي عبدالله طاهر
كلية العلوم والآداب/ جامعة عدن
اليمن

تمهيد:

كان العرب قبل الاسلام يؤرخون بالأحداث العظيمة، والوقائع المشهورة كعام الفيل وغيره، وكانوا يحددون الأوقات بالنجوم والأهلة، واستمروا على هذه الحال حتى عهد عمر بن الخطاب حين أمر باتخاذ الهجرة النبوية بداية للتاريخ الاسلامي.

وكان العرب يتذاكرون أيامهم عن طريق الرواية الشفهية، ويتفاخرون بأمجاد آبائهم وأجدادهم، وما حققوه من انتصارات في حروبهم القبلية أو حروبهم ضد أعدائهم واتخذوا الشعر أو النثر وسيلة لذلك.

وكان الحديث عن الغزوات والغارات والمعارك القبلية التي سموها (الأيام) حديثاً شيقاً في مجالس السمر عند قبائل العرب، وصار الحديث عن (أيام العرب) جزءاً من الأخبار التاريخية، وموضع اهتمام المؤرخين ودارسي اللغة والأدب.

وبمجيء الاسلام صارت الحاجة ماسة لتدوين الوقائع التاريخية، بسبب زيادة اهتمام الناس والحكام بمعرفة أخبار المعارك الحربية التي كان النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) يخوضها ضد أعدائه، فظهر ما يعرف بأخبار السير والمغازي التي تعنى بأخبار فتوحات الاسلام ومغازي الرسول وغزوات أصحابه.

ولما كان القرآن الكريم قد أشار في بعض آياته الى الأمم الغابرة فإن ذلك قد حفز المسلمين لمعرفة المزيد عن أخبار تلك الأمم، فاهتموا بأخبار اليهود والنصارى.. وغيرهم ممن ورد ذكرهم في القرآن، وأدى ذلك إلي انتشار الروايات الشعبية، بما فيها من قصص شعبي وأساطير خرافية، واسرائيليات جمعها وهب ابن المنبه في كتابه (التيجان في ملوك حمير).

وعند تشيكل الدولة الاسلامية رغب الخلفاء في الاطلاع على سياسة الملوك المعاصرين لهم أو الذين سبقوهم لغرض معرفة طريقتهم في الحكم، وأسلوبهم في سياسة شعوبهم، فحفز ذلك بعض الناس للاهتمام بتتبع سير الملوك وأخبارهم والحروب والمكائد التي دبرت لهم، فظهرت بعض الكتب التي تعنى بهذا الجانب مثل كتاب (تاريخ الأمم والملوك) للطبري.

وباتساع رقعة الدولة الاسلامية، ورغبة الولاة والحكام في معرفة ذلك لتقدير الخراج والجزية ظهر الاهتمام بمعرفة أخبار البلاد المفتوحة، مما شجع الإخباريين على تخصيص بعض فصول كتبهم للحديث عن تلك البلدان، ثم ظهرت كتب متخصصة لذلك مثل كتاب (فتوح البلدان) للبلاذري.

ولما كان المجتمع الاسلامي يقوم تركيبه على أساس طبقي، إما من حديث الأنساب أو من حيث الأسبقية في الاسلام، فإن من شأن ذلك أن يؤدي الى الاهتمام بدراسة طبقات المجتمع، فظهر من جراء ذلك كتب الطبقات مثل:

- كتاب لواقع الأنوار في طبقات السادة الأخبار، للشعراني.
- كتاب طبقات الحفاظ لجلال الدين السيوطي.
- كتاب طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين السبكي.
- كتاب طبقات ابن سعد، وغيرها من الكتب.

وباحتكاك العرب بشعوب جديدة لها تاريخها كان لا بد من أن يبحثوا عن تاريخهم، ليظهروا للشعوب الأخرى أن للعرب تاريخ، وأنهم قادرون على مسايرة بقية الشعوب وبناء حضارة، فأظهروا اهتماماً بتاريخ العرب وقبائلهم وأخبارهم، وكل ما يتصل بأمجادهم.

اختلاف مناهج المؤرخين في كتابة التاريخ

لقد نهج المؤرخون المسلمون في بداية عهدهم بتدوين التاريخ منهج الإخباريين في ترديدهم لأنواع من القصص الشعبية المتداولة التي تؤرخ لأحداث وحروب دون ربط تاريخي أو توقيت زمني.

ولما شرعوا بكتابة تاريخ السير والمغازي – خاصة كتابة السيرة النبوية – بدأوا يدققون في الأحداث وتواريخها، مع بقاء اللون

القصصي سائداً في كتابتهم.

وكان النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) في كتب السِّيرة بمثابة البطل في قصص ما قبل الإسلام.

وأشهر كتب السيرة كتاب محمد بن اسحاق المتوفى ١٥٠هـ (٧٦٧م) المعروف بسيرة ابن اسحاق وقد اختصره عبد الملك بن هشام في الكتاب المعروف بسيرة ابن هشام.

ومن أشهر كتب المغازي كتاب (مغازي الواقدي) وكتاب (طبقات ابن سعد) وغيرها.

وعند استقرار الدولة الاسلامية، ونشوء الدواوين في قصور الخلفاء والأمراء والحكام انتفع المؤرخون مما في هذه الدواوين من مراسلات ومعاهدات..الخ. كما انتفعوا من قربهم من رجال الدولة والحكم وقادة الجيش الذي زودوهم بمعلومات عن المعارك التي خاضوها بالإضافة الى ما لاحظوه بأنفسهم، أو اطلعوا عليه من أخبار القضاء ورجال السلطة والقادة، فتوفرت لديهم مادة هامة ساعدتهم في الكتابة التاريخية.

وقد اتيحت الفرص لبعض المؤرخين في التنقل بين بعض أنحاء الدولة الاسلامية، وتمكنوا خلال رحلاتهم من مشاهدة بعض معالم تلك البلدان التي شاهدوها والاستفادة من مؤرخي وعلماء تلك البلدان، فاحتك المؤرخون والعلماء بعضهم ببعض، وتنافسوا في كتابة تاريخ الأقاليم، التي عرضوا فيها تاريخ أقاليمهم، فانتفع المؤرخون من ذلك في تدوين تاريخ الأمة الاسلامية بشكل عام، فألف أبو الحسن المسعودي المتوفى (٣١٦هـ، ٩٢٩م) كتابه الشهير (مروج الذهب)، وألف ابن مسكويه، المتوفى (٤٢١هـ، ١٠٣٠م) كتابه (الكامل في التاريخ).وألف أبو الفدا المتوفى (٧٧٢هـ - ١٣٧٠م) كتاب (المختصر في أخبار البشر)، كما ألف ابن خلدون المتوفى (٨٠٨هـ)، (١٤٠٥م) كتاب (العبر وديوان المبتدأ والخبر).. وهكذا تعاقبت الكتب التاريخية.

ولم يكن المؤرخون المسلمون ينهجون نهجاً واحداً في مؤلفاتهم، بل اختلفت مناهج كتابتهم التاريخية باختلاف ظروف وثقافة كل منهم، كما اختلفت أيضاً باختلاف عصورهم التاريخية وبيئاتهم.

ويجدر بنا في هذا الخصوص الوقوف عند بعض المؤرخين المسلمين البارزين الذين نشأوا في أزمان وظروف وبيئات مختلفة، لنتعرف على منهج كل واحد منهم في كتابة التاريخ، مع حرصنا على التعريف بنماذج مختلفة من المؤرخين لتوضيح الفرق بين منهج كل واحد،منهم.

أولاً: مناهج كُتَّاب المغازي والسِّير والطبقات:

١- منهج ابن اسحاق

١- محمد بن اسحاق بن يسار

(٨٠ - ١٥١هـ)، (٦٩٩ - ٧٦٨م)

ولد سنة ٨٠هـ طلب العلم في المدينة في صباه، رحل الى الجزيرة والكوفة والري وبغداد وقدم على أبي جعفر المنصور، بالحيرة، وكتب له المغازي، ومن كتب ابن اسحاق الشهيرة سيرة النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - ويشتمل على حياة الرسول قبل البعثة وشيئاً من أخبار الجاهلية، ثم يتحدث عن سيرة الرسول بعد البعثة حتى الهجرة ثم حياته في المدينة ومغازيه وبعوثه حتى وفاته.

أما منهج ابن اسحاق في كتابة السيرة النبوية فيمكن تلخيصه فيما يلي:

١- يقوم منهجه على أساس إيراد الأخبار بالأسانيد التي وصلته كما يورد بعضها بدون إسناد.

٢- يعتمد أحياناً في معلوماته على مجهولين، فيقول مثلاً: (حدثني بعض أهل العلم أو (حدثني بعض بني فلان).. الخ.

٣- إذا شك في صحة أية رواية يعبر عنها بقوله مثلاً: (فيما يذكرون(أو (فيما يزعمون)..إلخ.

٤- إذا لم يستطع الترجيح بين روايتين يقول مثلاً: (فالله أعلم أي ذلك كان).. الخ.

٥- كان يجمع الروايات أحياناً مع بعضها دون تمييز بينها، ويقدم لها بذكر الأسانيد مجموعة.

٦- يسوق ملخص الرواية ويستشهد بالآيات القرآنية ويذكر أسباب النزول ويشرح بعض المعاني في الآيات.

٧- يلخص - أحياناً - خبر الرواية بتمهيد من عنده، أو يبين سبب الحادثة التاريخية ونتيجتها.

وقد حاول ابن اسحاق بمنهجه هذا الجمع بين منهج المحدثين

القائم على الأسانيد، وبين منهج الاخباريين المتحرر من الالتزام بالأسانيد.

وقد أقام ابن هشام بعملية تهذيب لسيرة ابن اسحاق، وجعلها سهلة الحفظ والتلقين للمبتدئين ولعامة الناس بعد أن استبعد منها الأسانيد.

ويعاب على منهج ابن اسحاق في سيرته دمج الروايات وجمع الأسانيد، وسياقها مساقاً واحداً دون تمييز بين ألفاظ الرواة.(1).

٢- منهج الواقدي

محمد بن عمر الواقدي الأسلمي (١٣٠ - ٢٠٧هـ)، (٧٤٧ - ٨٢٢م).

ولد بالمدينة، ونشأ فيها يطلب العلم، ثم رحل الى الحجاز والشام لطلب العلم والتقى علماءها وأخذ عنهم تنقل بين عدد من الأمصار وأخذ العلم عن علمائها.

تولى القضاء أيام الرشيد والمأمون، وربما توفي قبل فتنة خلق القرآن.

أشهر مؤلفات الواقدي كتاب (المغازي) الذي يتحدث فيه عن غزوات النبي محمد (صلى الله عليه وسلم).

ويتلخص منهجه في تأليف هذا الكتاب في الآتي:

١- يذكر مصادر معلوماته، بما يسوقه من أخبار حدثه بها الرواة الذين ذكرهم أو لم يذكرهم.

٢- يسوق في مقدمة كتابه بعد ذكر الرواة سرايا الرسول ومغازيه، مرتبة ترتيباً تاريخياً منذ قدومه الى المدينة وحتى وفاته.

٣- حدد تاريخ حدوث كل غزوة أو سرية واسم أميرها ووجهتها.

٤- اعتنى بتحديد المواقع تحديداً تاريخياً مختصراً.

٥- ذكر الذين استخلفهم النبي (صلى الله عليه وسلم) على المدينة عند خروجه للغزوات.

٦- فصَّل القول في كل غزوة بحسب تسلسلها الزَّمني.

٧- اعتنى بالضبط التاريخي للوقائع والغزوات.

٨- اعتنى بذكر الأشخاص الذين أسهموا في كل غزوة، وحدد نوع مساهمة كل واحد منهم.

٩- ذكر الأسرى والشهداء والقتلى، ورتبهم بحسب قبائلهم وذكر من اشترك منهم في بدر.

١٠- ذكر الآيات التي نزلت في الغزوة وفسرها.

١١- لم يلتزم بالأسانيد ولا بألفاظ الرواة.

١٢- صاغ كتابه في أسلوب قصصي وبعبارات واضحة.(2)

٣- منهج ابن هشام

أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري الحميري (ت٢١٣هـ)

ولد بالبصرة، ونزل مصر، وتوفي بالفسطاط، وهو مؤرخ مشهور من أشهر كتبه (السيرة النبوية) التي اعتمد فيها على سيرة ابن اسحاق.

ولابن هشام منهج خاص في كتابة السيرة النبوية فلخصها في الآتي:

١- استمد مادته من كتاب المغازي لابن اسحاق.

٢- ابتدأ الكتاب بذكر نسب النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) حتى وفاته.

٣- تعرض فيه لحياة الرسول بكل تفصيلاتها، من حيث نشأته، وبعثته، ورسالته، وهجرته، وغزواته، ووفاته..الخ.

٤- يتميز أسلوبه بالسلاسة والسهولة.

٥- استوعب معظم الأحداث.

٦- نسب الرويات الى أصحابها.

ولأهمية سيرة ابن هشام اعتنى بها المؤرخون وكتاب السير، ومنهم أبو القاسم السهيلي (ت٥٨١هـ) فألف كتابه المسمى (الروض الآنف)(4).

٤- منهج ابن سعد

محمد بن سعد بن منيع الهاشمي (ت٢٣٠هـ ٨٤٤م)

ولد في البصرة بعد سنة ١٦٠هـ - ٧٧٦م) وطلب العلم في صباه على يد علمائها، عاصر الخليفة العباسي المأمون، وشهد فتنة القول بخلق القرآن، وتأثر بها.

وأشهر كتب ابن سعد كتاب (الطبقات الكبرى) وهو كتاب في التراجم والطبقات، بدأه بذكر الرسول والصحابة الذين شهدوا بدراً - وترجم للرسول وذكر غزواته، ثم ترجم للصحابة

وقسمهم الى طبقات ورتب كل طبقة بحسب أنسابها، فذكر الصحابة والتابعين من أهل المدينة وأهل مكة، والطائف.. الخ. ورتب المدن بحسب موقعها الجغرافي والأهمية العلمية للمدينة.

ولم يفصل في طبقاته بين التابعين وأتباع التابعين ومن بعدهم، ولم يحدد عمر كل طبقة بسنوات معينة.

ويتلخص منهجه في تأليف هذا الكتاب في الآتي:

١- لا يبتعد كثيراً عن منهج ابن اسحاق في دراسة السيرة.

٢- أخذ من مغازي ابن اسحاق عن غير طريق استاذه الواقدي فقد روي من طريق آخرين حتى وصل الى ابن اسحاق.

٣- كان يسوق الخبر الرئيسي عن الغزوة بعد ذكر رواته ثم يكمل الحديث بروايات مفردة من مصادر متعددة.

٤- صاغ السيرة النبوية بأسلوب قصصي مترابط الحلقات يسهل دراسته واستذكاره.

٥- عند ذكره للطبقة يذكر الروايات مفردة في كل ترجمة.

٦- يقلل من استخدام الأسانيد في أجزاء الكتاب الأخيرة.

٧- استفاد من منهج الواقدي في الاهتمام بتحديد المواقع الجغرافية.(٥)

٨- عرض في الكتاب سيرة الرسول عرضاً شائقاً في الجزئين الأولين، ثم أضاف الى ذلك فصلاً عن الذين كانوا يفتون بالمدينة.

٩- ترجم للصحابة والتابعين، فشغل بذلك حيزاً كبيراً من الكتاب.

١٠- راعى في التراجم عنصري الزمان والمكان، أما عنصر الزمان فإنه تدخل في بناء الطبقات من أولها الى آخرها، فكانت السابقة الى الإسلام هي المحور الأكبر فيه، أما عنصر المكان فإنه أخذ يترجم للصحابة ومن بعدهم على حسب الأمصار التي نزلوها.

١١- الطبقة عنده تساوي جيلاً أي عشرين سنة تقريباً.

٥- منهج ابن كثير

أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير. (ت٧٠١هـ)

لابن كثير كتاب شهير اسمه (البداية والنهاية) وفيه أتى بفصول للسيرة النبوية، لم يشر إليها المؤرخون لأن ابن كثير لم يفرد لها كتاباً مستقلاً، بل قرأوها كجزء مدمج في (البداية والنهاية) إلى أن قام مصطفى عبد الواحد بإخراجه للناس حينما أقدم على تحقيق السيرة النبوية لابن كثير، وأفرد لها كتاباً خاصاً(٦).

ويتلخص منهج ابن كثير في كتابه هذا في الآتي:

١- اهتم بالرواية بالأسانيد، وأكثر مروياته عن الإمام أحمد والبيهقي وأبي نعيم.

٢- لم يكتف بنقل ما كتبه كتاب السيرة، بل جمع ما رواه أهل الحديث، مما أكسب كتابه مزية خاصة.

٣- انتقد بعض الأسانيد عندما يرى غرابة في المتن.

٤- نقل عن بعض كتب السيرة المفقودة مثل كتاب موسى بن عقبة وآخرون.

٥- نقل عن بعض شرّاح السيره، كالروض الآنف للسهيلي.

٦- لم يلتزم حرفية نص ما ينقله بل ينقل أحياناً بالمعنى.

٧- لم يبال برواية كثير من الأخبار الواهية.

٨- مزج أخبار السيرة بروايات الأحاديث، فسن بذلك نهجاً جديداً لم يسبق إليه(٧).

٦- منهج ابن سيد الناس

أبو الفتح محمد بن محمد بن عبدالله بن سيد الناس (ت٧٣٤هـ)

له كتاب شهير في السيرة النبوية يعتبر من أمهات كتب السيرة المعتمدة، وهو كتاب شامل لحياة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) من حيث نسبه وولادته وحياته في السلم وفي الحرب..الخ حتى وفاته، مع تعرضه لذكر أعمامه وعماته، وأزواجه وأولاده وكل ما يتصل بحاشيته، واسم الكتاب: (عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسِّير ولابن سيد الناس منهج خاص في تأليف هذا الكتاب يتلخص في الآتي:

١- اعتمد في مادته في السيرة النبوية على ما أورده محمد بن اسحاق، والواقدي، وغيرهما.

٢- أورد الوقائع التاريخية بحسب تسلسها الزمني واقعة بعد أخرى.

٣- حيثما يجد ضرورة لدمج الوقائع الى بعضها فإنه يفعل ذلك.

٤- أخذ بمنهج المحدثين في ذكر الأحداث بأسانيدها..[٨].

٧- منهج ابن يوسف الصالحي

محمد بن يوسف الصالحي الشامي (ت٩٣٢هـ)

له كتاب في السيرة النبوية اسمه (سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد) حققه الدكتور مصطفى عبد الواحد، وطبعته لجنة إحياء التراث الاسلامي التابعة للمجلس الأعلى للشؤون الاسلامية في القاهرة، عام ١٩٧٣م.

ويتلخص منهجه في تأليف هذا الكتاب في الآتي:

١- استمد مادته من أكثر من ثلاثمائة كتاب.

٢- تحرى الصواب فيما نقل عن غيره من المؤرخين.

٣- لم يعتمد على الأحاديث الموضوعة.

٤- ختم كل باب من أبواب الكتاب بإيضاح ما أُشكل فيه وبيان غريب الفاظه.

٥- وضح مصطلحاته العلمية في الكتاب.

٦- كشف عن مصادر معلوماته.

٧- جمع فيه أطراف السيرة النبوية من جوانبها المختلفة[٩].

ثانياً: مناهج كتاب التاريخ العام:

١- منهج البلاذري

أحمد بن يحيى البلاذري. (ت٢٧٩هـ - ٨٩٢م)

نشأ في بغداد في أول حياته ثم رحل عنها لطلب العلم وزار عدداً من البلدان الاسلامية، والتقي علمائها.

للبلاذري كتب كثيرة، إلاّ أن أشهرها كتاب (فتوح البلدان)، وهو كتاب شامل لفتوح البلدان في مشرق الدولة الاسلامية وفي مغربها، ففيه تفصيلات لفتوح المسلمين لبلاد الشام والعراق، وإشارات لفتحهم بلاد الأندلس.

ومنهج البلاذري في كتابه (فتوح البلدان) يتلخص في الآتي:

١- في ترتيب مادة الكتاب راعى الموقع الجغرافي للبلد المفتوح بالإضافة الى مراعاته للعنصر الزمني، فقد تحدث أولاً عن فتوح النبي (صلى الله عليه وسلم) في الجزيرة العربية، ثم أخبار الردة بعد وفاته، ثم تحدث عن فتوح الشام، وما ألحق بها من بلدان، ثم انتقل للحديث عن فتح مصر وطرابلس وشمال افريقية وطنجة والأندلس.. وغيرها.

٢- كان إذا تحدث عن فتح أي بلد يذكر أحواله إلى عصره، مراعياً الترتيب التاريخي.

٣- استخدم منهج مؤرخي زمانه في توثيق المعلومات كجمعه للأسانيد، مثل قوله: (أخبرني جماعة من أهل العلم بالحديث والسيرة وفتوح البلدان، سقت حديثهم واختصرته ورددت من بعضه على بعض)[١٠].

٤- يورد بعض الأخبار من معلوماته ويسبقها بقوله: (قال).

٥- يعلق أحياناً على أقوال من سبقه.

٦- كان يذكر الروايات المتعددة ويتركها غالباً بدون ترجيح وأحياناً بترجيح، فهو لا يقف موقف العارض فقط بل يعلق برأيه على الرواية.

٧- الكتاب بصورة عامة يعطي صورة عن منهج البحث التاريخي في القرن الثالث الهجري، (التاسع الميلادي)، وتستند اليه كتابات المؤرخين المسلمين من الاعتماد على الإسناد ونظرتهم الموضوعية للأحداث، وإيجازهم في التعبير، وعدم لجوئهم الى الاستطراد، وبعدهم عن عبارات التهويل، واستخدامهم الأسلوب القصصي، وايرادهم الروايات المتعددة عن الخبر الواحد، ونقدها[١١].

٨- تميز منهجه بالدقة العلمية رغم إيجازه وتجنب التفصيل.

٩- كان يذكر سلوك المسلمين في أثناء الفتوحات، ويشيد بحسن معاملتهم لأهل البلاد المفتوحة، ويذكر تشريعاتهم وأنظمتهم التي سنوها في كل قطر.

٢- منهج الدّينوري

ابوحنيفة احمد بن داود الدينوري. (ت٢٨٢هـ ٨٩٦م)

فقيه ولغوي ومهندس ومؤرخ، تلقى العلم على يد علماء الكوفة والبصرة، ومن كتبه الشهيرة كتاب (الأخبار الطوال) الذي تحدث فيه حديثاً مطولاً ومفصلاً عن فتح العراق على يد العرب، وأسهب في الحديث عن معركة القادسية.

تحدث فيه أولاً عن آدم وأولاده الذين تكاثروا وتفرقوا في الأرض، وذكر ما وقع بينهم من تنازع الى أن يتحدث عن الأنبياء، ثم يعرج للحديث عن تاريخ الفرس وتاريخ ملوكهم ومن عاصرهم في بلاد العرب والروم.

وفي الكتاب معلومات مفصلة عن الأحداث والفتن التي وقعت بين المسلمين كمعركة الجمل وصفين ومقتل الحسين وثورات الخوارج.. وغيرها.

ويتلخص منهجه في تأليف هذا الكتاب فيما يلي:

١- مصادره غير واضحة لأنه لا يستعمل الإسناد، ولا ينص على مصادر معلوماته.

٢- سرد الأحداث بأسلوب قصصي متماسك، وعبارات واضحة.

٣- استعمل كلمة (قالوا) عند بداية كل موضوع جديد ويقصد بذلك أهل العلم الذين وجد الأخبار في كتبهم.

٤- أشار اشارات بسيطة الى بعض من أخذ عنهم ، مثل عبيد بن شريه الجرهمي صاحب كتاب الملوك وأخبار الماضين.. وغيره.

٥- كانت تعليقاته على الأخبار التي يسوقها قليلة جداً وترجيحه وموازنته بين الأخبار معدومة.

٦- يكتفي أحياناً بذكر رواية واحدة يختارها ولا يشير الى خلافها، مما أوقعه في بعض الأخطاء التاريخية.

٨- يذكر في بعض السنوات أسماء من توفوا فيها.

٩- كان ينتقي بعض الأحداث والروايات التي تخدم اتجاهه الشعوبي، حيث كان ينزع فيها نزعة فارسية[١٢].

٣- منهج الطبري

أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري.
(٢٢٤ - ٣١٠هـ)، (٨٣٨ - ٩٢٢م)

حفظ القرآن بطبرستان ثم رحل منها لطلب العلم، فأكثر من الترحال الى أن استقر في بغداد.

لابن جرير الطبري كتب كثيرة في الفقه والتفسير والتاريخ وغيرها، ومن كتبه الشهيرة في التفسير (جامع البيان في تفسير القرآن) وفي التاريخ اشتهر كتابه (تاريخ الأمم والملوك) وهو من كتب التاريخ العام، ويعتبر من أوسع كتب التاريخ وأغزرها مادة - رغم أنه لم يصلنا إلاّ مختصراً - وقد حاكاه وأخذ عنه من جاء بعده من المؤرخين كابن مسكويه وابن الأثير.. وغيرهما.

وقد بدأ الكتاب بمقدمة عن الكون، وعن إبليس، وعن خلق آدم وما صار اليه حتى هبط الى الأرض، ثم تحدث عن تاريخ البشرية منذ ظهور آدم وما كان في عهده وعهد أبنائه من أحداث، ثم انتقل للحديث عن الأنبياء وذكر من عاصرهم من الملوك، فأعطى معلومات قيمة عن تاريخ بني اسرائيل وأنبيائهم، وتوسع في تاريخ الفرس، وقارن بين تاريخ الفرس وتاريخ بني اسرائيل.

وتحدث عن تاريخ العرب من خلال حديثه عن الأنبياء، مثل هود وصالح وإبراهيم وإسماعيل وسليمان..وغيرهم، ووقف مطولاً عند بعثة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وأعطى معلومات قيمة عن قريش ومن جاورها من القبائل العربية.

ويتلخص منهج الطبري في كتابه (تاريخ الأمم والملوك) في الآتي:

١- اعتمد في مصادر معلوماته على القرآن الكريم وأقوال علماء التفسير التي رواها عنهم بأسانيدها، كما اعتمد على أقوال بعض الإخباريين.

٢- رتب الحوادث على أساس النظام الحولي، فابتدأ في تدوين تاريخ المسلمين من السنة الأولى للهجرة حتى وصل الى سنة ٣٠٢هـ.

٣- يختلف حجم كل حولية عن الأخرى بحسب وقوع الحوادث فيها فيطيل في بعضها ويقصر في الأخرى، حتى أن بعض حولياته بضعة أسطر وبعضها صفحة أو صفحتين وتصل بعضها الى صفحات كثيرة.

٤- لم يتبع نسقاً واحداً في سرد الأحداث، فأحياناً يذكر الحدث التاريخي ثم يذكر الروايات التي وردت فيه، وأحياناً أخرى يذكر جملة الأحداث التي وقعت في الحولية ثم يعود ليفصل كل حدث على حدة.

٥- يذكر اختلافات الرواة في تحديد زمن وقوع الحدث.

٦- يختم كل حولية بذكر من توفي فيها من المشهورين، كما يذكر أسماء الولاة على الأقاليم، ومن أقام الحج للناس..الخ.

٧- كان يضع عناوين للحوادث التي يذكرها، وعند ذكره للحادثة يذكر سبب وقوعها ويفصل القول في الحوادث المصاحبة لها ثم يعود من جديد لموضوع الحادثة بقوله: (نعود الى سياق خبر كذا وكذا...الخ).

٨- إذا كان الحادث يستغرق أكثر من حولية فإنه يجزئه على حسب تاريخ وقوعه، مما يفقدها بعض الترابط.

٩- إذا ذكر وفاة خليفة فإنه يذكر سبب وفاته ويعرض الروايات المختلفة في ذلك ويضيف اليها من أقواله.

١٠- اعتمد في السيرة النبوية على ما كتبته ابن اسحاق، وكان يعارض روايات ابن اسحاق بروايات الواقدي وابن سعد وروايات علماء التفسير والحديث.

١١- يمتاز بسعة معلوماته، وطول الفترة الزمنية التي يغطيها، وتعدد مصادره، وبجمعه لروايات المؤرخين والاخباريين الذين سبقوه ممن فقدت كتبهم، كما يمتاز بترتيبه الحوادث على السنين، وبرصده لبعض جوانب الحياة الاجتماعية.

١٢- كان يعلل الحوادث التاريخية، ولا يكتفي بعرض أحداثها، وكانت تعليلاته مستمدة من فلسفته الاسلامية، فهو يعتمد في تصوراته الفلسفية على القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة.[١٣]

٤- منهج المسعودي

أبو الحسن علي المسعودي (ت٣٤٦هـ ٩٥٧م)

ولد ونشأ في بغداد، أمضى شبابه في التجوال، فزار فارس وكرمان والهند وسرنديب ومدغشقر وغيرها. ثم استقر في مصر عام ٣٤٥هـ (٩٥٦م) وفيها توفي.

وللمسعودي عشرات الكتب التي تحوي أخبار رحلاته ومشاهداته وتجاربه، غير أن أشهر كتبه التي وصلتنا كتابه (مروج الذهب) الذي يعتبره المؤرخون من أبرز المصنفات العربية في التاريخ والجغرافية.

وتحدث المسعودي في (مروج الذهب) عن الشعوب والبلاد المجاورة للعالم الاسلامي في عصره، وهذا ما لم يسبقه إليه مؤرخ من قبل، فقد تحدث عن البلدان في غاية الدقة والعمق وطرق موضوعات جديدة لم يطرقها من سبقه من المؤرخين المسلمين.

لقد تحدث عن تواريخ الهند والفرس والروم واليهود كما أبرز تاريخ العرب في العصر الجاهلي وأديانهم وعاداتهم وأيامهم.

ووضع المسعودي لنفسه منهجاً في كتابة التاريخ يتميز بالجدة، فقد استطاع بواسطته أن يطور الدراسات التاريخية، ويمكن تلخيص هذا المنهج في الآتي:

١- ابتعد عن طريقة التاريخ بالسنين.

٢- قسم بحوثه التاريخية على أساس الموضوعات.

٣- جعل الشخصيات التاريخية - أحياناً - محوراً لدراسته.

٤- مزج الدراسات التاريخية بالجغرافية، وفتح آفاقاً جديدة في الدراسات الاجتماعية والاقتصادية والدينية.

٥- أدخل منهجاً جديداً في الدراسات التاريخية يعتمد على النقد التاريخي فلم يجامل أحداً، ولم يتحامل على أحد، ورغم ميله الى مبادئ المعتزلة لكنه لم يتعصب لها.

٦- لم يلجأ الى السرد التاريخي، بل اهتم بالتحليل الموضوعي للتاريخ، فبحث عن المسببات والدوافع، ونقد الأحداث فوصل الى نتائج هامة.

٧- اعتمد في منهجه على المشاهدة، فقد كان شاهداً عياناً لكل الأماكن والشعوب التي تحدث عنها، ولم يعتمد على الروايات السماعية التي اعتمد عليها من سبقه من المؤرخين.

٨- تميز منهجه بالعقلية التاريخية حيث اهتم بالتطور الزمني وربط بين الأحداث التاريخية، وعقد مقارنات كثيرة بينها[١٤].

٥- منهج ابن الأثير

أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني (٥٥٥هـ - ٦٣٢هـ)، (١١٦٠ - ١٢٣٤م)

ولد بجزيرة ابن عمر سنة ٥٥٥هـ (١١٦٠م) ونشأ بها، ثم سار الى الموصل مع والديه وسكنها، وأخذ عن علمائها ورحل الى بغداد ودمشق وبيت المقدس، ثم عاد الى الموصل، واستقر فيها وانقطع الى العلم والتأليف.

تلقى أكثر علومه ومعارفه في الموصل، فسمع الحديث وقرأ الفقه والأدب والنحو، ثم اتصل بخدمة السلطان وارتقى في المناصب حتى وصل الى كاتب سر السلطان.

ولابن الأثير مؤلفات كثيرة، غير أن أشهرها كتابه (الكامل في التاريخ)، وهو يقع في اثني عشر جزءاً، ويعتبر من أكثر كتب التاريخ المتداولة بين أيدينا، وهو مصدر رئيسي من مصادر التاريخ الاسلامي.

وقد تحدث في بداية الكتاب عن بدء الخليقة، والطوفان وسرد

الأحداث والوقائع اللاحقة حتى العام ٦٢٨هـ (١٢٣١م).

اشتمل الجزء الأول على تواريخ الفرس والروم والعرب و ذكر وقائعهم وأيامهم واقعة واقعة ويوماً يوماً، وهو أول كتاب يتناول بالتفصيل تاريخ العرب قبل الإسلام.

أما الجزء الثاني فيتحدث فيه عن تاريخ الاسلام ويبدأوه بالحديث عن الرسول ونسبه، ثم عن ظهور الاسلام، وما رافق ذلك من أحداث ووقائع، وينتقل للحديث عن الخلفاء الراشدين ومن تلاهم.. وهكذا. ثم يتسلسل في سرد الأحداث والوقائع التاريخية بحسب السنين الى آخر الجزء الثاني عشر.

وفي الجزء الثاني عشر يفصل القول في الأحداث التي عاصرها، ومنها اكتساح جنكيزخان بلاد المسلمين.

ومنهج ابن الأثير في كتابه (الكامل في التاريخ) يمكن تلخيصه في الآتي:

١- رتب الكتاب كله على السنين، فكل سنة فيه على انفراد، وقد خرج في ذلك على مألوف من سبقه من المؤرخين الذين كانوا يذكرون الحادثة في سنين ويذكرون منها في كل شهر أشياء مما يجعلها متقطعة فينتفي منها الغرض، ويصعب فهمها، فكان يجمع الحادثة الواحدة في موضع واحد، ويذكر كل شيء يتعلق بها في شهره، مما جعل الحوادث متناسقة ومتتابعة.

٢- كان يفرد للحوادث الصغيرة موضعاً واحداً في آخر كل سنة يسردها مجتمعة.

٣- اعتمد في مصادره على ما كتبه المؤرخون السابقون له، وعلى وجه الخصوص على (تاريخ الملوك) للطبري، فقد ضم الكتاب كله تقريباً بعد أن حذف منه الأسانيد.

٤- قلّد الطبري في ترتيب الحوادث، ولكنه اختصر النصوص المطولة، ثم أضاف الى كل حادثة ما حدث من وقائع بعد وفاة الطبري.

٥- تميز منهجه بالتمحيص والنقد، فقد كان ينقد الروايات التاريخية ويضيف اليها إضافات من عنده.

٦- كان يتشدد في التثبت مما ينقل، وينقد أحياناً المصادر التي يستمد منها معلوماته، وله استدراكات على بعض المؤرخين السابقين ومن ضمنهم الطبري.

٧- انفرد بروايات كثيرة لم ترد في المصادر والكتب التي أخذ منها كتاريخ الطبري والبلاذري والمسعودي وغيرهم، واتسمت بعض رواياته - لهذا السبب - بالضعف والاصطناع. وربما كان غرضه من ذلك إكمال النقص الموجود عند المؤرخين السابقين له.

٨- تجنب الإسهاب بذكر الأسانيد، وابتعد عن إيراد الروايات المتعددة حول الخبر الواحد.

٩- كان - أحياناً - يتوسع في الروايات الموجزة التي يجدها عند الطبري أو غيره، فيذكر الرواية التاريخية بتفصيلاتها، ويصف الحادثة بكل تشعباتها حتى نهايتها.

١٠- يتدرج في الحديث، ويتسلسل بذكر الوقائع.

١١- أورد كثيراً من الأساطير والخرافات مما جعله يستطرد أحياناً أو يسترسل.

١٢- استشهد في بعض الحالات بالقصائد أو المقطوعات الشعرية، خاصة فيما يتعلق بالرواية التي يذكرها(١٥).

٦- منهج ابن خلدون

عبد الرحمن بن خلدون (ت٨٠٨هـ، ١٤٠٥م)

ينتهي نسبه الى وائل بن حجر من عرب اليمن، أقامت أسرته في تونس، حيث ولد ونشأ وتعلم بها، تنقل في بلاد المغرب والأندلس، ثم أقام بتلمسان، وشرع تأليف تاريخه، ومنها انتقل الى مصر، ورافق جيش المماليك الذي أرسل لصد زحف تيمورلنك، انقطع للتأليف والتدريس، فأتم كتابه الشهير (العبر وديوان المبتدأ والخبر) في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) هذا هو اسم الكتاب المعروف بتاريخ ابن خلدون، ذو القيمة التاريخية الكبيرة بين كتب التاريخ الاسلامي، لما تميز به من منهج علمي في كتابة التاريخ.

ويمتاز منهج ابن خلدون في تأليف هذا الكتاب بالطريقة الجديدة في كتابة التاريخ، وهي طريقة مبتكرة لم تعهدها كتب التاريخ من قبل.

ويمكن تلخيص منهج ابن خلدون في الآتي:

١- عدل عن الطريقة الخبرية في سرد الحوادث التاريخية، القائمة

على أساس الترتيب السنوي، فأعاد تقسيم التاريخ الى أقسام كل قسم يختص بأمة أو بأسرة.

٢- صدّق المعلومات التي جمعها عن البربر، رغم ما فيها من افاضة واستيعاب.

٣- قسم كتابه الى ثلاثة أقسام رئيسية، في القسم الأول منه، مهد لدرس التاريخ، ومقدمة في الحضارة، وفي القسم الثاني تحدث بإسهاب عن تاريخ العرب وغيرهم من الشعوب، وبدأ منذ بداية الخليقة حتى القرن الثامن الهجري، وفي القسم الثالث يتناول تاريخ البربر، وينهيه بكتاب مستقل سماه (رحلة ابن خلدون في المغرب والمشرق) ويتضمن تاريخ حياته.

وقد اكتسب الكتاب أهميته وذاعت شهرته بفضل القسم الأول منه أي مقدمته، التي نالت شهرة عظيمة في الشرق وفي الغرب.

وقسّم ابن خلدون مقدمة كتابه الى مقدمة في فضل التاريخ، وأتبعها بستة فصول كبار، تناول في الفصل الأول العمران البشري وأصنافه وقسطه من الأرض، وفي الفصل الثاني تناول العمران البدوي وذكر القبائل والأمم الوحشية، وفي الفصل الثالث تحدث عن الدول والخلافة والملك، وذكر المراتب السلطانية، وفي الفصل الرابع تحدث عن العمران الحضري والبلدان والأمصار، وفي الفصل الخامس تحدث عن الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه والملك، وذكر المراتب وتعلمها.

وفي هذ التقسيم يتضح منهج ابن خلدون العلمي في كتابة التاريخ، وهو المنهج الذي تميز به عن علماء عصره، ويتلخص منهجه فيما يلي:

١- الدقة في العرض والبراعة في التنسيق، فقد عرض موضوعات المقدمة عرضاً منطقياً فيه قوة وتماسك وفيه الأفكار واضحة، مما يشهد له بالتفوق والعبقرية.

٢- وضع أسساً علمية، وقواعد صحيحة للبحث التاريخي فكشف بذلك عن منهجه العلمي في البحث، وأوضح قيمة التاريخ ومذاهبه.

٣- ناقش المؤرخين فيما ذهبوا إليه من مزاعم وما ارتكبوه من أغلاط.

٤- ارجع أخطاء المؤرخين الى التشيع والتعصب المذهبي والميل والهوى الشخصي، وتملق الأقوياء.

٥- المؤرخ في رأيه هو الذي يلم بأحوال المجتمع وطبائعه، لتكون أحكامه صحيحة على الوقائع التاريخية.

٦- نصح المؤرخين بعدم استخدام قاعدة الجرح والتعديل إلاّ بعد أن يتبين لهم أن الحادثة تتفق مع طبيعة العمران أو لا تتفق.

٧- يحمل على المؤرخين لاعتمادهم على النقل غثاً أو سميناً لأنهم لم يعرضوها على أصولها، ولم يقيسوها بأشباهها، ولم يسبروها بمعيار الحكمة، ويطالبهم الوقوف على طبائع الكائنات، ويحكموا النظر والبصيرة في الأخبار، لذلك فهو يصف المؤرخين بأنهم ضلوا عن الحق، وتاهوا في بيداء الوهم والغلط، خصوصاً حين يحصون الأعداد والأموال والعساكر التي يعرضونها في الحكايات، وهذه - في رأيه - مظنة الكذب ومطية الهذر، ولا بد من ردها الى الأصول وعرضها على القواعد.

٨- نفى أن يكون للخرافات أثر في تعليل حوادث التاريخ، وبرهن أن الحوادث التاريخية مقيدة بقوانين طبيعية واجتماعية.

٩- أعتقد أن التاريخ في حقيقته خبر عن الاجتماع الانساني بكل ما فيه، لذلك أخذ يدرس المجتمع ليكشف عن العوامل التي تكسب الأمم كيانها وطبائعها ومزاياها، وهو بذلك يكون قد أرسى أسس علم الاجتماع، وفتح آفاقاً واسعة للباحثين في هذا المجال[١٦].

ثالثاً: مناهج كُتَّاب تاريخ الأمصار الإسلاميَّة

١- منهج الهمداني

الحسن بن أحمد الهمداني (ت٣٣٤هـ ٩٤٥م)

ولد بصنعاء في اليمن، يعرف بابن الحائك، وهو من علماء القرن الرابع الهجري، مؤرخ، وجغرافي، ونسابة، وشاعر، عني بدراسة الأدب الشعبي القديم في اليمن، ترك كثيراً من المؤلفات أشهرها (الاكليل) وصفه جزيرة العرب، وغيرها.

ظهر الهمداني في عصر التشتت السياسي والمذهبي والتعقيد الاجتماعي، ولكنه استطاع أن يلم بمختلف علوم عصره، وتفرد

على بعض علماء زمانه، فأتى بكثير من النظريات العلمية التي ما كان يمكن الجهر بها.

لقد جهر بالقول بكروية الأرض، وأنكر أنها مسطحة وهو القول الشائع حينذاك، وأقام البرهان على ذلك بالأقيسة والأدلة العقلية، وقد أشار الى ذلكْ في مقدمة كتابه (صفة جزيرة العرب).

وهو من أوائل العلماء الذين كشفوا النقاب عن تاريخ اليمن، وأبرزوا حضارته القديمة، وأزاحوا الستار عن الخط الحميري (الخط المسند).

وللهمداني منهج فريد في كتابة التاريخ يتجلى بوضوح في كتابه الشهير (الاكليل)، ففي (الاكليل) كشف الستار عن دول اليمن القديمة، وما كانت تتمتع به من شورى وديمقراطية معتمداً على قراءته للنقوش القديمة واستنطاقه للآثار وإلمامه بالتاريخ وفهمه للقرآن.

ويتخلص منهج الهمداني في الاكليل في الآتي:

١- عدم التكلف في الاسلوب، وهو بذلك يخالف معاصريه الذين كانوا يتكلفون في أساليبهم.

٢- كان واقعياً في معالجة الأحداث التي يتناولها، ودقيقاً في أوصافه.

٣- كان يمحص الخبر ولا يأخذه كما هو بل يخضعه للعقل والمنطق، ويشك فيما لا يراه مطابقاً للعقل والواقع.

٤- كان يلجأ - أحياناً - الى تدعيم معلوماته بآيات قرآنية وأحاديث نبوية وأشعار العرب، وأمثالهم.

٥- لما كان الهمداني ملماً بالخط الحميري فقد تمكن من كشف رموز الخط المسند، فاستطاع أن يعقد مقارنة بين قواعد الكتابة في الخط المسند وبين الكتابة العربية.

٦- أكثر من الاسلوب القصصي، فكانت معظم قصصه تاريخية أسطورية، يأتي بها لتوضيح مقولاته حول أثر أو قبر أو غير ذلك، وكان يعتمد علي الاسناد عند ذكره للقصة[١٨].

٢- منهج عمَّارة اليمني

نجم الدين عمارة بن الحسن علي الحكمي اليمني (ت٥٦٩هـ)

شاعر ومؤرخ، ولد باليمن، ومات بالقاهرة، اشتغل بالتجارة بين زبيد وعدن، أوفده أمير مكة قاسم بن الهاشم رسولاً الى الفاطميين في القاهرة عام ١١٥٥م، ورجع في نفس العام الى مكة ومنها الى زبيد، وحجَّ ثانية عام ١١٥٧م فبعثه الأمير الى القاهرة مرة ثانية، فاستقر فيها طالباً للجاه والمال وهناك التقى بالأمراء والوزراء من الفاطميين فمدحهم بشعره، حتى قضى صلاح الدين الأيوبي على دولة الفاطميين فبكاها، ثم مدح صلاح الدين، ولكنه تآمر عليه مع جماعة من الأعيان لإعادة الفاطميين فشنقهم[١٩].

ولعمارة اليمني عدد من الكتب أشهرها كتابه (تاريخ اليمن) وكتاب (المفيد في أخبار زبيد) وكتاب (النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية) بالإضافة الى ديوان شعر..وغيرها.

وقد ألَّف عمارة اليمني كتاب (تاريخ اليمن) بأمر من القاضي أبي علي عبد الرحيم البيساني، الذي طلب منه أن يضع كتاباً يجمع فيه ما يعرفه عن اليمن، وقد استجاب عمارة للطلب. فألف الكتاب، ونهج في تأليفه منهجاً خاصاً يمكن تلخيصه في الآتي:

١- غرض المؤلف من الكتاب ليس التدوين التاريخي وإنما تزجية فراغ أحد العظماء وهو القاضي الفاضل البيساني، لذلك أبرز فيه ما يحقق هذا الغرض من فكاهة أو نادرة.

٢- تلمس المسائل الهامة لمساً رقيقاً.

٣- أكد على الحقائق التاريخية الرئيسية المتعلقة باليمن في عصره.

٤- يمتاز أسلوبه بالبساطة والسلاسة.

٣- منهج الخزرجي

موفق الدين علي بن الحسن بن وهاس الخزرجي (ت٨١٢هـ)

أديب ومؤرخ يمني، اشتغل بالكتابة التاريخية، وله في ذلك عدد من الكتب، مثل (المسجد المسبوك من تولى اليمن من الملوك) وكتاب (العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية)..وغيرها.

وكتاب (العقود اللؤلؤية) خصصه المؤلف بكامله للحديث عن الدولة الرسولية، من أول دولة الملك المنصور عمر بن علي بن رسول مؤسس الدولة الرسولية باليمن، إلى آخر دولة الملك الأشرف الرسولي. وقد نهج فيه منهجاً خاصاً يمكن تلخيصه في الآتي:

١- جمع في الباب الأول نبذة موجزة عن تاريخ ملوك حمير

وغسان في الجاهلية والإسلام، أبان فيها تشييد السد وخرابه بسيل العرم.

٢- أسهب في ذكر انتساب ملوك الشام في الجاهلية من غسّان.

٣- أوجز تاريخ بني رسول في الاسلام، و ظهورهم في اليمن قبل استلامهم الحكم وبعده.

٤- تطرق للحديث عن أحداث اليمن وأعلامها..الخ[٢٠].

٥- اعتمد كثيراً في مادته التاريخية على ما استوحاه من تاريخ الجندي.

٤- منهج ابن الديبع

وجيه الدين عبد الرحمن بن علي الديبع (ت٩٤٤هـ)

ولد بزبيد سنة ٨٦٦هـ، أخذ بعض علومه عن خاله جمال الدين كما سافر الى مكة للحج ولطلب العلم وتلقى علومه على يد بعض شيوخها ثم عاد الى زبيد في اليمن، وعكف على التأليف، ومن كتبه الشهيرة كتاب (بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد). وكتاب (قرة العيون في أخبار اليمن الميمون) وغيرها.

ومنهج ابن الديبع في الكتابة التاريخية يمكن اكتشافه من خلال الاطلاع على كتاب (قرة العيون في أخبار اليمن الميمون) ويتخلص منهجه في الآتي:

١- استمد مادة كتاب (قرة العيون..) من كتاب (الكفاية والإعلام فيمن ولي اليمن وسكنها من الاسلام) للخزرجي.

٢- الجزء الأول من كتاب ابن الديبع (قرة العيون) تلخيص للجزء الرابع من كتاب الخزرجي آنف الذكر.

٣- الجزء الثاني فيه تلخيص للجزء الخامس من كتاب الخزرجي.

٤- بقية فصول الكتاب أضافها المؤلف من عنده، فقد استكمل تاريخ الدولة الرسولية إلى نهايتها.

٥- أسهب في الحديث عن دولة بني طاهر وتابع أحداثها حتى نهايتها. وتوسع.

٦- أفرد فصلاً للحديث عن خضوع اليمن لدولة المماليك في مصر[٢٢].

٧- يتميز أسلوبه باللغة الفصيحة والتكلف والسجع، مع جمال في التعبير.

٥- منهج يحيى بن الحسين

يحيى بن الحسين بن القاسم (ت١١٠٠هـ)

مؤرخ يمني معروف، ومن كتبه الشهيرة كتاب (غاية الأماني في أخبار القطر اليماني) ويسمي أيضاً (عقيلة الدُمن المختصر من أنباء الزمن في أخبار اليمن).

ويتلخص منهج المؤلف في هذا الكتاب في الآتي:

١- الكتاب في مجمله مختصر لكتاب آخر للمؤلف اسمه (أنباء الزمن في أخبار اليمن) الذي فيه كثير من الاستطرادات.

٢- يبتدئ الكتاب بنبذة موجزة عن اليمن ومكانتها في العالم.

٣- يعرج للحديث عن النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) من حدث نشأته حتى هجرته بإيجاز شديد.

٤- لم يهتم بالأحداث الاسلامية كثيراً، مما حصر عمله كله في أحداث اليمن وتاريخها.

٥- اتبع فيه نظام الحوليات بحسب تسلسل السنوات الهجرية.

٦- اعتنى كثيراً بأخبار انتشار الاسلام في اليمن.

٧- ذكر أسماء عمال النبي (ص) على اليمن وبعض أهم أعمالهم.

٨- تحدث عن اليمن في ظل بني أمية وبني العباس، وما حصل من أحداث داخلية وخارجية.

٩- أعطى بعض التعليقات على الأحداث من وجهة نظره.

١٠- أشار الى بعض الأمور الاجتماعية والاقتصادية، ومثل إشارته الى شجرتي القات والبن وبداية ظهورهما في اليمن وأثرهما على حياة الناس.

١١- يعتبر الكتاب بمثابة دائرة معارف في تاريخ اليمن[٢٣].

اسهام العلماء المسلمين في منهج البحث التاريخي

مما لا شك فيه أن البحث التاريخي عند العلماء المسلمين محكوم بالعقيدة الاسلامية وتصوراتها عن الله والكون والحياة والانسان وسر وجوده ووظيفته ومصيره.

لذا فإن المؤرخ المسلم لا بد أن يلتزم بالمنهج الاسلامي في تصوراته لتأكيد العقيدة الاسلامية وتعزيز قيمها الاجتماعية والأخلاقية، فهو لذلك ليس حراً في تفسير الحوادث كيفما شاء، بل يكون مقيداً بعدد من الضوابط أو القوانين العلمية لاثبات معلوماته أو لتأكيد صحة أخباره ورواياته.

من أجل ذلك كان المؤرخ العربي المسلم ملزماً بالتدقيق في الرواية التاريخية وتأكيد صحتها بالأدلة المقنعة، والبحث في عدالة رواتها واتصال سندها..الخ.

وحتى لا يقع المؤرخ المسلم في الخطأ، فقد وضع لنفسه قواعد وشروطاً يراعيها عند بحثه لأية ظاهرة تاريخية أو دراسته لأي حدث تاريخي. وهذه القواعد تتخلص فيما يلي:

١- صحة العقيدة الاسلامية ومعرفته بعلوم الشريعة والفقه لتكون تصوراته وأحكامه مستمدة من روح العقيدة الاسلامية، حتى لا ينكر ما أجمع عليه الناس فيما يتعلق بالعقيدة، كالإيمان بالغيب والجزاء والحساب والقضاء والقدر..الخ. لأن أفكار هذه المسائل فيه نقص كبير في المنهج العلمي للبحث التاريخي.

٢- لا يعالج انحرافاً بانحراف، فإذا ما وقع انحراف عند التطبيق فإن المؤرخ المسلم بوحي من ايمانه وعقيدته يسعى الى معالجة الانحراف واصلاح مكامن الخطأ فيه، لأنه لا يفسر التاريخ تفسيراً تبريرياً، بل يفسره من منطلق فهمه لدوافع السلوك الانساني في المجتمع الاسلامي.

٣- الحرص على استعمال الوثيقة بعد التأكد من صحتها، لتكون دليلاً - لا يحتمل الشك - على صحة الحكم.

٤- اتباع وتنظيم وترتيب ملائم للأدلة لضمان سلامة الاستدلال وحسن العرض.

٥- الأمانة في استقصاء الحقائق بإيراد الأدلة المختلفة والجمع بينها وسرد الروايات المتعددة والترجيح بينها، والتأكيد على أقوال الثقاة من الرواة.

٦- ذكر المصادر والمراجع التي أخذ عنها.

٧- الضبط المتقن للأقوال ونسبتها لأصحابها.

٨- التحرر من الأوهام والظنون والاعتماد على النصوص الشرعية والحقائق العلمية.

٩- التحرر من الهوى الشخصي، والتجرد من الذاتية في اصدار الاحكام أو تقرير الحقائق.

١٠- الالتزام بدلالة الألفاظ وعدم تأويل الألفاظ واخراجها عن دلالتها الحقيقية دون قرائن واضحة.

١١- رفض المتناقضات، وعدم قبول كل ما يخالف أصول الدين، حتى لو كان من رواة ثقاة.

١٢- الابتعاد عن التجريح الشخصي، واقتصار النقد على ذكر الاخطاء.

١٣- التأدب عند ذكر الله ورسوله والصحابة والعلماء.

١٤- احترام الأنبياء وانزالهم مكانتهم.

١٥- التواضع في العلم، وتجنب القول بدون علم، والاعتراف بالعجز والقصور، ووزن الأشياء بميزان العقل.

ورغم هذه القواعد المحكمة التي استيقناها من منهج معظم المؤرخين المسلمين إلاّ أنهم لم يتقيدوا بها دوماً كما سنوضح ذلك في الصفحات القادمة.

منهج نقد التاريخ عند العلماء المسلمين

إن من يقرأ القرآن الكريم يجد جانباً كبيراً منه ينصب على تحذير البشرية من مغبة التمادي في الأخطاء والأمم السابقة، فهو يدعو الى تفحص التاريخ، وتأمل الوقائع والحوادث التاريخية.

فالقرآن حينما يقدم القصص لايقدمها لمجرد اشباع حاجة القارئ الى القصص، ولا إلى تلبية حاجة المؤمن الى معرفة أخبار الماضين ما حدث لهم في غابر الزمان، ولكنه يقدم القصص لغرض الاتعاظ بها، حتى يتجنب المسلمون الوقوع في مزالق الاخطاء التي أدت بحياة المئات من الأمم، وقضت على آلاف من البشر عبر العصور.

والقرآن بذلك يقدم منهجاً متكاملاً للتعامل مع التاريخ البشري، فليس الغرض من كتابة التاريخ عرض الحوادث وتسجيل الوقائع التاريخية فحسب، بل الغاية هي استخلاص العبر وصياغة قوانين علمية تحدد العلاقة بين البشر، وتحكم الظواهر الاجتماعية التاريخية.

فالتاريخ في نظر العلماء المسلمين يستند الى منهج القرآن، فهو ليس مجرد استقصاء الحوادث التاريخية وعرضها أو سردها، وإنما هو ميدان لاستخلاص القيم الايجابية في المجتمعات البشرية، لصياغة قوانين اجتماعية جديدة على هدي دراسة الماضي.

لذلك فإن المؤرخين المسلمين نظروا الى الحوادث التاريخية نظرة علمية واقعية وشاملة على امتدادها الزمني، وأعطوا لكل

حدث حجمه الحقيقي من غير زيادة ولا نقصان، فكانوا يفسرون الحدث تفسيراً واقعياً، وينقدون مسار الأحداث نقداً موضوعياً، فهم ينظرون الى الحدث كما وقع وليس كما كانوا يريدون أن يكون، مما يجعلهم يصوغون التاريخ صياغة صادقة وصحيحة ليس فيها زيف ولا تشويه.

فالتاريخ باعتباره وحدة زمنية تفصل بين الماضي والحاضر والمستقبل فإن المؤرخ الاسلامي يحرص على أن يجعل هذه الوحدة متصلة وحيوية ومستمرة التواصل، لتغدو حركة التاريخ دائبة، حتى يحصل نوع من التوافق بين الأزمنة الثلاثة.

وعلى هذا الأساس فإن تفسير التاريخ ونقده لا بد أن ينبثق من رؤية موضوعية شاملة للربط بين العلاقات المتبادلة التي تصنع التاريخ سواء كانت مادية أو روحية، ولن يتحقق هذا الربط إلاّ من خلال موقف واضح من قبل المؤرخ، وهذا ما توفر لدى المؤرخين المسلمين.

فابن خلدون مثلاً يضع قواعد للتحقيق التاريخي وضوابط لنقد التاريخ، على نحو لم يسبق اليه، فقد كشف في مقدمته أغلاط المؤرخين، وناقشهم فيما قالوه وفي رأيه أن الأسباب التي دفعت المؤرخين الى الغلط ترجع الى التشيع والتعصب المذهبي، والميل والهوى الشخصي وتملق الأوقوياء، ويمثل لذلك بقوله:

«إذا كان المؤرخ مثلاً من الشيعة حاول قدر استطاعته أن يسيء الى الأمويين، وأن يملأ تاريخهم بأشنع الفظائع، وكذلك إذا حاول التقرب من الملوك فإنه يغضي عن السيئات، ويجسم الحسنات، ويبالغ فيها وربما اختلق من الحوادث ما يرفع به شأن الملوك، ثم إلى تصديق المؤرخين لكل ما ينقلونه من غير محيص ولا نقد، ولو أن المؤرخين رجعوا الى قاعدة التعديل والتجريح التي يتبعها علماء الحديث لأدوا للتاريخ خدمة عظيمة»[١١].

وينصح ابن خلدون المؤرخ بدراسة الحادثة التاريخية دراسة وافية، والتأكد مما إذا كانت تتفق مع طبيعة العمران أو لا تتفق. فيقول:

فالمؤرخ الذي لا يلم بأحوال المجتمع وطبائعه لا يمكن أن تكون أحكامه صحيحة على الوقائع والحوادث»[١٢].

ويتحامل على المؤرخين الذين يغالطون في التاريخ ويزيفون الوقائع لاعتمادهم على النقل دون تمحيص الغث من السمين، ويلومهم على عدم تعريض الحادثة للنقد بمقارنتها مع أصولها أو قياسها مع أشباهها، ويطالبهم بسبرها بمعيار الحكمة، ويلزمهم بالوقوف على طبائع الكائنات، وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار التي يتناقلونها.

ونفى ابن خلدون في موضع آخر من مقدمته أن تكون للخرافات أثر في تعليل حوادث التاريخ، وبرهن أن الحوادث مقيدة بقوانين طبيعية واجتماعية.

وانطلاقاً من الاعتقاد بأن التاريخ خبر عن الاجتماع الانساني فإن ابن خلدون يطالب بدراسة المجتمع الانساني لكشف العوامل التي تكسب الأمم كيانها وطبائعها وميزاتها. كدراسة البيئة الطبيعية وأثرها في تكوين الأمم، ودراسة العوامل الاجتماعية وأثرها في نشأة الأمم. فهو يرى أن تكوين الجماعة الانسانية تنشأ بدافع غريزة حب الاجتماع التي فطر عليها الانسان، وبسبب ذلك تنشأ الاسرة ثم القبيلة، ثم ينشأ التنافس بين القبائل، فتتغلب قبيلة على أخرى، وحينئذ يقوم المُلك، والمُلك في نظره من دواعي استقرار المجتمع البشري وتحضره، وبه تنتقل القبيلة من حياة الظعن والرحلة في الصحراء إلى حياة الإقامة في المدن والأمصار، وإذا نشأت المدن أخذ الترف يدب في جسم الدولة، لأن ذلك من لوازم الحضارة.

ويرى ابن خلدون أن الترف إذا استمر قد يفت من عضد الدولة، ويكسر من شوكتها، حتى تستسلم للضعف فتفنى، ثم يصل الى استنتاج مفاده أن الحضارة هي نهاية تطور الجماعات البشرية المتمدنة.

واذ كان بعض المؤرخين المسلمين أمثال ابن هشام والواقدي والمسعودي قد بالغوا في سرد بعض أسباب الحوادث التاريخية ووقعوا في كثير من الأوهام فإن المؤرخين الأوروبيين حينذاك كانوا في غفلة تامة عن العوامل الحقيقية التي تؤثر في مجرى الحوادث التاريخية، فقد كانوا يعللون الحوادث بالاعتماد على السحر والتنجيم والكهانة.

وكان المؤرخون المسلمون في غالبيتهم لا يأخذون الرواية التاريخية إلاّ بعد فحصها وتمحيصها تمحيصاً داخلياً وخارجياً، ويدرسون الحادثة من جميع جوانبها ويحللون الروايات الواردة

حولها ويوازنون بين الروايات المختلفة للواقعة الواحدة، سواء تلك الروايات التي رواها أصحاب الحق فيها، أو تلك التي رواها المناؤون لها.

ويلجأون أحياناً الى كشف سند الرواة فما كان للواقعة من الأسانيد وما يعززها أخذوا به وإلاّ فإن لهم رأياً في الواقعة وأسبابها.

ويتميز المؤرخون بالاسترسال في النقل مما يجعل الحادثة تخرج من حال الكيفية إلى حال الكمية، فيدحل على الحادثة الغث والسمين، والضعيف والرصين، مما يجعلها تحتمل الصدق أو الكذب، والقبول أو الرفض، فالطبري مثلاً على مكانته الرفيعة بين المؤرخين لا يحجم من الاعتماد على رواة ضعاف الأدلة تنقصهم الخبرة والتفهم العميقين، مما لا يصح الأخذ عنهم والسير في ركابهم، ومع ذلك فإنه أمانة الطبري في النقل لا غبار عليها، ولهذا السبب - ربما - نجد بعض التناقض في رواياته وحوادثه، خصوصاً أن الرواة كانوا يتعمدون أساساً على الذاكرة فيما يرون، وقد يندفع الراوي حيث الحديث عن الواقعة إلى نوع من الشطط متأثراً بحياته الخاصة أو الظروف المحيطة، فينعكس ذلك على ما يرويه من حوادث تاريخية، لذا فإن إلتزام اليقظة في دراسة النصوص التاريخية وتفحصها ونقدها ومقارنتها وترك الضعيف منها أمر مهم وضروري، لأن الحادثة لم تدون تدويناً علمياً.

ولم يكن غرض المؤرخين من الاكثار من جمع النصوص وبروايات مختلفة، إلاّ تثبيت الواقعة، ولم يلتفتوا الى التناقض الحاصل في الروايات، فمثلاً يروى أن هماماً كانت هوايته المتاجرة بالكتب، أو التظاهر بالعلم ومعرفة الأمم، فدفعت به هذه الهواية الى دس كثير من الاسرائيليات في كتب المسلمين، فظهرت هذه الملفقات بعد حين من الزمن[١٣]، مما جعل تلك الملفقات مثارجدل بين أصحاب المذاهب الاسلامية.

وإذا كان هناك بعض التناقض في سرد الحكايات التاريخية فمرجع ذلك - ربما - الى تقوّل بعض الرواة وإلى اختلاقهم لبعض الوقائع مما جعل الأفكار تتصارع في أذهان المدونين أو الى قيام السلطات الحاكة بطمس أية محاولة لتدوين أشياء تتنافى مع سياستها، أو تعارض سلطتها وفلسفتها.

ومن هنا فإن المؤرخين المسلمين - رغم ما بذلوه من جهد في تدوين التاريخ - تأثروا بصورة أو بأخرى باختلاقات الرواة، أو تدخل السلطات، مما جعل بعض ما دوَّنوه بحاجة الى المزيد من النقد التاريخي ووضعه موضع الشك، لأن منهجية الشك في التاريخ أمر تفرضه الضرورة العلمية لتفهم التاريخ، مع الاعتراف بوجود الحقائق المرتبطة بالزمان والمكان. وألاّ يبقى الشك نوعاً من العبث غير الجدي، فمنهج الشك في الوقائع التاريخية قرره المؤرخون المسلمون أنفسهم وعلى رأسهم ابن خلدون الذي أنكر على سبيل المثال ما رواه المؤرخون بأن ملوك التبابعة قد غزوا بلاد المغرب والصين والترك والروم، وبين استحالة ذلك مادياً، وأنه ممتنع في العادة بأدلة تقبلها العقل.

ومنهج الشك منهج علمي من مناهج المعرفة الانسانية، وهو وسيلة المؤرخين للنقد التاريخي.

الهوامش

١- انظر: محمد بن صامل السلمي. منهج كتابة التاريخ الاسلامي. ص٣٤٦ - ٣٥٣.

٢- انظر المرجع السابق ص٣٥٤ - ٣٦٠.

٤- كشف الظنون: ح٢ ص١٠١٢.

٥- انظر محمد السلمي، مرجع سابق، ص٣٦٧ - ٣٧٤.

٦- ابن كثير، السيرة النبوية - تحقيق مصطفى عبد الواحد. القاهرة - مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م.

٧- انظر: د. عبدالوهاب أبو سليمان - كتابة البحث العلمي ومصادر الدراسات الأدبية. ص٥٦٨ - ٥٦٩.

٨- انظر: د. أبو سليمان.. مرجع سابق، ص٥٧٠.

٩- انظر: د. أبو سليمان، مرجع سابق، ص٥٧١.

١٠- البلاذري.. فتوح البلدان..ص١.

١١- انظر: محمد صامل السلمي. منهج كتابة التاريخ الاسلامي، ص٣٣٨ - ٣٩٥.

١٢- انظر: المرجع السابق، ص٤٢١ - ٤٢٦.

١٣- انظر المرجع السابق، من ص٤٣٦ - ٤٥١.

١٤- انظر: د. علي حسني الخربوطلي. المسعودي، المؤرخ الجغرافي الرحالة. مجلة منبر الاسلام (القاهرة) ربيع أول ١٣٨٩ مايو ١٩٦٩م.

ص٢٧٠ وما بعدها.

١٥- انظر: غانم جواد رضا.

الكامل في التاريخ. مجلة الأقلام (بغداد).

الجزء الثالث/ السنة الخامسة - تشرين ثاني، ١٩٦٨م ص٧٧ وما بعدها.

١٧- أنظر: أبو الفتوح محمد التونسي.

ابن خلدون العالم المفكر والمربي والفيلسوف. ص١٩ وما بعدها.

١٨- انظر: الاكليل - للحسن بن أحمد الهمداني - تحقيق محمد علي الأكوع - المكتبة اليمنية.

١٩- انظر: الموسوعة العربية الميسرة - ص١٢٣٥. وانظر ترجمة له في مقدمة كتاب تاريخ اليمن ص ٥ - ٨.

٢٠- انظر: العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية. للخزرجي - بتحقيق محمد علي الأكوع.

٢٢- انظر: قرة العيون - لابن الديبع.

٢٣- انظر: غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، ليحيى بن الحسين بن القاسم.

١١- مقدمة ابن خلدون، ص٧.

١٢- نفسه، ص٧.

١٣- د. حعفر آل ياسين. رأي في المنهج النقدي للتاريخ مجلة الأقلام - بغداد - الجزء السابع - السنة الأولى. آذار ١٩٦٥م ص٦٤.

مراجع البحث

١- أبو الفتوح محمد التوانسي

ابن خلدون العالم المفكر المربي الفيلسوف.

المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية - القاهرة.

سلسلة كتب اسلامية.

٢- أحمد بن داؤود الدينوري

الأخبار الطوال - تحقيق عبد المنعم عامر سلسلة تراثنا.

٣- حاجي خليفة، مصطفى بن عبدالله.

كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. المطبعة الاسلامية - ١٣٨٧هـ - ١٩٥٧م.

٤- الحسن بن أحمد الهمداني.

الاكليل - تحقيق محمد علي الأكوع. المكتبة اليمنية.

٥- د. جعفر آل ياسين.

رأي في المنهج النقدي للتاريخ.

مجلة الأقلام (بغداد) الجزء ٧ - السنة الأولى، شوال ١٣٨٤هـ - آذار ١٩٦٥م.

٦- عبد الرحمن بن علي الدريبع.

قرة العيون في أخبار اليمن الميمون.

٧- د. عبد الوهاب ابراهيم أبو سليمان

كتابة البحث العلمي، ومصادر الدراسات الاسلامية دار الشرق - جدة.

٨- علي بن حسين المسعودي.

مروج الذهب ومعادن الجوهر.

تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد.

المكتبة التجارية.

٩- علي حسني الخربوطلي

المسعودي المؤرخ الجغرافي الرحالة.

منبر الاسلام - (القاهرة).

ربيع أول ١٣٨٩هـ - مايو ١٩٦٩م.

١٠- علي بن عبد الواحد (ابن الأثير).

الكامل في التاريخ.

دار الفكر - بيروت - ١٣٨٩هـ - ١٩٧٨م.

١١- د. عماد الدين خليل.

التفسير الاسلامي للتاريخ.

دار العلم للملايين - بيروت - يناير ١٩٧٥.

١٢- غانم جواد رضا

الكامل في التاريخ ومنزلته بين الكتب التاريخية.

مجلة الأقلام - بغداد.

العدد ٣ السنة الخامسة.

شعبان ١٣٨٨هـ - تشرين الثاني (١٩٦٨م).

١٣- محمد بن سعد.

الطبقات الكبرى.

دار صادر - ١٩٦٠.

١٤- محمد بن جرير الطبري.

تاريخ الأمم والملوك.

دار القاموس الحديث للطباعة والنشر.

١٥- محمد بن اسحاق.

سيرة ابن اسحاق.

١٦- محمد بن عمر الواقدي.

مغازي الواقدي.

تحقيق ماسدن جونس.

عالم الكتب - بيروت.

١٧- محمد عبد الغني حسن.

مؤرخو الفتوح الاسلامية في القديم والحديث.

مجلة الوعي الاسلامي. (الكويت).

السنة الثالثة - العدد ٢٥.

محرم ١٣٨٧هـ - ١١ أبريل ١٩٦٧م.

١٨- محمد بن صائل العلياني السلمي.

منهج كتابة التاريخ الاسلامي.

دار طيبة للطباعة والنشر.

١٩- يحيى بن الحسين بن القاسم

غاية الأماني في أخبار القطر اليماني.



بحوث الآثار والتاريخ القديم



التراث العربي وتحديات عصور ما قبل الاسلام

محمد عبد القادر بافقيه – عدن
اليمن

تمهيد:

يعيب البعض على العرب النزوع الى التراث بحثاً عن الحلول في مواجهة تحديات العصر. وبغض النظر عن مدى معقولية هذا السلوك ومشروعيته، وعلى الرغم من ايماننا بأن التراث – أي تراث – هو حصيلة تجارب، لم يصبح تراثاً ولم يكتب له البقاء إلاّ ليستفاد منه في مواجهة تحديات الحياة، فإننا لن نحاول في هذه الورقة اقتراح حلول جاهزة من التراث تواجه بها امتنا تحديات العصر.

سنكتفي باستعراض ما تجمع لدينا من اشارات متفرقة في المصادر المختلفة، مع التركيز على النقوش اليمنية كوثائق تاريخية أصلية تعود الى مراحل عديدة من التاريخ العربي، محاولين متابعة مسيرة ذلك التاريخ ما وسعنا ذلك من بداياته التي ما زال يجللها ضباب كثيف مذ بدأت شعوب هذه الجزيرة وقبائلها استقرارها في الأودية التي نعتقد أنها شهدت قياماً مبكراً لما نسميه حضارة الأودية، وقيام أقدم المدن فيها (ربما العصر البرونزي)، مروراً بقيام ذلك الطريق الدولي الذي أسماه بليني، طريق الذي انتشرت على جانبيه مدن القوافل، التي لم يلبث البعض منها على الأقل أن أصبح أسواقاً رئيسة في خدمة التجارة المحلية لمختلف الأقاليم التي كان الطريق يخترقها في اتجاهه الاساسي من الجنوب الى الشمال وفي تشعباته التي املتها التضاريس وحاجة المناطق المختلفة من حوله، وصولاً الى أسواق المراكز الحضارية الكبرى المحيطة بالجزيرة، من الشرق والشمال والغرب.

ملاحظين استمرار الصيغة التكاملية التي اتسمت بها تلك الحركة الاقتصادية في مجمل الرقعة التي توصف جغرافياً بشبه الجزيرة العربية وهي ذاتها التي اكتسبت في نظر الطامعين صفة «العربية السعيده» وهي الصيغة التي نعتقد أنها حافظت على تماسك شبه الجزيرة حتى عصفت بالعالم كله من حولها – شرقه وغربه – أزمة دولية عرفت بأزمة القرن السادس. وبالرغم من خضوع اطراف كثيرة منها لتعدد الشرق الساساني والغرب البيزنطي بعقائدها المتناحرة وكيف تسبب ذلك كله في انتشار الفوضى المتمثلة فيما يسمى أيام العرب. وكيف استطاع أهل هذه الجزيرة أن يقيموا في ذلك الجو العاصف كبرى حركاتهم الفكرية الأدبية – حركة الشعر الجاهلي، وأن يحافظوا على أسواقهم التي كان بعضها على الأقل يشكل ملتقى فكرياً أدبياً جنباً الى جنب مع النشاط التجاري. وكيف خرجوا من تلك الأزمة متميزين يحملون للعالم كله مشروعاً عالمياً جديداً – هو الدعوة الاسلامية.

كاتب هذه الاسطر لا يتنبأ.. ولا يعرف كيف سيكون المخرج من ازمتنا الراهنة.. وهذه الدول لا تعدوا أن تكون تصوراً لمسيرة التراث العربي في مواجهة تحديات عصور ما قبل الاسلام.

(I) نظريات واحكام سقطت

إن التطور الكبير الذي حدث منذ بداية الستينات في مجالات الدراسات النقشية وانعكاساتها على الدراسات التاريخية لم يلق تجاوباً لدى أي من أساتذة اللغات في جامعاتنا العربية، ولم يعد منها مؤرخونا كما ينبغي.

ولما أن معظم تلك الدراسات ينتشر عادة بلغات أوروبية مختلفة وأن القليل النادر منها هو ما ينشره يمانون في (ريدان) أو «دراسات يمنية»، فإن المعنيين بالتاريخ العربي القديم من علمائنا العرب الأفاضل ما زالوا يرددون نظريات عفا عليها الزمن فيما يتعلق بالدول العربية قبل الاسلام.

حول حركة السكان: فما زال البعض يعتقد بأن السبئيين إنما جاءوا الى اليمن من الشمال بعد أن سبقهم اليها المعينيون(١).

وأما بقية شبه الجزيرة، فيباب يتحكم فيه «روح القبيلة» على حد تعبير أحدهم في مقال تعبيرنا للرد عليه بمقال هو الذي اختتمنا به كتابنا «في العربية السعيدة» وهذا كتاب اردنا به تأكيد قيام تكامل اقتصادي عربي قبل الاسلام. «ذاهبين الى أن التكامل – كان ضمن عوامل أخرى – وراء الأحداث التي شهدها قرن الارهاصات والتحولات» – القرن السابق على ظهور الاسلام منذ الغزوة الحبشية حتى هجرته صلى الله عليه وسلم الى المدينة وقيام

دولة المسلمين.

هذا.. ولولا الحياء والايمان لظل التفسير العقلاني الوحيد للفتوحات الاسلامية عندهم هو كونها موجة من الموجات البشرية التي تقول نظرية غريبة أن شبه الجزيرة كانت تعصف بها نحو الخارج كلما ضاقت ساحتها على سعتها بأهلها لشحة مواردها.

ولعل أكثر علمائنا متابعة لما يصدر عن المؤسسات الاستشرافية ما زال يعتقد مع ما مايكلن بيرن بأن الخط المسند (الخط العربي الأول) أنما أخذه اليماندة عن اليونان مع كل ما يترتب على تلك المقولة الغريبة من اعتقاد بأن أقدم النقوش اليمنية المعروفة لا يتجاوز تاريخه القرن الخامس قبل الميلاد وهي مقولة أعلى أبرز المشتغلين المعاصرين بالدراسات اليمنية تمليهم لها لدى انعقاد ندوة دوله حول الآثار العربية في روما (مايو ١٩٩١) مما فتح آفاقاً كانت تعد مناطق محرجة في ظل سيادة تلت النظرية المقترنة بما يوصف بالكروندلوجيا القصيرة لأحداث التاريخ اليمني القديم.

ولكن هذا التقدم أو الانفراج الذي تحقق أخيراً نتيجة لأعمال استطلاع وحفريات قامت بها البعثات معظمها، إن لم يكن كلها أوروبي، ما زالت تقيد انطلاقته نظرية أخرى تتصل بالعلاقات بين سكان هذه الجزيرة والعلاقة بين لغاتهم. وهي النظرية التي تقول بعبارات صريحة أو مموهة: أن اليمانيين ليسوا عرباً كعرب الشمال.. وأن العرب هم البدو وحدهم.. وأن البدو الذين ذكروا في النقوش اليمنية مقاتلين في خدمة كل الممالك المعروفة تقريباً منذ القرون الأولى للميلاد على الأقل، إنما هم جماعات من المرتزقة قادمة من خارج اليمن «ظل بعضهم يتسلل الى الباد في ساعات ضعف انتاب ممالكها..وأن تلك الجماعات تنامت عبر القرون وتعاظم تأثيرها حتى قضت آخر الأمر على حضارة اليمن!.

ولقد ساعد على ذيوع تلك الأفكار وتقبلها أمران:

١- أن اسم أو لفظ (عرب) الذي اشتقت منه كلمة أعراب كان في الأصل (وهو أمر محتمل) نبذا استخدمه الآخرون من أصل الحضارات المجاورة (كالآشوريين) وصفاً للبدو.. كما استخدم العرب أنفسهم لفظ «عجم» نبذاً لغيرهم من حولهم (وبهذه المناسبة يعني لنا أن نذكر أحد نقوش المعسال يدل على خليج عدن كان يعرف عند الحيريين «ببحر العجم» مما يذكرنا باسم (برعجم) للبر المقابل الى وقت قريب).

٢- ان الصراع القيسي - اليمني في الدولة الأموية أمد اصحاب النظرية بمادة لا تنضب من التأكيد على الفوارق بين عرب الشمال وعرب الجنوب.. وفي المقدمة منها فوارق اللسان «فما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا».

وينسى أصحاب النظرية أو يتناسون أن شبه الجزيرة إن لم تكن قارة فهي احدى كبريات أشباه القارات في عالمنا، وأنها أكبر من شبه القارة الهندية، وأن تباعد مواطن الاستقرار مدعاة طبيعته لتعدد اللهجات وتشعبها. وبهذا الصدد فإني ما فتئت استشهد بما حدث للنظرية في جبال النوبة (جنوب غرب السودان) من تباعد لغوي خلال قرن واحد من الزمان كما يقال بعد انتقالهم الى تلك الجبال وتفرقهم فيها - الأمر الذي جعلهم يلجأون الى «عربية مكسرة» وسيلة للتفاهم بينهم.

هذا وأنه لولا العزوف عن توثيق الفوارق اللهجوية في الشمال إبان وضع المعاجم العربية الأولى والتركيز على جمع ما يخدم الفصحى وحدها لما اقتصر الحديث على بعض الفوارق الصوتية بين تلك اللهجات.

وفي ظننا أن تعدد اللهجات هو الشيء الطبيعي.. وهو ما عرفه اليمن القديم على مدى التاريخ الى درجة أن حرص البعض في بعض المناطق على كتابة النص النقشي الواحد بلهجتين: سبئية وقتبانية مثلاً.

هذا وقد دلت أعمال فريق مدونة النقوش اليمنية القديمة في موسمه الأخير في العام المنصرم (١٩٩١) على أن نقشاً معيناً من شرجان خطه قيل من الأصابح، وحير العلماء من قبل، إنما كتب بلهجة غير اللهجة (الرسمية) التي خطت بها نقوش الاقبال الآخرين، وهم مثله من الاصابح.. ومع أن المكان واحد.

ومعلوم أن المصادر الكلاسيكية اغريقية ثم رومانية، دأبت منذ عهود هيرودوت على الأقل على وصف جزيرة العرب كلها بأنها بلاد العرب، وأهلها كلهم من صحارى الشام الى آخر بقعة في اطراف اليمن - كلهم عرب.

«فالسبئيون والجرمانيون - عند اجاثرخيدس - هم أغنى

العرب»

والعرب - أيام الغزوة الرومانية الفاشلة - كما يحدثنا بليني كانوا قسمين (وهو ما أثار تعجبه): تجار.. وصعاليك (أو قطاع طرق). والتجار هم طبعاً أهل القرى والمدن.. والصعاليك لا بد أنهم أهل البوادي.

ولهذا فالمخرج الذي ارتآه أصحاب نظرية أن العرب هم أهل الشمال وحدهم.

كان تقسيم العرب الى:

عرب أقحاح (وإن لم يقولوا أنهم العاربة.. وهم أهل الشمال)

وعرب جنوبيين (هم الذين خلفوا لنا ما خلفوا من آثار في اليمن).

وهكذا فإن عربية أهل اليمن وإن صنعت استشراقياً بأنها سامية جنوبية كعربية أهل الشمال «إلاّ أنهم يقصرون وصف «العربية» على لغات نجد والحجاز والبحرين وجمون عربية اليمن «عربية جنوبية» دون أن يقولوا بوجود عربية شمالية» فتلك عندهم «عربية محضة».

هذه المقولة جعلت علماً بارزاً من أعلام الآدب العربي الحديث، بل عميد الأدب العربي في عصرنا، ينكر كل شعر جاهلي منسوب الى اليمن مستشهداً على ذلك بنصوص عربية يمنية قديمة تعدد الى قرون عديدة قبل الاسلام وقبل نهضة الشعر الجاهلي بالذات.

وهي نهضة ادبية شاملة - أهملتها ظروف معينة، ولاقت رواجاً في أنحاء الجزيرة كلها وكان من بين فحول تلك الحركة شعراء تقع ديارهم على حافة الممالك اليمنية القديمة المعروفة كما في نجران (التي وصفها نقش المنمارة عبرينة شَمَّر أي شمر يهرعس) ونحن نعرف أيضاً أن شاعراً كالأعشى كان يستقبل في قصور الأمراء داخل اليمن في ريمان من اراضي حمير وفي حضرموت التي استقرت في غربها كنده وأن ذا فاتسن وقيس بن معد يكرت يحتفلوه بشعره كما يحتفل ملوك الشام بأسفار شعراء آخرين.

إن القبول بتلك النظريات إنما يعني القبول بأن مآثر اليمن ولغته وفنونه وكل محصلة تاريخه القديم وتجول التبابعة في انحاء شبه الجزيرة حتى نجد لم يكن له من أثر على حياة باقي الجزيرة «وهو أمر يناقض ما نقرأه في الشعر الجاهلي عن الحميرية.

(II) الآثار اليمنية وتطور الحياة على أرض الجزيرة.

وبعد: فإن السلحفائية التي اتسمت بها حركة الكشف عن آثار اليمن هي التي تقف وراء الكثير من هذه الافكار المغلوطة والاستنتاجات المتيسرة التي - حتى لو لم تكن مغرضة - تقوم على غياب الشواهد أو تجاهلها.

وهنا ينتصب أمامنا السؤال الهام:

هل ستجيب آثار اليمن (التي أصبح الدارسون يعتقدون أن أقدمها لا يختلف عن النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد) على الأسئلة الحيرى المتصلة بتطور الحياة على أرض هذه الجزيرة منذ الألف الثاني حتى قدوم الاسلام؟

هذا ما نعتقده..وهو ما يؤكده كل اكتشاف جديد في اليمن رغم نقص الحفريات ومحدودية رقعته.. وهذا ما أصبح يؤكده - رغم انهيار الحفر العشوائي الذي استشرى في السنتين الأخيرتين بصورة تتهدد هذا التراث بالضياع..ولا نكاد نغفل حياله شيئاً..

إلاّ الشكوى الى من لا يسمع الاستماع إلى نصائح من عين الفيل ويطعن في ظله «على رأي اخوتنا السودانيين.

ويأتي في مقدمة الاكتشاف مجموعات النقوش التي ظهرت منذ تم نشر جانب من نقوش محرم بلقيس على يد العالم البلجيكي-الأمريكي الأب البرت حام.

ثم النقوش اليزنية من ينبق وعبدان وضرا والجوف ومن وسط الجزيرة.

ونقوش المعسال حيث كانت تقدم وعلان حاضرة بني مصاهر أقيال ردمان وخولان التي تدلى قبالتها في القرن السادس اكسدم ابن ابرهه.. تلك النقوش القت ضوءاً باهراً على أحداث القرن الثالث الميلادي في المنطقة كلها.

ولا يتسع الوقت الاستعراض ما يمكن أن يؤدي اليه الاسراع بالكشف عن الآثار اليمنية من تفسير للكثير من الاخبار التي جاءت متضاربة في كتابات الاخباريين نتيجة عوامل عدة منها عيوب النقل الشفهي وخاصة الاخبار المتصلة بتكوين القبائل وحركتها وعلاقاتها ببعضها ببعض في مجمل الرقعة العربية.

ولهذا نكتفي (لضيق الوقت) بالإشارات السريعة لتصوير ما نعتقد أنه يمكن أن يسديه التراث الأثري اليمني من خدمة للتراث العربي كله في شبه الجزيرة.

وأول ما ينبغي علينا عمله الربط بين الاجماع الجديد على قدم التحضر في شبه الجزيرة العربية وقيام ما نسميه نحن بحضارة الأودية فيها – والتي قد تعود بداياتها الى عهد عاد «التي لم يخلق مثلها في البلاد كما جاء في القرآن الكريم.. وكانت عاد من سكان الأودية كما يفهم من قوله تعالى: «فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا» وحتى ينجلي السباق الدائر بين الدولة المحيطة بالربع الخالي بحثاً عن وبار وأرض عاد.. علينا أن نركز جهودنا على ما ينكشف من آثار في المواقع المعروفة.

إن أقدم الآثار المكتشفة حتى الآن – ومنها معبد بنات عاد في السوداء/ (نشان) بالجوف.. ومعبد برآن في مأرب.. تدل على أصالة فن المعمار اليمني، وبراعة المعماري اليمني القديم في تعامله مع كتل الصخر الكبيرة ودقة الفنانين في تنفيذ وحدات الزخارف المكررة على الحجر ودقة تقاس في حدود المليمتر الواحد كما لاحظ رئيس البعثة الالمانية مؤخراً.

إن المدن (الأهجر) في اليمن تطور تخطيطها تطوراً مستقلاً عن أية مؤثرات خارجية من حيث شكل اسوارها أو التوزيع الداخلي لكتل المباني فيها والطرقات داخلها والتي لم تعرف الشوارع المستقيمة نتيجة لتغليب دواعي الأمن على غيرها من الدواعي.

إن المساكن حتى تلك التي تبنى من اللبن تقوم على أساس حجري، وهو ما قد يفسر الحرص على ذكر الاساس بعينه في النقوش التي تتحدث عن بناء البيوت.. هذا الى جانب تعدد الطبقات واستخدام هياكل خشبية لضمان ترابط الجدران المبنية من المدر غير المحروق.. وهذا ما كشفت عنه الحفريات في مواضع مختلفة من حضرموت منها ما يعتقد أنه القصر الملكي بشبوه.. كل ذلك رغم شحة الاخشاب في بلد لم يعرف الغابات وبصورة تدل على أن ذلك العمل ابتكار علمي املته دواعي محلية.

إن منشآت الري بمختلف مصطلحاتها من مضالع وشصن ومآخذ ومصارف الخ إنما جاءت نتيجة التعامل مع الامطار والسيول التي وإن كانت شبه منتظمة إلاّ أنها تأتي بكميات مختلفة وتتخللها مواسم جفاف.

أما العرم (سد مأرب) فوحيد نوعه لم يتكرر في مكان آخر لأن أذنه ميزاب اليمن الشرقي حسب تعبير الهمداني لا ميزاب آخر غير مساوٍ له في اليمن سوى ميزاب اليمن الغربي (وادي مور) شديد الانحدار كأودية تهامة الأخرى مما حال (ضمن عوامل أخرى) دون اقامة عرمٍ فيه.

هذا ولعل أهمية سبأ (خاصة منذ القرن السابع قبل الميلاد) وتفوقها النسبي وشهرتها الواسعة إنما هي من أهمية واديها الكبير اذنه – وادري سبأ.

ان منطقة الجوف كانت منطقة جذب واستقرار لجماعات (بعضها قادم من مناطق تقع شمال الهضبة اليمنية الغربية) ارتبطت حياتها ومصالحها بالطريق التجاري – طريق البخور – عند مخرجه الاساس هناك تحت جبل اللوذ.

فقامت في الجوف الخصب، ممالك مدن، ربما قبل أن تعرف ممالك المدن في بلاد أخرى واشتهرت بها. وهي في الوقت ذاته، مدن قوافل.

وفي الجوف كانت قبيلة أمير ومعبد إلهها سماوي المعروف بمعبده يغرو... وهو اله وثني تميز بحماية الابل. وتدل آثار كثيرة أخذت تعرض في الأسواق بأن هذا المعبد الذي حيّر العلماء اسمه يتعرض هذه الأيام لعملية تدمير مركز دون أن يستطيع أحد أن يحرك ساكناً. والمهم هو أن أمير، التي بقيت ديارها معروفة حتى أيام الهمداني قبيلة من أرباب الابل انتشرت في مراكز كثيرة في اليمن منها على الأقل (حاضر، المعافر) وربما أيضاً في قرية الفاو حاضرة كنده القديمة.

والأهم من ذلك كله هو أن مدن الجوف وجدت وازدهرت قبل القرن السابع قبل الميلاد على الأقل. ومن بينها مملكة نشان (المدينة) التي استولى عليها السبئيون في ذلك القرن واستوطنوا بها هي ونشق وجعلوا من المدينة مركزين اساسيين لهم يذكران باعتزاز في نقوشهم (ونقوش الحميريين من بعدهم) الى جانب مدنهم الأخرى كمأرب وصنعاء.

ومنذ القرن الثامن ق.م أخذت الحوليات الآشورية تشير الى علاقات مع السبئيين فذكرت ملكاً اسمه يثع أمر ثم ذكرت ملكاً

آخر اسمه كرب ال في القرن السابع هو على الأرجح كرب إل وتر بن ذمار علي وتتمثل أهمية هذه الإشارة في دلالتها على قدم الاتصال بين اليمن وبلاد الرافدين. ومن ثم فهي أيضاً دليل على قدم طريق البخور ذلك الشريان التجاري الدولي الحيوي الذي دارت فوقه وحوله أحداث التاريخ العربي القديم.

ولقد تحدثت المصادر الكلاسيكية الاغريقية المتأخرة نسبياً، ولكن من عهود ما قبل الميلاد، عن الخير الذي عم كل العرب بسبب ذلك الطريق الذي قامت على جانبيه مدن (محطات القوافل) هي التي وصفها القرآن الكريم فيما بعد بالقرى الظاهرة وذلك في قوله تعالى: **﴿وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير ليالي وأياماً آمنين﴾** صدق الله العظيم (سبأ ١٨).

وفي «قرية» حاضرة كنده أو قرية ذات كهل (قرية الفاو اليوم)، حيث تجري منذ سنوات تنقيبات بأيد عربية تكشف ذلك الموقع الأثري القائم في وادي الدواسر (الذي تلتقي فيه أودية هابطة من سراة عسير هي رنية وبيشة وتثليت) والذي يصب مياهه في رمال الربع الخالي من الناحية الشمالية - تكشف ذلك الموقع عن حياة عربية مركبة متقدمة وبيوت تجارية قديمة نشطة - سوق انتقلت اليها جاليات من ممالك اليمن القديمة المعروفة خاصة معين (وربما حضرموت وأمير أيضاً).. وفيها اختلطت اللهجات في نقوش المعابد والمقابر كما يدل تراوح نقوش الموقع بين استخدام أداة التعريف اليمنية القديمة: النون في آخر الكلمة تسبقها مدّة كما في كلمة «بيّن» أي البيت «وبين استخدام أداة التعريف التي يعتبرها المستشرقون وحدها أداة التعريف العربية والدالة عندهم على عروبة كل من يأتي نسبه أو اسمه مقترناً بها.

فمعاوية بن ربيعة (الملكب الذي ضاع منا اسم سلالته) ملك كنده وقحطان - كما يقول شاهد قبره - وصف بالقحطاني ولكن باستخدام أداة التعريف اليمنية القديمة: أي قحطنين.

والقرية هذه أهمية كبيرة من عدة وجوه. فيكفي أنها حاضرة كنده الأولى - تلك الأسرة، فالقبيلة، التي تركت دوياً كبيراً في جوانب التاريخ العربي القديم امتد الى مناطق متباعدة انتشروا فيها:

من وادي الدواسر الى الحجاز، ومن نجد الى البحرين ومن عمان الى حضرموت، بل وأطراف الشام.

وإلى كنده يعود أمير الشعراء في العصر الجاهلي الملك الضلّيل امرؤ القيس بن حجر..سليل تلك الحياة الحضرية العربية مما يفسر رقة شعره وعذوبته رغم جزالة لفظه هذا الى جانب روعة اخيلته وتشبيهاته.

ولقد انخرط «أعراب كنده» في جيش الأعراب الحميري الكبير منذ مطلع القرن الرابع الميلادي قبل قرنين كاملين من عصر نهضة الشعر الجاهلي، وهم هم أعراب اليمانين - على حد تعبير امرئ القيس في بيتٍ استشهدنا به في مناسبة أخرى وفيه يقول شاعرنا مفاخراً بأبيه الملك:

ويغزو بأعراب اليمانين كلهم ... له أمرهم حتى يحل المشقرا

استشهدنا به لنرد به على اصرار عجيب من بعض الدارسين على نفي البداوة عن اليمن.. وهو ما صادف قبولاً لدى البعض منا.

هذا في حين أن البداوة نمط حياة ارتبطت بالأبل والرمال وليست مسبّة.. ولم يخل اليمن في يوم من الأيام من الرمال والجمال.. وإنما هو على العكس مواطن أجود أنواع الإبل كالمهرية والمجيدية.. ولعله كان موطن استئناسها الأول.. ولولا الأبل لما قام طريق البخور.. ولتغير تاريخ التجارة الدولية كله ومعه تاريخ البشرية نفسها.

هذا ولم يكن اكتشاف وجود جالية معينية في قرية امرا مستغرباً. فمعين، وهي في الأساس دولة - مدينة هي قرنا (قرنو في النقوش) على طريق القوافل في الجوف، ظلت خرائبها تعرف بعد زوالها وإلى اليوم باسم «معين» - معين هذه تميزت بدور بارز في تاريخ التجارة اليمنية العربية.ب وفي تصريف المنتوجات اليمنية بالذات. انتشر أبناؤها في معظم حواضر العالم القديم ومراكزه التجارية على طول طريق البخور داخل اليمن وخارجه حتى مصر. بل وفي بعض جزر الارخبيل اليوناني.

وهناك عدد من النقوش المعينية من قرنا تذكر جلب نساء من معظم تلك الحواضر الى مدينتهم، وهي اغلب الظن زوجات

اوسراري اقترن بهم المغتربون المعينيون في مواضع اغترابهم من أجل التجارة.. ومن هذه المواضع.

قتبان
وأوسان
وحضرموت ١
وسمعى (شمال صنعاء)
} في اليمن

ويثرب
ولحيان
ودران (بوادي القرى)
وقدار
} في الحجاز

وعمدن
ومؤاب
وغزة
وصيدون (صيدا)
ومصر
ويونم (اليونان)
} في الشام

ألا يكفي هذا مؤشراً بل ودليلاً صارخاً تشابك المصالح العربية في تلك العصور؟

هذا ومن غرائب الصدف أن أقدم اشارة معروفة الى نظام الحضارة الذي بفضله سارت القوافل في أراضي القبائل المختلفة على طريق البخور، انما جاء مقترناً بكنده في نقش معيني من القرن الثالث الميلادي يدل على قيام اتفاقات حضارة بين ملوك سبأ وملوك قرية وزعماء بطونها وعشائرها (ja 576).

كما أنه الى النقوش السبئية (من محرم بلقيس ومن غيره) يعود الفضل الى الاتقاء بتاريخ نشوء المماك العربية الشمالية (ممالك شامة)إلى وقت أقدم مما هو مقدر لها في المصادر المعروفة من قبل. فالنقوش السبئية تحدثت عن ممالك نزار وكنده والأسْد (الأزد) وغسّان وذكرت ارضي وتنوخ. ومعها جميعاً كان ملوك سبأ ومن بعدهم الحميريون على صلات ويتبادلون معهم السفارات.

على أن نقش عبدان الكبير، الذي يروي أحداث عقود امتدت من مطلع القرن الرابع حتى قرب منتصفه، يدل على التقاء ارض نزار بأرض مملكة غسان في موضع يعرف بالسّي في اطراف الحجاز.

إن هذه الحقائق التي توالي ظهورها من خلال النقوش اليمنية هي التي جعلتنا نتساءل عن مكانة التراث الأثري اليمني من التراث العربي. فالأخبار المتناقلة شفاهاً، وهي مادة (وإن تعرضت للتحوير المتعمد في خضم الصراعات القبلية المتأخرة) لها قيمتها الكبرى في تتبع تطور المجتمع العربي وعلاقاته الداخلية.. ولكن تقويم معوجّها، وتصحيح خطئها المتعمد وغير المتعمد، وفهم رموزها والرموز التي تقوم عليها صِياغة الانساب المصاحبة للأخبار، – كل ذلك يعتمد على مقارنة تلك المادة بما قد نجده مما يقابلها في النصوص النقشية.. كما أن الاخبار كثيراً ما تساعدنا أيضاً على فهم بعض ما تحمله لنا النقوش مشوباً بالغموض مما ضربنا له الأمثال في مقالات أخرى منها، مقال (الحارث الرائس ونسبه المختلف فيه) ومقال (الانساب اليمانية مصادرها وعناصرها).

ولقد توالت الإثارة إلى نزار في النقوش كنقش التجارة من الشام والنقوش السبئية من القرن الثالث كما سلفت الإشارة.. كلها ذكرتها مملكة.. ولكنها جميعها لم تساعدنا على تحديد موضعها بأكثر من أنها احدى ممالك شامة أي الشمال.. وكان لا بد من ظهور نقش عبدان الكبير لتقول بثقة إنها مملكة قامت فيها اقليم البحرين.. وأنها أساس النسب النزاري – المعدي.

والبحرين هنا ليست الجزيرة وحدها (والتي يقال أن اسمها القديم كان أوال) وانما هي ذلك الجزء المطل على الخليج والذي يشكل مع اليمامة ما يسميه الجغرافيون العرب إقليم العروض. وفي اقليم البحرين ازدهرت كما نعرف مدينة باسم هجر.. قد تكون هي هجر التي وصلت إلينا منها نقود سكّها ملوكها الذين كان بعضهم له أسماء تذكرنا بأسماء ملوك سبأ مثل يثع أمر.. وهي نقود كتب عليها بالخط المسند.. كما كتب على بعضها بالخط الآرامي لأغراض تتعلق ولا شك بالتبادل التجاري في اتجاهين. على أن الخط المسند كان في العصور العتيقة هو الخط السائد في معظم الحواضر العربية مثل قرية ذات كهل، وثاج باقليم البحرين وددان بوادي القرى بالحجار الخ.

وارض نزار هذه قامت فيها قبل الميلاد مدينة تسميها المصادر الاغريقية الكلاسيكية «جرجا» – التي يعتقد البعض أنها تحريف

لهجر» - وهي التي قيل أن أهلها «الوهابيين» هم والسبئيين أغنى العرب (كما سلفت الإشارة) وذلك بفضل سيطرتهم على التجارة الدولية آنذاك!.

ومعلوم إنه على طول الساحل العربي الموازي للخليج وفي بعض جزره وجدت آثار قديمة تعود الى عصور تاريخية مختلفة بعضها مغرق في القدم.. وهو الأمر الذي حين تبينه علماء الآثار، كان من عوامل قبولهم بقدم الاستقرار في اليمن.

(III) النقوش اليمنية: وثائق تاريخية ونصوص لغوية (وتاريخ اللغة العربية)

كل ما استعرضناه من حقائق لم تكن معروفة من قبل يعود الفضل فيها الى النقوش اليمنية، ،والى عزام اليمانين بزيد النقوش على كل شيء تقريباً، أوانيهم وأسلحتهم ومبانيهم وصفاح جبالهم.. وفي مساند برونزية أو حجرية يستودعونها معابدهم يسجلون فيها أحداث حياتهم ومفاخرهم وأحياناً خصومهم مستمطرين عليهم لعنات الآلهة.

ويظل نقش كرب الى وتر بن ذمار علي، من معبد المقة بصرواح، العائد الى القرن السابع قبل الميلاد، أقدم وثيقة عربية معروفة تصور لنا الوضع السكاني آنذاك في رقعة تمتد ما بين نجران شمالاً والساحل المطل على البحر العربي (أو بحر العجم كما يقول نقش حميري من المعسال) جنوبا (من تبن في الغرب الى ميفع في الشرق)، ومن أرض المعافر المنتهية بمؤرخ (جنوب الموقع الذي قامت فيه المخا على البحر الأحمر) غرباً الى هضبة السوط الحضرمية (التي ينحدر منها وادي عرمة الذي قامت على امتداده في المعشار مدينة شبوة حاضرة حضرموت) شرقاً.

انها وثيقة تاريخية جغرافية سياسية... ولكنها أيضاً نص لغوي عربي قديم، لا بد من الرجوع اليه والى النقوش اليمنية (على اختلاف لهجاتها) عند دراسة تطور العربية على مدى لا يقل عن اثني عشر قرناً قبل قيام نهضة الشعر الجاهلي.

وعلى ذكر الشعر فإن (الانشودة الدينية) التي اكتشفناها في نص نقله أستاذنا الجليل زيد عفان، أطال الله عمره، ونشرت في زيدان، والقصيدة الحميرية المسماه (ترنيمة الشمس) المشار اليها الزميل الدكتور يوسف محمد عبدالله، هما أقدم نصين شعريين عربيين معروفين حتى اليوم، ويدلان على قدم الشعر العربي كما هو متوقع وإذا كان النصّان قد غلبت عليها الروح الدينية فإنهما مرتبطان بصورة ما بالزراعة والأمطار. وهو أمر طبيعي إذ أنوحظ الزراعة هي النقوش اليمنية أكبر من حظ التجارة فيها، وذلك على الرغم من أن التجارة هي العماد الأساسي للازدهار العربي كله والذي جعل الآخرين يطلقون على شبه جزيرتهم كلها إسم «العربية السعيدة».

هذه النصوص النقشية المتتالية منذ القرن السابع قبل الميلاد وإن تباعدت أزمنتها وتعددت لهجاتها بتعدد لهجة أهل اليمن ذاته (كتعدد لهجات أخوتهم في الشمال) هي من الناحية المعجمية على الأقل مرجعنا لتعقب تطور العربية وتلمس جذورها القديمة ومن ثم كتابة ما يمكن كتابته عن تاريخ اللغة العربية.

وهو الأمر الذي جعلنا لا نكف عن تذكير علماء اللغة العربية بغرابة إعراضهم عن خوض غمار علم النقوش وهم بحكم تخصصهم الجديرون باقتحامه واثرائه كما توقع محقاً العالم الفرنسي البارز مكسيم رودنسون لدى ظهور بواكير كتابات الصديق المرحوم الاستاذ الدكتور محمد علي الغول في مجال النقوش اليمنية ومنها رسالته التي كان موضوعها - فيما اعتقد - علاقة النقوش بالفصحى.

أن تاريخ اللغة العربية - على اختلاف لهجاتها - جزء أساسي من تاريخ العرب. وهي لهجات تفرعت من أصل واحد ربما تفرعت منه لهجات أخرى تطورت تطوراً مغايراً لتطور العربية جعل منها لغات مستقلة بذاتها هذا في حين أن الاتصال المستمر والمصالح المشتركة على طريق البخور حد من وتيرة التباعد بين اللهجات العربية.

IV طريق البخور وأسواق العرب

إن طريق البخور لهو العمود الفقري الذي دارت حوله أحداث التاريخ العربي في مسار متماسك أدى ما أدى اليه آخر الأمر من نهضة أدبية مشتركة تمثلت في الشعر الجاهلي الذي تبلورت فيه «الفصحى».. فمنحت العرب، في لحظة تحول كبير «لساناً مبيناً».. لغة مشتركة إسمها «اللسان العربي» هو الذي ساعدهم على التعامل العقلاني مع أزمة العصر بكل جوانبها والتحاور حولها..

«بحثاً عن مخرج من تلك المتاهة» فكانت – كما قلنا في مناسبة أخرى – «ارهاصاً سبق الحدث العظيم والفتح المبين».

ان ازمة القرن السادس بأبعادها الدولية والتي تعرضت اليمن خلالها لاضطراب شديد اقترن بسقوط دولة التبابعة بعد قرنين من الازدهار ساد فيهما السلام الحميري ربوع شبه الجزيرة.. هذه الأزمة والفوضى التي رافقتها متمثلة في استشراء الصراع الذي يوصف «بأيام العرب» لم يحده دون قيام قريش بترميم سريع لطريق البخور وحركة القوافل عليه.

وإلى ذلك القرن بالذات رغم صراعاته تعدد كل معارفنا حتى اليوم عن «أسواق العرب» التي كانت امتداداً لنشاط تجاري ترسخ عبر القرون على طريق البخور.. فلم تكن تلك الأسواق أسواقاً متفرقة متنافسة لا يربطها رابط.. بل كانت على العكس تماماً عملاً مبرمجاً يعكس إتفاقاً وتقاليد قديمة تحدد موعد انعقاد كل سوق في تتابع مكاني وزماني متسق مما يجعلنا نعتبرها سوقاً عربية مشتركة عجزنا عن إقامة مثلها ونحن أحوج ما نكون اليها اليوم!.

نكتفي بهذا القدر من الإشارة الى ملامح الترابط بين الأقاليم العربية في شبه الجزيرة ملاحظين أنه لولا النقوش والآثار اليمنية لما تيسر لنا قول شيء مما قلناه.

*غذاء العراقيين القدماء
يعادل أو أفضل مما توصي به منظمة الغذاء والزراعة اليوم

روزميري اليسن
ترجمة
سمير عبد الرحيم الجلبي
مدير مؤسسة الموسوعة العربية التابعة
لجامعة الدول العربية - بغداد

وردتنا الأدلة عن الغذاء في بلاد الرافدين من عدة مصادر، وتشير البقايا النباتية والحيوانية المتحجرة التي عثر عليها في المواقع التي جرى التنقيب فيها الى وجود نباتات وحيوانات صالحة للأكل في المنطقة، وتصور المشاهد في الاختام الاسطوانية ودبابيس الزينة والنقوش البارزة اشخاصاً يأكلون ويطبخون، وتتضمن النصوص المسمارية تفاصيل عن المحاصيل التي كانت تزرع والحيوانات التي كانت تربى والطعام المقدم الى الآلهة والملك وحاشيته والى الناس العاديين، ولسوء الحظ أن هذه الأدلة لا تتوزع بشكل متساو على كل العهود أو كل المدن. وهناك نصوص كثيرة تحتوي على معلومات عن الغذاء في لكش خلال حكم لوكالاندا واور كاجينا في عهد فجر السلالات الثالث وفي أور في عهد سلالة أور الثالثة والعهد البابلي القديم وفي ماري خلال حكم زيمري ليم في أوائل الألف الثاني وفي نوزي ونفر خلال منتصف الألف الثاني (مثلاً دايمل ١٩٣١ وبنش ١٩٠٨ وبيرو ١٩٦٠ و ١٩٦٤ و بوتيرو ١٩٥٧ ولاشيمان ١٩٥٠ وكلاي ١٩٠٦) ولكن توجد فجوات كثيرة وعدد قليل جداً من قوائم التموين خلال العهد الآشوري الحديث. كما أن تحديد الكثير من المصطلحات غير مؤكد ومثار خلاف. وهذه الصعوبة في التفسير لا تنطبق على النصوص وحدها، كما أن المشاهد في الاختام الاسطوانية صغيرة وتتبع اسلوباً معينا. وربما كانت لها أهمية طقسية وقد تكون غير دقيقة بالطبع وتظهر ما كان صانعها يعتقد أنه حدث وليس ما حدث فعلاً. ولكن لم يكن هناك فارق كبير بين المدينة والريف وبين عمل وآخر لذا فإن صانع اختام يعيش في تل حرمل كان على اطلاع على نشاطات الفلاح أو صانع الجعة أو الخباز، وربما كان هؤلاء يعملون في المحلات المجاورة له وربما كانت زوجة صانع الجعة تخمر الجعة وتخبز الخبز ولذا فإنه إذا كان قد ضمن تلك النشاطات في تصاميمه فليس هناك سبب للاعتقاد أنه كان غير دقيق أو أقل دقة مما تطلبه مقياس صورته والقيود التي فرضتها المواد التي استعملها.

ورغم تلك المشاكل يمكن وضع بعض الاستنتاجات حول الغذاء في بلاد الرافدين، كانت الحبوب هي الغذاء الرئيسي، وكانت الحبوب تشوى وتؤكل كاملة أو تغلى وتؤكل كعصيدة أو تخمر لاستخراج الجعة منها أو تطحن لصنع الدقيق وخبزه.

يوجد في الشرق الأدنى اليوم نوعان رئيسان من الخبز المحلي الصنع هما الخبز غير المخمر الذي يخبز في رماد النار بوضعه على حجارة حارة أو على صفائح معدنية رقيقة أو على صفائح من الفخار، والخبز المخمر الذي يخبز في التنور، وتوجد أشكال متنوعة من الخبز وهناك مجموعة واسعة من الطرق المستعملة في تحضيرها. ويحتمل أن النوعين المذكورين اعلاه من الخبز كانا ينتجان في بلاد الرافدين قديماً. ويصور مشهد على نقش آشوري بارز لحملات آشور بانيبال(بارنيت ١٩٧٦ PI. LXV. Le) تحضير خبز غير مخمر في رماد نار حيث يظهر اسير عيلامي يركع بجانب النار وهو يعد رغيفاً دائرياً من الخبز ووضع رغيفاً آخر على النار، كما عثر على مواقد التنور في مواقع آثارية كثيرة (مثلاً في تل اسمر: ديلوكاز وهل ولويد ١٩٦٧ وفي نفر: مكوان وهينز ١٩٦٧ و واور: وولي ١٩٥٤ وفي نوزي: ستار ١٩٣٩. وفي غرود: مالوان ١٩٦٦).

ومن المشاهد التي يتكرر ظهورها على الاختام الاسطوانية ودبابيس الزينة مشهر المأدبة، وفيه يمسك اشخاص جالسون بالصحون (مثلاً مورتكات ١٩٦٧ (PI E.2) وتشبه الصحون التي

تحتوي على الاطعمة التي وضعت في المقبرة الملكية باور، وكان الطعام الذي عثر عليه في تلك الصحون حلقات من التفاح المجفف وعظام السمك والأغنام (اليسون وآخرون ١٩٧٨، ص١٦٩). ويعتقد أن المشاركين في المآدب يشربون من أكواب ولكن ربما يمسكون في الحقيقة بصحون الطعام وقد يستعملون قطعاً من خبز التنور لايصال الطعام الى افواههم. وهذا يتفق مع قراءة كلمة «ننداميش» بأنها «كوسابو» التي ترتبط بالفعل «كسابو» ويعني يقطع جزءاً، (القاموس الآشوري: كاسابو).

اضافة الى الحبوب كانت تنتج انواع كثيرة من الخضروات ومنها البصل والحمص والعدس والرشاد. ورغم أن البصل والرشاد يرد ذكرهما في السجل النصي كما في لكش ونفر وماري (باور ١٩٧٢) رقم ٤، وينجز ١٩٠٨ رقم ٦٩ وكيلب ١٩٦٥ ص٦٠ وكلاي ١٩٠٦ رقم ١٨ وبيرو ١٩٦٤ رقم ٧٢٩) فقد عثر على بقايا الحمص والعدس في مواقع مثل أور وتل طايا وبازموسيان ونمرود (اليسن وآخرون ١٩٧٨ ص١٦٩). وكان التمر شائعاً خاصة في الجنوب ولكن هناك أيضاً اشارات اليه في نوزي في منتصف الالف الثاني قبل الميلاد (الاجمان ١٩٣٩ ص ٥٣٥) ويشاهد أيضاً في نقش بارز من العصر الآشوري الحديث يمثل آشور بانيبال والملكة يتناولان الطعام في حديقة بنينوى (لايارد ١٨٥٣ .Pl. 141) ولا ينضج التمر في الوقت الحاضر في الشمال عند نوزي أو نينوى رغم ورود اشارات مدونة في منطقة الموصل خلال العصور الوسطى (لوسترانك ١٩٠٥ ص٩٠ و ٩٨ -٩٩) وتشمل الفواكه الأخرى الرمان الذي صنعت حلى تقليداً لشكله يعود تاريخها الي عصر فجر السلالات وبعده (وولي ١٩٣٤ (Pl La 141)، والتين الذي كان ينمو في انحاء بلاد الرافدين، والكمثرى والخوخ والمشمش وقد ذكرت في ماري ونوزي وخلال العصر الآشوري الحديث (دوسن ١٩٥١ رقم ٤٢ وبيرو ١٩٦٤ رقم ٢٠١ ولاجمان ١٩٣٩ ص٥٣٥ ووايزمان ١٩٥٢ ص٤٣ و ١٣٥).

كانت حيوانات اللحوم الرئيسة هي الماشية والأغنام والماعز، وكان الغزال مهماً خاصة في الألف الثالث وقبل ذلك. وخلال عصر سلالة أور الثالثة في بوزريش داكان اطلق الغزال على اسم أحد الاشهر وهو شهر ماشدا اكواي شهر تناول الغزلان (كانغ ١٩٧٢ مثلا رقم ١٣٦)، وهناك أيضاً اشارات الى أن الشعير كان يعطى للغزلان لتسمينها على الأرجح (كاد ١٩٤٠ ص٥٢ رقم (A965) وقد تضمنها اطعمة مآدب آشور ناصر بال في نمرود (وايزمان ١٩٥٢ رقم ١٣٤، ٤ - ٥) كانت الماشية والأغنام والماعز حيوانات مدجنة وربما جرت بعض المحاولات للاحتفاظ بقطعان الغزلان بالطريقة نفسها.

كان السمك جزءاً مهماً من الاقتصاد في لكش في عصر سلالة أور الثالثة حيث شجعت الظروف المحلية (مثل قرب الأهوار والأجزاء السفلى من الانهار) صيد الأسماك ويبدو أن التأكيد قد ابتعد قليلاً عن صيد الأسماك فيما بعد في مناطق أخرى ولكن ليس من المحتمل أن السمك لم يعد جزءاً من الطعام في بلاد كان الاستيطان فيها على الدوام قريباً من الانهار والقنوات، وقد عثر على سنارات صيد السمك في مواقع كثيرة مثل أور من العهد الكاشي (وولي ١٩٦٥. ٣٦ Pl).

ويشير ظهور السمك على الاختام الاسطوانية والنقوش البارزة أنها ظلت مهمة في الالف الثاني والأول قبل الميلاد. وتوجد مشاهد كثيرة في نقوش من العهد الآشوري الحديث لرجال يصطادون السمك من الزوارق وبجانب الجداول وفي البحيرات وكانت الاسماك تشكل جزءاً من الضرائب والجزية التي كانت تستحصلها الدولة الآشورية (باركر ١٩٦١ ص٤٢ ND 2672).

تظهر مشكلة تتعلق بحفظ الطعام، يتلف اللحم والسمك بسرعة بسبب الحر وما لم يجر تناوله بسرعة لا بد من نوع ما من الحفظ. وقد كانت تلك مشكلة ملحة خاصة لدى ارسال اللحم والسمك الى مكان آخر. وكان يحتفظ بالحيوانات حية حتى يحين وقت تناولها حيث كانت تذبح ويجري تناول اللحم وهو طري ولكن فيما يخص السمك فإنه يبدأ بالتلف حالما يصطاد. وكانت الطرق التقليدية الرئيسية لحفظ السمك أو اللحم هي التجفيف والتمليح والتعريض للدخان. وكانت تلك الطرق تستعمل كلاً على حده أو مجتمعة. وكان السمك المجفف والمملح ضمن تجهيزات الطعام المرسلة الى لكش في عصر فجر السلالات الثالث (باور ١٩٧٢ رقم ١٣٣ و ١٣٦)، وهناك اشارات متفرقة الى اللحم المملح أو المخلل في العصر الآشوري الحديث. فمثلاً كان لحم البقر المملح ضمن قوائم الحبوب المشوية والجوز في مأدبة

لاشور ناصربال في نمرود (وايزمان ١٩٥٢ ص٤٣) وهناك أدلة آثارية قليلة على حفظ الطعام والسمك عدا بقايا السمك التي عثر عليها في اريد وتلو الوركاء (لويد وفؤاد سفر ١٩٤٧ ص ٩٤ و ١٠٤ - ١٠٥) وهويزي وثورو - دانكن ١٩١٠ ص٨٢ و هاينريش ١٩٣٥ ص١٢). وربما كان المكان المحاط بثلاثة جدران في المبنى المسمى بالمبنى «غير الدنيوي» الذي يعود تاريخه الى عهد أوروك في اريدو حيث عثر على بقايا السمك والرماد منطقة لتعريض السمك للدخان كوسيلة لحفظه وقد رميت عظام السمك بعيداً بعد تحضيره. وفي تلو والوركار يبدو أن السمك كان يوضع في طبقات الواحدة فوق الأخرى بالطريقة نفسها التي يوضع فيها السمك في أجزاء من افريقيا في الوقت الحاضر لغرض تجفيفه في حرارة الشمس. وقد ذكر أن السمك المجفف والمملح ربما كان من صادرات بلاد الرافدين المختفية أثناء الألف الثالث (كراوفورد ١٩٧٣ ص٢٣٣ - ٢٣٥). وربما استمرت التجارة بهذا السمك المحفوظ في الالف الثاني والأول. وربما كان من الصادرات التي اختفت الآن الجبن المجفف والزبد وكانا من منتجات الالبان الشائعة. ويذكر أن الزبدة كانت تصدر من السعودية في بداية هذا القرن فلبي (١٩٢٢ ص٦).

ليس بالإمكان فحص الناس في بلاد الرافدين لمعرفة ما إذا كانوا بصحة جيدة كما أنه ليس بالإمكان القيام بفحوصات تتعلق بالغذاء لاحتساب ما كان يتناوله الناس. ولكن المجموعة الواسعة من الأغذية المتيسرة توفر مصادر لكافة المواد المغذية الضرورية لأن يعيشوا حياة كاملة ونشيطة. كما أن القيمة الكمية للطعام أصعب تقديراً من القيمة النوعية. وللقيام بذلك من الضروري معرفة الطعام الذي كانوا يتناولونه على أساس يومي. وتسجل نصوص الجرايات كميات الشعير التي كانت تعطى لمختلف العمال.

وتتباين المقادير حسب الجنس والعمر ونوع العمر، وكان الرجال يحصلون على كميات أكثر من النساء والأولاد أكثر من البنات والأطفال وليس من المؤكد ما إذا كانت كافة المقادير يتم تناولها كلها يومياً وربما كانت تلك الجرايات تستعمل لشراء طعام آخر أوحاجيات منزلية وملابس وغيرها وربما كان بعضها يستعمل لاطعام افراد من العائلة لم يكونوا يعملون رغم أن النساء كن في حالات كثيرة يحصلن على مقادير اضافية لاطفالهم (رايزلز ١٩٠١ رقم ١٥٥) وعلى افتراض أن الناس كانوا يتناولون جرايات الشعير كلها في كل يوم فإن أي رجل كان يحصل على سيلاً وثلث سيلا أو أكثر لليوم الواحد وأية امرأة كانت تحصل على سيلا أو أكثر في اليوم الواحد (مثلاً شاكاربازار: لوريتز ١٩٦٩ رقم ٤٢) فإن مقدار الطاقة ما توصي به منظمة الغذاء والزراعة التابعة للأمم المتحدة أو أعلى منه (باسمور وراو وينكول ١٩٧٤ الجدول رقم ١)، وإذا كان كل سيلا يعادل لتراً واحداً فإن سيلا وثلث سيلا من الشعير يحتوي على ٣٦٠٠ سعرة وحتى لو اعتبرنا أن نسبة التلف كانت ٢٠ بالمائة وهي نسبة تميل للارتفاع قليلاً فإن عدد السعرات يكون ٢٨٨٠ وهوعدد قريب من الثلاثة آلاف سعرة التي توصي بها منظمة الغذاء والزراعة للذكر البالغ. ومن ناحية أخرى في حالة أي بالغ، سواء كان ذكراً أم أنثى يحصل على ثلثي لتر من الشعير أو أقل يومياً - وهي كميات كانت شائعة في نوزي (بغايغر ولاجمان ١٩٤٢ رقم ١١٣) يكون مقدار الطاقة الحاصل عليها واطئاً، كانت أوضح انواع النقص في التغذية في جرايات الشعير هي النقص في فيتامين ج وفيتامين أ وهما يكادان لا يوجدان في الشعير ولا بد أنه كان يجري التعويض عن فيتامين ج من مصادر أخرى وربما كان الناس يتناولون بعض الشعير وهو أخضر أو كانت تزرع الخضروات والفاكهة أو تشترى أو تجمع النباتات البرية. وربما كان أي نقص في فيتامين ج موسمياً بحيث أنه إذا أصيب الناس بمرض الاسقربوط خلال أشهر الشتاء ربما كانوا يشفون منه عندما تنضج الخضروات والفاكهة. وربما كان نقص فيتامين أ يؤدي الى مشاكل تتعلق بالبصر وربما يعكس استعمال عبارة أيكينودو «أعمى» لوصف عمال كثيرين وجود ذلك النقص (انظر مثلاً باور ١٩٧٢ رقم ٤٤ و ٤٧ و ٤٨ و دايمل ١٩٢٨ ص٥٥، ولوريتز ١٩٦٩ رقم ٤٢).

لا يمكن لهذا العرض السريع أن يجيب على كافة الأسئلة لأن الكثير من الاختلافات الزمنية والمكانية ما تزال مهمة وهناك حاجة للمزيد من الابحاث في الحقل الآثاري اضافة الى النصوص.

ببليوغرافيا

- بارنيت ٥رد. ١٩٧٦: تماثيل من القصر الشمالي لاشور بانيبال في نينوي (٦٦٨ - ٦٢٧ق.م) (لندن، المتحف البريطاني) بالانكليزية.

– باور، جي. ١٩٧٢: نصوص اقتصادية سومرية قديمة من لكش ستوديا بول ٩ (روما، مطبعة المعهد الانجيلي) بالألمانية.

– بيرو، م. ١٩٦٠: نصوص ادارية من القاعة الخامسة في القصر. المحفوظات الملكية في ماري ٩ (باريس، دار الطباعة الوطنية) بالفرنسية.

– بيرو، م ١٩٦٤: نصوص إدارية من القاعة الخامسة في القصر (الجزء ٢) المحفوظات الملكية في ماري ١٢ (باريس، وزارة الشؤون الخارجية) بالفرنسية.

– بوتيرو، جي، ١٩٥٧، نصوص اقتصادية وإدارية، المحفوظات الملكية في ماري ٧ (باريس، دار الطباعة الوطنية) بالفرنسية.

– بورك، م. ١٩٦٣: نصوص إدارية في القاعة الثالثة في القصر. المحفوظات الملكية في ماري ١١ (باريس، بول كوتنر) بالفرنسية).

– كلاي، أ. ت، ١٩٠٦: وثائق من محفوظات المعبد في نفر من عصر الحكام الكاشيين. البعثة البابلية لجامعة بنسيلفينيا ١٤ (فيلادلفيا) بالانكليزية.

– كراوفورد، هـ، أي ، ١٩٧٣: «صادرات بلاد الرافدين غير المنظورة في الألف الثالث قبل الميلاد» في مجلة ورلد اركيولوجي ٥ ص٢٣٢ – ٢٤١ (بالإنكليزية).

– دايمل، أ، ١٩٣١: اقتصاد المعبد السومري من عهد اوركاجينا واسلافه. في انالتيكا أورينتالاً ٢ (روما، بتونتيفيسيو انستيتوتوبيليكو) بالألمانية.

– دوسن، جي، ١٩٥١: مراسلات شمسي اداد وأولاده (٢). المحفوظات الملكية في ماري ٤ (باريس ، دار الطباعة الوطنية) بالفرنسية.

– اليسن، ر، ١٩٥١: الغذاء في بلاد الرافدين: أدلة من نصوص جرايات الشعير (حوالي ٣٠٠٠ – ١٤٠٠ ق.م) «في مجلة Iraq الآثارية ص٤٣ و ٣٥ – ٤٥ بالانكليزية.

– اليسن، ر ، ورينغرو، جي، روبرثيل، د. وسيلي، ن ، ١٩٧٨: «بعض النذور الطعام من أور نقب عنها سيرليونارد وولي ولم تنشر سابقاً». (بالانكليزية).

– كاد، سي، ج، ١٩٤٠: «ألواح من شاكار بازار وتل براق «في مجلة Iraq الآثارية ٧ ص٢٢ – ٦٦ (بالانكليزية).

– كيلب، اي، جي: ١٩٦٥: «ملف البصل في فيلادلفيا» في دراسات تكريماً لبينو لاندزبيركز مجلة الدراسات الآشورية ص ١٦ و ٥٧ – ٧٠ (بالانكليزية).

– هاينريش، اي، ١٩٣٥، التقرير السادس عن تنقيبات البعثة الالمانية في أوروك في ١٩٣٥. (برلين، دي كروتر) بالالمانية.

– هيلباك، هـ، ١٩٦٣: «بقايا الطعام من ايسن لارسا وحوري في تل بازموسيان في وادي دوكان» في مجلة سومر ١٩ ص٢٧ – ٣٥ (بالانكليزية).

– هيلباك، هـ، ١٩٣٦، «بقايا النباتات من نمرود» في كتاب م. اي. ال، مالوان: نمرود وبقاياها (لندن، كولنز) ص ٦١٣ – ٦٢٠ (بالانكليزية).

– اويزي، ل. وثورو – دانكن، ف، ١٩١٠. في كتاب جي كروس: تنقيبات جديدة في تلو (باريس، لاروس) بالفرنسية.

– كانغ، اس، تي، ١٩٧٣ «نصوص اقتصادية سومرية من ملف أوما ٢ (شيكاغو، مطبعة جامعة الينويز) بالانكليزية.

– لاجمان، اي، ار ١٩٣٩، «أدلة من الكتابات المنقوشة عن الحضارة المادية للنوزيين» في كتاب ر.ف. ستار: نوزي – تقارير عن التنقيبات في يوركان تبه (كيمبرج، مساشوستش، مطبعة جامعة هارفارد) ص ٥٢٨ – ٥٤٤ (بالانكليزية).

– لاجمان، اي، ار، ١٩٥٠ «التنقيبات في نوزي ٥، نصوص مختلفة من نوزي الجزء ٢ ملف القصور والمعبد». سلسلة هارفرد السامية ١٤ (بالانكليزية).

– لايارد، هـ، ١٨٥٨، آثار نينوي ٢ (لندن، جون مري) بالانكليزية.

– لوسترانك، جي، ١٩٠٥: بلاد الخلافة الشرقية. (مطبعة جامعة كيمبرج) بالانكليزية.

– لوكرين، ل، ١٩٤٧، وثائق تجارية من سلالة أور الثالثة، نصوص تنقيبات أور ٣ (لندن وفيلادلفيا، مطبوعات مشتركة للمتحف البريطاني وجامعة بنسلفانيا) (بالانكليزية).

– لويد، س وفؤاد سفر، ١٩٤٧، اريدو: «تقرير عن تنقيبات الموسم الأول في مجلة سومر ٢ ص ٨٤ – ١١١ (بالانكليزية).

– لوريتز، أو، ١٩٦٩، «نص من شاكار بازار» «في تقرير لفون زودن (تحرير م. ديتريش ودبليو، رولش» الشرق القديم، والمعهد القديم ١ (نويكيرشين – فلون، نويكيرشن، وكيفلاير وبوتزن وبيركر) ص ١٩٩ – ٢٦٠ (بالالمانية).

– ماكوان، د. اي وهينز، سي ، ١٩٦٧، نفرا١: معبدا نليل وجي الكتاب وحفر السبر. مطبوعات المعهد الشرقي ٧٨ (شيكاغو، جامعة شيكاغو) بالانكليزية.

– مالوان، م، ١٩٦٦: نمرو د وبقاياها (لندن، كولنز) بالانكليزية.

- مورتكارت، أ ١٩٦٧: فن بلاد الرافدين قديماً (لندن ونيويورك: فايدن) بالانكليزية.

- باركر، ب، ١٩٦١ «ألواح ادارية من القصر الشمالي الشرقي في نمرود» في مجلة Iraq الآثارية ٢٣، ص ٨٦ - ١٠٣ (بالانكليزية).

- باسمور، روراو، ن وينكول، ب. م. ١٩٧٢، دليل التغذية البشرية، دراسات التغذية لمنظمة الغذاء والزراعة ٢٨ (روما، منظمة الغذاء والزراعة) بالانكليزية.

- فيلبي، هـ، ١٩٢٢: قلب بلاد الجزيرة العربية. (لندن، كونستابل) بالانكليزية.

- بنجز، تي، ج. ١٩٠٨، ألواح امهرست (لندن، بيرنارد كواريتج) بالانكليزية.

- بفايفر، ر. هـ ولاجمان، اي. ١٩٤٢: التنقيبات في نوزي ٤ نصوص مختلفة من نوزي، الجزء ٢، سلسلة هارفارد السامية ١٣.

- رايزلز، ج. ١٩٠١، وثائق دينية من تلو (برلين، سيبان) بالألمانية.

- ستار،ر، ١٩٣٩، نوزي - تقرير عن التنقيبات في يوركان تبه (كيمبرج، ماساشوستس، جامعة هارفارد) بالانكليزية.

- وينز، جي، جي، ١٩٧٣ «بقايا النباتات من تل طايا» في مجلة Iraq الآثارية ٣٥، ١٨٥ - ١٨٧ (الانكليزية).

وايزمان، د. ١٩٥٢ «مسلة جديدة لآشور ناصربال الثاني» في مجلة Iraq الآثارية ١٤، ٢٤ - ٤٤ بالانكليزية.

- وولي، س، ال، ١٩٣٤. المقبرة الملكية (جزآن) تنقيبات أور ٢ (لندن المتحف البريطاني) بالانكليزية.

- وولي . ل. ١٩٥٤: التنقيبات في اور (لندن، بين) بالانكليزية.

وولي، ل. ١٩٦٥: العصر الكاشي وعصر الملوك الآشوريين، تنقيبات اور ٨ (لندن وفيلادلفيا)، المطبوعات المشتركة للمتحف البريطاني، وجامعة بنسلفانيا.

- القاموس الآشوري (شيكاغو، مطبعة جامعة شيكاغو) بالانكليزية.

بحوث باللغة الأجنبية

The Lebanese Civil War:
Its causes and prospects

By

Abdelfattah Rashdan
Mu'tah University
Mu'tah - AL- Karak
Jordan

الحرب الأهلية في لبنان
الأسباب والتصورات (ملخص)

الحرب الأهلية في لبنان: الأسباب والتصورات (ملخص)

تهدف هذه الدراسة إلى تحليل المشكلة اللبنانية كأحد المشكلات المستعصية في منطقة الشرق الأوسط، بقصد التعرف على الأسباب الكامنة وراء هذا الصراع الدموي، وقد حاولت الدراسة استطلاع الحلول المناسبة والممكنة لوضع حد للحرب الأهلية المدمرة التي تستهدف لبنان.

وقد أثارت هذه الدراسة في البداية عدة تساؤلات حول طبيعة الصراع اللبناني: هل التركيب السياسي في لبنان صمم هشاً لكي يكون قابلاً للإنهيار بسهوله؟ وهل كان سبب الصراع يعود لأسباب طائفية أو طبقية أو لأسباب خارجية؟ وأخيراً ما هي امكانية وضع تصورات وحلول لمستقبل لبنان؟

لقد بينت الدراسة أن عدم الاستقرار في لبنان منذ أن نالت استقلالها عام ١٩٤٣، يرجع إلى خلل وضعف في طبيعة تكوين النظام اللبناني السياسي والاجتماعي، وخاصة المؤسسات السياسية التي لم تكن قادرة بحق على التكيف، ومواجهة التغيرات واستيعاب المطالب الجديدة. حيث أن المؤسسات اللبنانية بقيت عاجزة عن مواكبة التطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ولم تكن كذلك قادرة على تضييق الفجوة الطبقية والطائفية والاجتماعية التي أرساها الميثاق الوطني اللبناني عام ١٩٤٣.

وخلصت الدراسة إلى أن أي محاولة لوضع حداً للصراع اللبناني يجب أن يقوم على معالجة الخلل الذي يعاني منه البنيان السياسي والاجتماعي والذي كان السبب الأساسي في عدم الاستقرار وإشاعة الفوضى والخراب الذي يعاني منه لبنان. ولا يخفى أن الميثاق الوطني هو الذي جاء ليكرس النعرات الطائفية والطبقية في المجتمع، ويبدو أنه لا بد من الانتظار حتى نرى الأوضاع قد صوبت وأعيد بناء المؤسسات على أسس شرعية تلقى قبولاً شعبياً من جميع أطراف النزاع.

The Lebanese Civil War:
Its causes and prospects

"Abstract"

The purpose of this paper is to examine and analyze the Lebanese Civil War in order to assese the reasons that cause such conflict and do establish the Main caharateristics of conflict and to present th options for the future.

The study domenstrate that the instability in Lebanon since it became independent reflects the short coming in Lebanese political and social structure. Particulary the political institution which were and still not capable to take hold and adjust to changing conditions that lebanon has faced and to response to the political demands made by the people.

The study conclude that the Lebanese political system is based on the national pact of 1943 which has established a traditional mosaic social diversity and dominated by traditional Leaders and Kinship, religions, and Local Loyalities, resulted in the weakening of any form of central gorenment and in the emergence of several centers of power within the states.

An optimitic Prognisis for Lebanon's future must be to a wait progress toward the resolution of its long-term problems.

**The Lebanese Civil War:
Its causes and prospects**

1. Introduction

As in other regions in the world, a few governments in the Middle East have attempted to develop effective public policies toward the ethnic, sectarian, and tribal components of their respective population mosaics. The result has been official repression, communal violence, and massacres, realities which have been endemic in the area, particulary in the last few decades of this century. This study will consider the of Lebanon. a prime example of an ethnically heterogeneous state with its singular confessionally - based system of sociopolitical. existence. Lebanon's confessional model is more relevant to the Middle Easts's milieu of ethnic and religious diversity that to the unitary prototype of nation - states.

Lebanon, with its unique political system is a new state which gained its independence from the French man-date in 1943. The French mandate enforced a confessional upon the various groups in the country throuth the National Pact of 1943. This pact basically provided for a unitary state, with a strictly discriminated apportioment of powers and politics among various religious groups . Essentiallty, the covenant favored Lebanon's Maronite Christians by granting them the presidency and control of parliament. In addition tradition allotted them other key positions, including that o f army commander. The Sunni Muslims were assigned the prime ministry; the Shiite Muslims, Leadership of the Chamber of Deputies. Christian economic predominance in Lebanon, with the support of the Frence mandate, reinforced the political positions of the country, and "the result was a uniquely western-oriented state in the midst of oriental culture and growing Arab socialism "(waterman, 1978:40).

Lebanon as a state is an entiry consisting of five major communities: Sunni, Shiite, and Druz Muslims and Catholic and non-Catholic Christians. The Catholic group consists of Maronite Greek, American, Syrian, Latin, and Chaldean Catholics, and the non-Catholic group consists of Greek, American, and Syrian Orthodox believers and protestants .(chamie, 1981).

The semi-autonomous nature of Lebanon's religious communities has precluded

the building of the state but has left it communially divided. In the words of Joseph Chamie.

> The Lebanese political system is an unusual mixture of the traditional and secular features. At first glance and form a distance, the country has the image of a state based on democratic institutions and Liberal doctrines. yet upon close inspection one finds that the country is far from this kind of state. The country's parties, parliamentary coalitions, blocs, and various pressure groups run the interests of the larger society, which are often put in a secondary positions, if not thwarted al-together. (chaimec 1981:30 -31).

An analysis of sholarly literature of the Lebanese community demonstrates that the shortcomings and handcaps of the Lebanese socio-polity are obvious. No scholar or assembly of sholars trained in contemporary methods of investigation and modern political sociology can overlook them. Lebanese democracy does not rest on a comperenesive, country-wide attachment to lebanon. People may know that they are Lebanese, but this is not as significant a fact for most of them as being Maronite, Orthodox, Sunni, Shiite, etcetera. The working constitution of the country was made rigid by the National pact, which prevents the Chamber of Deputies from being a true form for ideas and prevents elections form affording any real competition among parties.

In short, the Lebanese political system is bound to an unstable form of non-government that has reflected as well sustained the existing social cleavages at the base of the current civil war in the country.

The purpose of this study is to examine and discus several questions that may be raised regarding the Lebanese civil war. Was the Lebanese system destined to collapse? was the collapse fundamentally a result ethinicity, religion or class. or was it of foreign and extrinsic provenance? And, finally, what are the options for the future? Questions like these are essential to ascertian and evaluate the reasons advanced for the collapse.

11. The Nature of the Lebanese State

As a result of World war I and the defect of the ottoman Empire, at the San Remo conference in Italy in April 1920, the Allies placed lebanon and Syria under a French

mandate. General Henri Gourand was appointed by the french government to discharge the madate's provisions in Lebanon.

On September 1, 1920 General Gourand proclaimed the establishment of Greater Lebanon, with its present boundaries and Beirut as its capital city. The first constitution Promulgated in May 1926, was unsatisfactory to Lebanese nationalists because, under its provisions, the french High Commissioner still exercised supreme power. "(Smith, 1974, 37-40).

Greater Lebanon could not easily accept such an arrangement because its mumerical balance had changed. The smaller Lebanon had had a Maronite majority, but now all the Christian sects together had at best a bare majority. Moreover, half the population of the new lebanon did not accept the legitimacy of either the state or its form of government. Many Maronites still remained loyal in their hearts of the inclusion of Beirut and Tripoli in Greater Lebanon. Most Muslims, in contrast, were loyal to the idea of an Arab nation. Finally many of the Orthodox Christians were unwillin to be part of state in which Maronites would dominate and French was always present. Their political ideal was either Arab or Syrian, and they supported the idea of a secular united Syrian nation (Binder. 1966).

A few days after the promulgation of the constitution in 1926, Charles Debbas, a Christian leader. was elected as the first president of Lebanon. At the end of Debbas second term, two candidates Bishara Al-Khoury and Emile Edde, ran for the office. The divided Chamber of Deputies faced and impasse. with some deputies of the cabinet and the Muslim leader of Tripoli. To preclude the election of a Muslim Proposing the condidacy of sheikh Mohammad El-Jisser President, the French High Commissioner, Henri Parisot, suspended the constitution on May 9,1932, and extended Debas term for an additional year (Yamak, 1966).

On January 30, 1936, the Chambre of Deputies elected Emile Edde president of Lebanon for a there-year term. A year later, in January 1937, Edde partially reestablished the constitution of 1926 and proceeded to hold legislative elections in October. After the out break of world war **II** in September 1939, however, the constitution was again suspended by the French High Commissioner (Smith, 1974).

In the early 1940s, before the French left the country , the views of the lebanese

people were divided regarding the establishment of a national identity . According to Labib Zuwiyya Yamak.

> On th one hand there were those who believed that Lebanon formed a part of the Arab world ethnically, culturally, ... historically, and geographically and that the Lebanese were an integral part of the Arab nation. On the other hand, and taking the diametrically opposite point of view, were those who believed that Lebnon was geographically part of the Arab world in the general sense but that ethnically, historically, and even culturally it constituted separate entity. The first group denied that lebanon had any special mission that distinguished it from the rest of the Arab countries, while the second group viewed Lebanon not so much as the western frontier of the Chritian west, and moreover as a country with a special misson that was not compatible with nationalist aspirations of the arab world (smith, 1974).

In 1943, the Muslim and christian groups in Lebanon reached an oral agreement the national pact described above-enforced by the French mandate, which made possible the creation of an independant Lebanon. The Muslim Political establishement recognized the legitimacy of a sovereign Lebanese entity in return for the Christian communities willingness to share power and recognize at least the partial Arab character of this entity, It was agreed in the pact that the president of Lebanon must be a Maronite Christian, the prime minister a Sunni Muslim, and the speaker of parliament a Shiite Muslim. Greek Orthodox Cristians would occupy the posts of vice-speaker and vice-premier (Crow, 1962). This distribution of power among the various religious communities accordig to their presumed numerical strength-by then a traditional pattern in Lebanon was agreed upon. Christian supermacy in the state prompted the decision to elect a Maronite to the powerful office of president and to establish a ratio of six Christian deputies to every five Muslim deputies in parliament. The Lebanese polity was not based on the presumed existence of a Lebanese nation but, rather, on a confederation of protonational communities, each of which claimed the ultimate allegiance of its members. This unique political system which acknowledged the Primacy of its constituent religious

communities and vasted them with political power, came to be clalled "confessional" (Rabinovich. 1984: 24).

Opposition to the National pact was not long in coming. In a speech to Parliament, Riadh Al-Solh, the first prime minister of independent Lebanon, declared his implicit opposition to the political compromise of the pact and his wish that it be abrogated.

> The hour in which the abolishing of confessionalism becomes possible will be a blessed hour of full national awakening in the history of lebanon. We shall do our utmost to reach this historical hour at the earliest possible moment if God permits. and it is only natural that to organize this demands preperation and planning in many different directions. (Smith 1971: 190-192).

The political system of post-1943 Lebanon was based on the political institution of the mandatory period and on the National pact. It was an ascriptive system based on the preservation of the status quo. with confessionalism as a cornerstone of the political system, religious leaders and other traditional leaders and interests kept their pominence within their respective communities. This bias was further reinforced by other characteristics of the political establishment, such as the electoral system, which served to preserve the position of community notables (Zu'ama) and to hinder the development of parliamentary political parties across communal and regional boundaries. Often the Zu'ama would function alongside the formal and bureaucratic structures, offering services and protection in violent conflicts. (Rabinovich 1984).

The Republic of Lebanon could be described, in the words of David C. Gordon,

> as a product of its long experience of multiethnic coexistence (when this worked) of particular institutions and traditions elaborated under the mandate system and of an agreement, the National pact, couched inevitably in negative rather than positive terms. On the positive side, this legacy provided for freedom and for participation in the affairs of state by all groups, although in a descending scale of effective power. On the negative side, the peculiar system of checks and balances explicit or implicit in the system has often made for immobilism, log-rolling,

> compromise where dicisiveness is called for the resort to Wasta (special personal influence), and the inability of leaders to make forcful decisions without putting the whole structure in the risk. As a result, the freedom the system has offered has depended on luck and good fortune to a large extent, on economic prosperity, a favorable and calm international atmosphere, and the predispositions of stronger neighbors and the great powers to tolerate or to protect Lebanon. (Gordon, 1983, 77).

In upholding the principles of confessionalism and playing down the notions of nation and class, the Lebanese political system acquired an archaic complexion, and from the mide-1960s it found itself challanged by the political attitudes prevailing throughout most of the outside world. (Rabinovich 1984).

III. The Civil War of 1958

The formula of the National pact of 1943, which was imposed by the French mandate upon the various groups in Lebanon, disappointed most of the groups in the country because it was designed to serve one particular group - the Maronites - at the expense of the others. Consequent upon this disappointment, the challange to the status quo in Lebanon since 1943 could be traced to three basic sources:

> First, some Muslims rejected the 1943 compromise and its system as unrepresentative of its population. Second, a variety of ideolgically inclined groups and individuals (Arab nationalists, communists, and other advocates of social and economic change) viewed the existing system as a barrier to the implementation of their ideas. Finally external forces (such as Syria, Egypt, and the Soviet Union) sought to establish influence in Lebanon and to weaken western presence and influence. (Rabinovich, 1984:27).

The dissatisfied groups (mainly Muslims) were motivated by the Arab nationalist movement, which had emerged with the rise to power of Egyptian leader Gamal Abdel Nasser after the Egyptian revolution of 1952. Nasser was very popular among the Leba-

nese leaders who advocated Arab nationalism and were opposed to the National pact. which embodied and institutionalized the defferences among the sects in Lebanon.

All of the people of Lebanon, whatever their religion, might speak of a Lebanese nation and quality among the sects, but each group had its own perspective on those concepts. For some, Lebanon was a Maronite national home; for others, a Charistian refuge; for still others, a secular state based on a scarcely existing national unity or perhaps a temporary expedient untill a broad, secular Arab state should be ready to absorb it. These differing viewpoints were reflected in various nationalist movements and parties-Lebanese, Syria, and Arab-but all of them were based on different religious loyalties which were still the fundamental reality in the Lebanese community. (Binder 1966).

As a result of these and other problem, the first major crisis to thearten the existence of the Lebanese state erupted in 1958, escalated by the combined pressure of domestic and regional developments. President Gamille Chmoun tried to impose a degree of presidential discipline over the traditional leaders (Zu'ama) of the Chamber of Deputies, in part by electoral manipulation. This provoed vigorous opposition from the Zu'ama, who feared Chamoun's intention to succeed himself in office. (Dekmejian 1978).The upsyrge of messianic pan-Arab nationalism under Nasser's leadership plus the Egyptian Iraqi rivalry set the regional scene for tfhe explosion (Rapinovich1984).

Tension mounted in February 1985, but a military outbreak did not take place in Beirut and in Lebanon as a whole until May 8, when Nassib Metni, a Journalist opposed to president chamoun, was assassinated. (Vek, 1987) The civil war broke out between Chamoun's supporters and his opponents, most of whom were Muslims. This conflict primarily involved phalangist militias and the Lebanese Syrian part. The Lebanese army remained neutral because its commander-in-cheif, Fuad Shihab, feared that a communal split between the Christians and Muslims would make conditions even worse.

The fighting ended with the landing of United states Marines in Bierut, at the request of president chamoun, while the political war subsided after another historic compromise was arranged. President Chamoun renounced reelections; General Shihab was elected as his successor; Rashid Karami, one of the Muslim leaders who opposed Chamoun during the crisis, was appointed as prime minister; (Dawisha 1980) and it was decided to restore the status. The events of 1958 had manifold causes, but the overiding is-

sue was undoubtedly a Christian-Muslim struggle over the nature of the Lebanese state (Rabinovich, 1984).

The civil war demonstrated to all of the groups in Lebanon that extermist policies in the delicate circumstances prevailing in the country were bound to lead to violent crisis. It also demonstrated the differences of the existing system but showed that the alternative to it were even less attractive.

IV. The civil war of 1975 and 1976

As time has passed since 1985, clashes of political views continued in the rapidly changing Lebanese socity, where the balance of population between Muslims and Christians was shifting to favor the former and the balance between urban and rural residents was also shifting. The capital of Beirut was becoming ever more important ir Lebanon's social and economic life. The small size of the country increased the tension Everyone was involved in the political process, which made the stability of larger state: virtually impossible to achieve (Binder 1966).

After a period of relative harmony and prosperity in Lebanon between the resolution of the civil strife of 1958 and the Arab-Israeli war of 1967, matters began to go seriously amiss. The refusal of the army command to involve Lebanese forces in the Six-Day war enraged many Muslim leaders, the progressive part, and the palestinians, anc heightened existing tensions. The palestinian armed presence became incresingly visible. In 1969 and 1973, palestinians clashed with the army, and, in 1970 units of phalangists clashed with the palestinians (Gordan, 1983). Clashes also broke out between the palestinians and phalangists in the southern city of Tyre. Shortly afterward, a statment was issued by Al-Kataib party leader pierre Gemayel asking the palestinians to put an end to their activities (Salibi, 1976).

Former president Chamoun denounced the palestinians and urged the government to ust drastic measure to destroy them. Muslim leaders responded to the sentiments of Gemayel and chamoun by accusing the government and the army commander of cooperating with the christian political parties to take over political and military control in Lebanon, In addition, the Muslims demanded the reorganization of the army on the grounds that it had yieleded absolutely to the will of the christians Presidency.

These demands aroused the motion of lebanese christians, who staged demonstration in the streets in support of the army (Barkat, 1977).

Criticims of the government became incresingly vocal, and the power of traditional leaders began to be seriously challenged. The mood of distrust was accentuated by a growth of Lebanon's Muslim majority as well as by the altered position of the western powers in the region. Political life in Beirut was affected by the juxtaposition off new poor districts to affluent districts, by a sharp demarcation between a predominantly Christian (eastern) and a predominantly Muslim (Western) section of the city, and by the presence of palestinians refugees, who were to be found throughout Lebanon but particularly in the capital. Many Muslims shifted their allegance to newer, more radical parties, movements and militias, These trends were matched by the growth of Christians militias, particularly the phalangist, whose role as protectors of the Lebanese Christian entity and of a threatened way of life became much more pronounced (Rabinovich 1984).

Finally, the Lebanese political system collapsed under the pressure of rival internal and external forces. The endless demands and ultimatums, acts of political violence, transgressions against the state's authority and sovereignty, and other manifestations of social and political tensions culminated in a second civil war. The dramatic incident that set the nation on fire was the messacre of that occurred in Ain-el-Roumeneh on April 13, 1975 when phalangist gunmen ambushed a bus and killed twenty-seven of its palestinians occupants (Vock, 1978). Whether or not this action was justified as an act of retaliation for earlier incidents, the fuse had been ignited with hindsight it dose seen that Ain-el-Roumeneh was a decisive moment and that afterwards there was no truning back.

The events of the war may be categorized into five phases (Gordon, 1983).

1. April to September 1975. Clashes occurred between the phalangist militia (Kataib) and leftist and palestinians units, and strife between the inhabitants of Ain-el-Roumeneh (Maronites) and Al-Shiyyah (Shiites) continued despite medication efforts and cease-fire agreements.

2. December 1975 to April 1976. In December 1975, fighting resumed. The Ultra-National liberals seized the palestinian camp of Dbayya, north of Beirut, and the pales-

tinians attacked the Christian stronghold of Damour. south of Beirut, after the Kataib occupied and destroyed the mainly areas of karantina and Maslakh in Beirut. By now the palestinians, whose earlier, role had been ambiguous, were openly and visibly involved in the fray, and the Ultra were placed incresingly on the defensive. Mean while, after consultation with the Syrian government, president Suleiman Franjiyy issued a Constitutional Document on February 6, 1976, which, it was then hoped,would serve as a basic for the final resolution of the conflict Since the Muslims had long complained that the Lebanese president was like a dictator who held all power in his hands while the prime minister be elected by parliament and insisted that the number of parliamentary seats assigned to Christians and Muslims be equal instead of following the six to five formula. Muslim leaders in Lebanon warned that, if Christians continued to insist on special privileges in the Lebanese political system, the result might be the breakdown of the nation. (Clarity, 1975). In addition, at this time the army began to disintegrate.

3. April to may 1976. Syrian troops entered Lebanon in March 1976, when the leftists and the palestinians seemed to have victory within their grasp. Criticism of president Franjiyya was mounting in all quatters, and he was forced to accept a constitutional amendment passed by parliament setting the date for an election six rather than theree months before the expiration of his term. On May 8, parliament elected Ilyas Sarkis as the new president.

4. June to September 1976. The Syrians extended and consolidated their hold upon the fighting groups, and the leftist and palestinians resistance movements were brought to heel. The Ultras regained control, with Syrian support, of most of the mountainous area of Lebanon.

5. Ocotber to November 1976. Meanwhile, the Arab states, with Saudi Arabia playing a crucial role, agreed at Riyadh on October 16 to a syrian presence of some 30.000 troops in Lebanon, provided that it was "Arabized" and included units from other countries to maintain peace and order. The Syrian troops to move along the coast road through Chirstians- and muslim- held areas toward Beirut entering the city on November 10. By November 15. the entire capital was under the control of Syrian troops (Dawisha 1980) By December, the port of Beirut and the airport were functioning regularly again, and warfare was limited to the south, but violence terrorism and bloodshed

continued to take their toll.

Ayear and a halt of desprate fighting had left little in Lebanon undamaged. Only the banking system funcioned as it had previously. Public services, hospitals , roads, schools and the electrical network had been wrecked throughout the country. Industrial and agricultural equipment had been destroyed, and total damages were estimated at U.S.$ 2.5 billion.The official casualty figure was given as 30,000 dead, but this was probably an understandment, and it is possible that as many as 50,000 people were killed and twice that number were wounded during the war. More than 600.000 people has abandoned their homes to move to areas their co-religionists were in control. (Khalidi 1979).

The success of the Arab Deterrent Force (ADF) in improving security did not last long, for in the spring of 1977, vilence began to increase again, in the form of kidnappings, bombings, and gunfights between rival militiamens. In other world, the civil war which began in the spring of 1975 is still going on, and country with its various sects continues to suffer from its effects.

V. The factors playing Roles in the Civil War

The Lebanese system has been discussed by many scholars, but, according to the framework of analysis emplyed in the conflict, the current civil war in Lebanon is a culmination of a confrontation that has been building between the forces for change and the forces for maintaining the established order against all odds and, often, in oppostion to professed principles of society and government.

The first viewpoint insists that Lebanese genuis devised a unique system of government that a ocmmodated an unusual number of religious communities into one unified and harmonious and pluralistic entity. This view, as expressed by American sociologist Edward Shils, Claims Lebanon is a happy phenomenon unique in the Third World-a prosperous liberal country, It has a parliamentary body freely elected in the competion of a plurality of independent political parties. (Binder, 1966) Lebanese scholar Elie Salem assents that the:

> society has developed successful institutions to ensure continuing modernization with a minimum of social and political strain

and without resort to a radical ideology. The diversity of beliefs and attitudes in Lebanese society has furthered rather than hindered modernization. The slow gains accomplished are the result of stable political institutions and of a formula for government based on conciliation and consensus...

Future modernization involving the public must occur within the prevailing political structure. This prospect becomes the most probable possibility and is likely to continue. (Salem, 1973: 3-4).

Some subscribers to this point view have claimed that the Lebanese political system was able to produce political integration and unity. Such a conceptualization comes close to saying that civil war occurred in spite of the system, not because of it. Similar assertions have been made by ex-President Franjiyya and Chamoun in two messages which they forward to a convention of Lebanese immgrants held in Ecuador in June 1976. Franjiyya's message asserted that "Lebanon was able to build a prosperous and developed society as a result of its affiliation with the free world its domocratic principles, and the talents of its children This Lebanon is now exposed to a fierce plot carried out by the palestinians and the destructive left. In the same vein, Chamoun declared, "I assure you that there is no civil war in Lebanon nor class struggle on its holy land.. Lebanon is facing a most fierce plot against its existence and civilization. Our war is with strangers (palestinians) This war is not sectarian. (Barakat 1977).

An opposite point of view described the Lebanese political system as a unique. unique unstable form of nongovernment that has reflected as sustained the existing social cleavages at the base of recurrent civil wars in the country. Halim Barakat, a Lebanese scholar, predicts that:

unity and assimilation into a unified national order remain as a prospect only. As long as the above conditions continue to be unchallenged in a systematic and rational way, Lebanon will remain a moasaic society with dim prospects for stbility and national unity, and thus threatened at its very roots. (Barakat 1973 4-5).

Commenting on the religious factor and voting behaviour in Lebanese elections, Barakat points out that the influence of religion on elections has been increasing rather than decreasing, that the established order promotes sectarianism, and that, consequently, a process of polarization between the christian and Muslim communities has been taking place, situation which will render the political system less able to solve its accumulating internal problems (Barakat 1977).

* In order to evalute these two points of Veiw, several factors should be examined: religion, political parties and factions, and the palestinians.

1. Religion. The formula of "right-wing christian versus left-wing Muslim" has often been used to characterize the line- up at the beinning of the Lebanese civil war. This description, however, is such an oversimplification that it is of little use a serious explanation. Thoughout its history, Lebanon has been a confederacy of different and distinet religious Communities Yet, the Lebanese are not a notably religious people, and conflict between sects was usually the result of political rivalry.

The two main christian communities in Lebanon are the Maronites and the Melchites, the latter being subdivided into Greek Orthodox and Greek Catholics. There are also two Muslim communities, the Sunnis and the Shiites, and a third samller one, the Druze.

Conffessionalism, whatever advantage it might have had in 1943, clearly had its drawbacks as well. It was inficient and cumbersome and tended to reinforce sectarina ties at the expense of national feeling. According to michel khoury, son of the late President Bishara Al-Khoury, the National pact is a negative agreement in which the christians abandoned the idea of protection from a foreign power and the Muslims agreed not to merge with the Arab world. In its stead a new national consensus is needed. (Gilmour, 1983).

Lebanon is composed of diverse cultural and religious minorities allowing only minimal social and political integration at the national level. Social relations across religious communiteis are very rare, and non of these communities is stron enough to dominate and shape a national destiny in its communal image, yet none is a weak as to be effectively subdivided. (Azar 1084).

Because religious identity an important source of personal security and a locus for

political ideas and action in Lebanon, the Lebanese have taken to defending their confessional system at the expense of national integration. Religion has been found to be a highly important differentiator or predictor of the political views and behaviour of Lebanese society. The Lebanese have not been able to liberate themselves from religious Loyalties. They exhibit strong alienation from religion (although it dose affect political views), but political cleavages continue to be most significantly detarmined by religious affiliations. Religion perse is not necessarily the determining factor, but it is clearly revealed that the socioeconomic and political status of the different religious commumities in Lebanon is at the root of their political orientations and perspectives.

2. Political parties and factions. The Main charcteristic of Lebanon is the mosaic-like nature if its population, which consists of no less than fifteen ethenic and religious groups. (Binder 1966) Analysis of Lebanese factions and parties categorizes them into two camps, the status quo and revisionist. The status quo coalition has relied on Maronite leaders. Parties with Christian - Maronite orientation and their affiliated militias were the backbone of the Maronite community's political power. They included the Phalangists. headed by pierre Gemayel, camille chamoun's National Liberals, and Suleiman Franjiyya's political clientele. Despite their differnt policeis and personal interests, these three groups and their leaders acted with relative hormony during the height of the crisis (Rabnivorich 1984) The other four categories were the Maronite religious establishment, communal Maronite groups, Christian leadership in the army, and accommedationist Christian Leaders.

The revisionist coalition is large and hetereogeneous. It has suoght-most of the time in vain-to coordinate the efforts of many political groups and figures. Most of the fighting on behalf of this camp was carried out by palestinian organizations and Muslim and leftist militias. The revisionist camp was reinforced by Al-Kaitab's forces in 1978, but these were decimated by the fighting into a small force. Within the revisionist coalition five major categories can be discerned: veteran leftist and opposition parties, organization and militias firmed in the course of the crisis, traditional Zu'ama and the Sunni establishment, the militant Shiite leadership, and palestinian organiztions. (Rabinovich, 1984).

These factions render Lebanon a fragmented mosaic society that continue to be

dominated by conflicting loyalties and value oreintations. They also allow fo external interference in Lebanon's affairs. Further more, these features have created an ideal situation for the traditional leaders to remain in alliance with the relgious institutions that preach loyalty to the established order.

3. The palestinians. After 1965, the 300.000 palestinians in Lebanon were to become a major political factor in the country's life when palestinian commando raids into Israel began from across the Lebanese border, as a matter of policy Lebanese security forces often intercepted them. These incidents provoked a storm of protest from palestinians and Lebanese progressive (Gordon 1983).

two crucial facts should be remembered in discussing the Palestinian factor: "a- there was a collapse of authority in the Lebanese state and open conflict among the Lebanese themselves; b- there was no effective centralized authority over the armed Palestinians in Lebanon. (Hudson 1978) The existing gaps between the Lebanese religious-political communities widened, deepened and polarized as a result of the presence of the palestenian resistance movement in Lebanon. This movement served as a catalyst by spontaneously diffusing radical ideas, encouraging the leftists to press for overdue fulfillment of demands, inviting radical elements from other Arab countries and the world into Libanon training and arming dissidents and upsetting the delicate balance of power within Lebanon, all of which alarmed the rightest parties that fluorished in Christian communities. (Barakat 1977).

The resistance movement had widesprad popular support among Lebanese in the coastal cities, especially among members of the poor and middle classes who were conscious of their Arab identity. This support was probably strongest among Sunnis but was also evident among Shiites and Greek Orthodox Christians. The resistance was a political threat to the principle traditional Moronite leaders, notably Chamoun, who not only saw Pan-Arabism as a threat to "their" Lebanon, but also perceived that the palestenians might catayze a movement for change among those segments of the Lebanese population who were either frozen out of effective participation or limited by custom to an inferior position with regard to the Maronites. (Hudson 1978).

The palestinian resistance movement fearing a repetition of the 1970 civil disturbance in Jordan, where it isolated itself from the jordanian nationalists, sought to

strengthen its alliance with the leftist-nationlist group in Lebanon. Since then, an attack on one has meant an attack on the others, and defending the other means defending oneself. The leftist-palestinian alliance, in turn, reinforced the belief of the rightists that the palestinians constitute a force disruptive to the existing internal balance of the nation. As previously noted, it was the massacre of a busload of twenty-seven palestinians at Ain-el-Roumeneh on April 13, 1975, that triggred Lebanon's second civil war. (Barakat, 1977).

VI. Conclusion

The continuing instability in Lebanon since it gained its independence in 1943 reflects the short comings in its system- building, notably the incapacity of its political isntitutions to take hold and adjust to changing conditions and demands. According to Samuel Huntington political instability in Asia, Africa, and Latin America is the result of the rapid social change and rapid Amobilization of new groups into politics, coupled with slow development of political institutions, or, in other words "the lag in the development of political institiutions behind social and econmic change" (Huntington. 1968, 34-53) To Huntington, successful institutionalization means the development of governing institutions that embody new source of legitimacy, participatory institutions providing channels for relating the newly participant groups to the governing institutions, and bureaucratic institutions that provide structures for the discharge if those administrative functions that modern society requires of its political systems. (Huntington, 1968).

This study advocates the View that describes the Lebanese political system as a unstable form of non- government that has reflected as well as sustained the existing social cleavages at the base of recurrent civil wars in the country. According to Barkat, the sources of these recurrent crises are connected with the following features of the complex religious diversity of Lebanese society:

1. Lack of consensus of fundaental issues and particularly on the national identity of Lebanon.
2. Lack of extensive, deep, and open dilalogue between the Lebanese religious commumities.

3. Loyalty of the Lebanese to their sectarian kinship, and local communities rather than to the country as a whole.
4. Increasing legitimization of the sectarian system and non-separation of religion from the state, which has prevented the adoption of secularism and civil marriage.
5. Absence of a unfied educational system, a situation which allows for socialization of the young into their traditional sectarian communities and promotion of religious identity. (Barakat 1977, 195).

The political system governing Lebanon, based on the traditional mosaic social diversity and dominated by traditional leaders and kinship, religious, and local loyalties, resulted in the weakening of any from of central government and in the emergence of several centers of power within the state even befor the palestinians moved int Lebanon. The lack of strong central government in Lebanon has contributed to the emergence of private militias, helplessness in enforcing laws, constant interence of all sorts of external forces in lebanese internal affairs, and difficulty in imposing solutions even when solutions are reached.

These shortcomings and deficiencies were created by the National pact of 1943, In the words of Clovis Maksoud,

> It gave a semblance of guaranteeing a democratic setup and freedom of expression. But this was a domcracy by default and not of conviction.
>
> The Pact assumed hat to be in a constant dialogue, freely voicing thier demands and intersts. In a way, this from of democracy confirms the faulty basis on which the Lebanese body politics rests. Under such conditions a premium is placed on the political attachment to the religious group. and the capacity to serve its intrests becomes the criterion for political relevance. Democracy then becomes the free inteplay of these groups within the framework of the regulatory machinery for their coexistence.

> The pact often has been berached, and the gaps only revealed
> the inadequacy of the formula and its assumptions. (Binder
> 1966: 240-24).

An o ptimistic prognosis for Lebanon's futurt must be to await progress towards the resolution of its long- term problems. As yet, this process has been imperfect indeed.



نـدوات ومـؤتمـرات

المؤتمر القومي الاسلامي

شاركت الدكتورة رناد الخطيب عياد في المؤتمر القومي الاسلامي الذي عقد في بيروت - الجمهورية اللبنانية في الفترة ما بين ١٠ - ١٢ تشرين أول اكتوبر ١٩٩٤ ويهدف هذا المؤتمر الى بحث الأوضاع العربية والاسلامية للأمة وما تعانيه من ازمة مستحكمة من كافة الجوانب مع محاولة التوصل الى حلول وآليات للنهوض والإرتقاء.

وافتتح المؤتمر بكلمة ترحيب عن الاسلاميين القاها السيد محمد حسن الأمين وكلمة ترحيب باسم القوميين القاها الاستاذ محمد البصري.

ثم عرضت ورقتان الأولى عن حال الأمة من وجهة نظر الاسلاميين والأخرى للقوميين.

وقد تابع المشاركون في المؤتمر جلساته وقدموا مداخلاتهم حول الورقتين وبنود جدول الأعمال.

وفيما يلي البيان الختامي الصادر عن الاجتماع التأسيسي لهذا المؤتمر.

بسم الله الرحمن الرحيم

البيان الختامي

الصادر عن الاجتماع التأسيسي

للمؤتمر القومي الاسلامي

انها واحدة من خصائص امتنا العربية، على مر تاريخها الحضاري الطويل: النهوض، في مواجهة التحديات الشرسة التي تهدد الوجود، لاستنفار الطاقات، واستجماع امضى ما في ترسانة مقاومتها من ايجابيات، تثبيتاً لإرادة الصمود وتنمية واستكمالاً لشروط الانتصار..

صنعت امتنا العربية ذلك في مواجهة الغزوة الفرنجية.. والزحف التتري اللذين هددا وجودها، وصنعته مرة أخرى في تاريخها الحديث، عندما فرضت الغزوة الاستعمارية الغربية عليها التحديات الشرسة من جديد.. حتى لكأنما تاريخ هذه الأمة المجيدة سلسلة من التحديات، ومعالم لاستجماع القوة واستنهاض العزائم لمواجهة هذه التحديات.

فالمسجد الاقصى الذي يقع في الاسر الصهيوني.. سبق أن وقع في الاسر الفرنجي الصليبي.

وفلسطين، التي تسعى التسويات الحالية المفروضة الى الاجهاز على الحق العربي الاسلامي فيها، سبق أن استعمرت استعماراً استيطانياً فرنجياً ومعها مناطق واسعة من الشام وقامت عليها للاغتصاب دول وإمارات.

والقاهرة، التي تسعى كل قوى البغي المعاصر الى عزلها عن دورها الطبيعي والريادي، في المحيطين القومي والاسلامي، سبق وأن حاصرها الفرنجة، بل وفرضوا عليها الاتاوات في لحظات الاستضعاف العربي الاسلامي، نافذين الى ذلك من ثغرات الصراعات الداخلية التي تفتت وتبدد الطاقات والامكانات.

لكن امتنا، لم تعرف الاستسلام أمام تلك التحديات.. ولم تضف الشرعية – حتى في لحظات الاستضعاف – على الأمر الواقع.. وانما حافظت على ارادة الصمود والمقاومة، ونهضت من خلف علمائها ومفكريها وقادتها، فغيرت الواقع الظالم، وطوت صفحة التحديات التي فرضها عليها الاعداء.

واليوم، وعلى امتداد ارض امتنا العربية والاسلامية، قد تحول واقعنا الى فصل جديد في كتاب التحديات:

* فالمتغيرات الدولية التي ازالت حدة التناقضات بين دول الشمال، قد زادت من حدة قوى الهيمنة الغربية المتغطرسة في مواجهة دول وأمم وحضارات الجنوب.

* وامتداداً للاطماع الامريكية والصهيونية في ثروات أمتنا وموقعها وامكاناتها، وباصرارها على اعتبار الاسلام عدواً، تسارعت وتتسارع الضغوط على النظم والحكومات العربية، لا لتكريس الواقع الظالم فحسب، وانما لاضفاء الشرعية عليه، وذلك بالتسويات التي تنهي الصراع العربي الصهيوني، دون استعادة الحدود الدنيا من هذه الحقوق.

* وزاد من سلبيات هذا الواقع الجديد اثر حرب الخليج الثانية في تفكيك وتجميد النظام العربي، ونهب للثروة، وتوجيه للطاقات الذاتية كي تُستنفذ في صراعات داخلية مفتعلة.. فأصبحنا أمة ينزع سلاحها، وتمنع من زراعة غذائها، وتفرض عليها التبعية الاقتصادية والثقافية والاعلامية للمركز الغربي بقيادة الولايات المتحدة وشريكها الصهيوني المعادي لنهوض امتنا ووجودها، وتنزع سيادة دولها عن ترابها الوطني، ويفرض الحصار والمقاطعة على الكثير من شعوبها.

* وبعد صمود نحو نصف قرن، رفضاً للاغتصاب الصهيوني في فلسطين، ومواجهة لخطر اسرائيل الكبرى، تتهاوى كثير من النظم والحكومات العربية، وتتسابق الى توقيع صكوك التفريط في الحق، بل وتفتح الابواب لاقامة نظام اقليمي – شرق أوسطي

يستبعد الهوية العربية والاسلامية، لتفتح ابوابه للدولة الصهيونية، التي تطمح – من خلاله – في أن تكون اسرائيل الاكبر – لا الكبرى – بعد هيمنتها الى ما وراء النيل والفرات.

* وعلى الجبهة الفكرية والسياسية، يرتسم للواقع البائس وجه غير مسبوق وذلك باتساع شرائح المثقفين والسياسيين القابلين والمنظرين والمستسلمين لهذا الذي يحدث، داعين الى التسليم بالواقع بل واضفاء المشروعية عليه، وكأنما «الواقعية» هي الرضا بالواقع البائس، وليست السعي الى تغيير هذا الواقع وتجاوزه بهدي الفكر الثاقب ومتابعة العمل الدائب، كما حدث عبر تاريخ الأمة.

لكن الأمة التي صهرتها المحن والتحديات عبر تاريخها الحضاري الطويل، والتي حافظت على وجودها وعلي تميزها الحضاري بالاستجابة الايجابية في مواجهة المخاطر التي هددت الهوية والوجود، كان لا بد لها، في مواجهة هذه المخاطر والتحديات الحالية، من استدعاء امضى اسلحة المقاومة في ترسانة نضالها ومن البحث في معدنها النفيس والاصيل عن اجود مكوناتها، فكان هذا التنادي والتداعي في صفوف وساحات فصائل تياري الاصالة والصمود والمقاومة في الأمة: القومي والاسلامي – والذين مثلت وتمثل منطلقاتهم الفكرية – العروبة والاسلام – طوق نجاة الأمة وجناحي اقلاعها الحضاري، اليوم وغداً كما كان الحال في تاريخها الطويل.

فكان أن اجتمع – في بيروت المقاومة والصمود – ما بين ١٠ – ٢٠ اكتوبر تشرين أول ١٩٩٤م – الموافق ٥ – ٧ من جمادي الأولى – ١٤١٥ هـ في اطار المؤتمر القومي – الاسلامي مائة وواحد من أهل الفكر والعلم والسياسة والفعاليات المهنية والحركية، من فصائل الفكر والمؤسسات والحركات الأكثر فعلاً في ساحة العمل القومي – الاسلامي ممثلين لأوسع قطاعات الأمة بدياناتها المعددة ومذاهبها المتنوعة وخصوصياتها اللغوية والثقافية.

ولقد تدارس المؤتمرون حال الأمة، في ضوء ورقتي عمل قدمتا رؤية اسلامية وأخرى قومية لهذا الحال، فتوجهوا الى شعوب العالم التواقة لأن تأمن من خوف، المحبة للخير، المتطلعة للسلام القائم على العدل، مؤكدين أن امتنا ستبقى ترفع شعار تعزيز التعارف بين الأمم وصولاً الى التعاون على البر والتقوى ومواجهة الطغيان بكل أشكاله واحترام حقوق الانسان الذي كرمه خالقه.

وتوجهوا لقوى النهوض في امتهم مستلهمين روحها وارادة جماهيرها وعبرة نضالها قائلين: «نحن أمة مواجهة خبرت صراع النفس الطويل لا تصبر على ضيم تدرك أن الزبد يذهب جفاءً وأن ما ينفع الناس يمكث في الأرض وهي على يقين من أن السلام لا يقوم إلاّ بالعدل وستبقى تجاهد لاستعادة حقوقها حتى تنتصر على العدوان وتفسح المجال للمستأمنين أن يأمنوا بعد أن ينبذوا العدوان وتقيم مشروعها الحضاري وتمد اليد للتعاون مع جميع الأمم علي البر والتقوى من موقع الندية» كما توجهوا لأهل الحكم في وطننا موضحين: «ان تحدي التلسط الخارجي علينا يوجهنا معاً شعوباً وحكومات فنحن ازاءه في سفينة واحدة، ولا بديل عن استنفار طاقات الأمة للتصدي له. وأن ما ينجم عن الوهن الداخلي من كوارث تصيبنا شعوباً وحكومات، ولا بديل عن معالجة أسباب هذا الوهن بفتح باب الحوار على مصراعيه بين جميع قوى الأمة، وباحترام الانسان، وبالالتزام بالمشاركة السياسية والتعددية والديمقراطية والشورى. فهذا هو سبيل الوصول الى توازن المجتمع واستقراره، ومن ثم الوصول الى تضامن عربي حقيقي في اطار نظام عربي فاعل».

وعبر التفاكر والتدارس والحوار، الجاد والموضوعي والصبور، ساد توافق، وترسخت قناعات، وبرزت توجهات كثيرة من أهمها:

* ان المجتمعين قد طووا الصفحة الماضية، في علاقاتهم، بما حوت من سلبيات وجراحات بعد أن تمثلوا عبرتها، فمواجهة التحديات المهددة لوجود الأمة وهويتها لا بد وأن تجب وتطوى كل ما يشغل عنها من صفحات.

* وان المجتمعين، وأن مثلوا تيارين فكريين وتوجهين في السياسة، إلاّ أن ما يجمع بينهما أكثر بكثير مما يميز، فعلاوة على الوحدة الجامعة لهما في مواجهة التحديات الراهنة، هناك العزم المشترك لديهما على التجدد الحضاري للأمة، وفقاً للنموذج الحضاري المتميز بالعروبة والاسلام كما أوضحت وأكدت الحوارات أنهم يلتقون في مجال القضايا الكبرى للأمة.

* وإذا كان التطابق الفكري التام مستحيل التحقيق، حتى

داخل التيار الواحد – قومياً عربياً كان أو اسلامياً – لأن السنة والقاعدة هي التنوع والاختلاف.. فلقد توافق المؤتمرون على أن الفهم المشترك، وتنمية التعرف على ادبياتهما والتحلي بآداب الحوار والاختلاف، سيفتح أبواباً واسعة لتنمية مساحة المشترك بينهما، وتقليص عوامل الاختلاف، الأمر الذي سيزيد من طاقات العمل المشترك بينهما في مواجهة التحديات.

* بل لقد أسفر بعض حوارات اللقاء عن اشارات الى معالم منهاج يمكن أن يزيل من ساحة اللقاء بين القوميين والاسلاميين الغاماً فكرية قد زرعت في حياتنا فاستنفذت الطاقات في صراعات داخلية وذلك إذا ما تم تحرير مضامين المصطلحات، وتحرير ثقافتنا العربية الاسلامية، من اسر بعض المصطلحات الوافدة الموهمة بعكس ما نؤمن به ونعنيه، واختيار المصطلح العربي الأدق تعبيراً عن ما نريد وهو منهاج وإن لم ينه الاختلاف، فإنه يزيل حدته، ويحول بينه وبين أن يصبح عقبة في سبيل الالتقاء.. بل أنه كفيل بفتح الابواب لتنمية مساحات الوفاق الفكري، ومن ثم تعظيم طاقات العمل المشترك بين التيارين في مواجهة التحديات.

ولقد أكد المؤتمرون – من القوميين والاسلاميين – في المؤتمر القومي الاسلامي.. أنهم ليسوا بإزاء ندوة فكرية، أو لقاء سياسي ينتهي بمجرد اصدار بيان وصياغة توصيات.. وإنما هم يؤسسون منبراً وإطاراً لعمل مشترك دائم لتغيير الواقع الظالم والبائس الذي يفرض على الأمة في هذه السنوات. وأن لقاء تياري الاصالة العربية الاسلامية على هذا العمل المشترك هو طوق نجاة الأمة مما يدبر لها ويحيط بها.. أنه لقاء تاريخي.. يتطلعون فيه الى عون الله ونصره والى الأمة التي شرفها الله بأرض رسالاته السماوية، وبحمل رسالته الخاتمة الى العالمين. وصدق الله العظيم إذ يقول **﴿يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾** (محمد:٧).

وانطلاقا من هذا الموقف التاريخي فقد قرر المؤتمرون ما يلي:

١– رفض التسويات المطروحة لانهاء الصراع العربي الصهيوني واغلاق ملف القضية الفلسطينية على نحو يهدر حقوق شعب فلسطين ويهدد الأمة العربية، ومتابعة النضال لتحقيق هدف تحرير فلسطين والجولان وجنوب لبنان.

٢– دعم الانتفاضة المجاهدة في فلسطين والمقاومة الباسلة في لبنان.

٣– رفض التطبيع مع العدو الصهيوني تحت أي صورة وفي أي مجال، وإدانة الخطوات التي تمت لاختراق المقاطعة لاسرائيل.

٤– رفض الوجود الاجنبي واشكال الهيمنة الاجنبية كافة.

٥– متابعة النضال والجهاد والكفاح لتحقيق هدف الوحدة العربية، والعمل لإيجاد الحقائق الوحدوية على أرض الواقع في وطننا العربي الكبير، بما ينعكس على الحياة اليومية لأبناء امتنا إقامة وتنقلاً وعملاً في نطاق التعبير عن مبدأ «المواطنة العربية».

٦– الدعوة الى مصالحة عربية شاملة تبدأ بمصالحة بين الحكومات العربية وشعوبها والانتقال مباشرة الى تفعيل واحياء مؤسسات العمل العربي المشترك، التي هي قوام نهوض النظام العربي في مواجهة مخططات الهيمنة التي تستهدف الدولة العربية بقدر ما تستهدف الأمة، وعلى طريق تحقيق هدف الوحدة العربية.

٧– المطالبة بالرفع الفوري للحصار عن العراق بشكل كامل وكلي. وبدون قيد أو شرط، ودعوة جامعة الدول العربية والحكومات العربية كافة، لبذل الجهود عربياً ودولياً لوضع حد لهذا الحصار. وفتح الحدود العربية مع العراق، وتزويد الشعب العراقي بكل الأدوية والأغذية التي يحتاجها لحين رفع الحصار الشامل، والعمل على استعادة العراق الى الأمة العربية ليقوم بدوره القومي..وكذا رفع الحصار المفروض على بلدان الأمة العربية الآخرى وفي مقدمتها ليبيا والسودان.

٨– دعوة الحكومة العراقية الى العمل على إيجاد حل نهائي لمسألة «الأسرى والمفقودين الكويتيين».

٩– التمسك بالوحدة الوطنية في مواجهة محاولات التفتيت والتفكيك، واعتماد الشورى منهاجاً لتبادل الرأي وتحديد سبل العمل والتعددية قاعدة والديمقراطية آلية للعمل السياسي والحوار وسيلة لإدارة الخلاف السياسي.

١٠– التأكيد على حق كل القوى السياسية في مباشرة العمل العام في ظل الشرعية الدستورية، والمشروعية القانونية.

١١– إدانة كل انتهاك للحريات وحقوق الانسان والعمل على الغاء القوانين الاستثنائية في الوطن العربي، وضرورة الافراج عن

المعتقلين السياسيين، وتسهيل عودة المنفيين والمغتربين والمختطفين والمجاهدين.

١٢- طرح قضية المدنيين المحتجزين والمعتقلين الإداريين في السجون الاسرائيلية على الرأي العام العالمي وفضح الممارسات الصهيونية العنصرية ودعوة المعنيين بحقوق الانسان الى الاسهام في ذلك.

١٣- التأكيد على خطورة سياسة الخصخصة، وكذا خطورة انهاء دور الدولة في تأمين التنمية الداخلية، والخضوع لسياسة المؤسسات المالية والاقتصادية الدولية واعتبار هذه السياسات من وجوه التبعية التي يراد أن تدفع أمتنا اليه، وتنبيه الرأي العام العربي، وصناع القرار في الوطن العربي الى مخاطر نظام الشرق الأوسط وسوقه على مختلف جوانب الحياة العربية واقتصاديات الدول العربية، واستنفار الطاقات العربية لإنجاح السوق العربية المشتركة.

١٤- يستنكر المؤتمر حملات الإبادة التي تستهدف شعبي البوسنة والهرسك ويؤكد على حقهما في الدفاع عن النفس وضرورة رفع الحصار المضروب عليهما للتزود بالسلاح وشرائه.

١٥- العمل على توثيق العلاقات بين الأمة العربية وشعوب الدائرة الحضارية العربية الاسلامية انطلاقاً من حقيقة أن النهوض العربي متكامل مع نهوض العالم الاسلامي، والدعوة الى استنفار طاقاتنا العربية والاسلامية لمتابعة تحقيق تجددنا الحضاري والاسهام في عمران عالمنا.

المهام المرحلية

فيما يرى المؤتمرون أن الخطوة التي تمت تمثل لحظة تاريخية مهمة، ينبغي أن تستثمر لصالح دفع مسيرة العمل الوطني في الأمة العربية، فإنهم يدعون الى اتخاذ مجموعتين من الاجراءات، احداهما تتعلق بالتفاعل الفكري بينهما، والثانية تنصب على العمل المشترك في المجال السياسي.

على صعيد التفاعل الفكري، فإن المؤتمر يوصي بما يأتي:

١- السعي الى تنظيم سلسلة من الندوات والحوارات على المستوى القومي بين الطرفين حول القضايا الفكرية التي تهمهما، وفي مقدمتها صياغة المشروع النهضوي القومي الاسلامي بجميع ابعاده الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية والاعلامية

٢- السعي لتنظيم حوارات على المستوى القطري بين الطرفين للخروج بتصورات مشتركة منبثقة من حاجات المواجهة للتحديات المطروحة في كل قطر.

٣- بذل كل الجهود للإرتقاء بمستوى الخطاب، خاصة في أجهزة الإعلام، مما يساعد على دفع الحوار وإثرائه، وتركيزه على القضايا والمصالح الأساسية للأمة. مع العمل على فتح المنابر الاعلامية المتوافرة للطرفين، من أجل الاسهام في مزيد من التفاعل الفكري بينهما.

وعلى صعيد العمل السياسي فإن المؤتمر يوصي بما يأتي:

١- إعادة بناء وهيكلة مؤسسات مواجهة التطبيع في ضوء الظروف المستجدة، مع توسيع نطاق المشاركة فيها من قبل القوى الوطنية السياسية والنقابية المناهضة للتطبيع كافة، وتعزيز المقاطعة الشعبية للسلع والمنتجات وجميع صور التعاون الثقافي مع العدو الصهيوني، وإدانة المؤسسات أو الأشخاص التي تمارس التطبيع بأشكاله كافة على مستوى الوطن العربي.

٢- بناء مؤسسات لجمع ونشر المعلومات المتعلقة بمدى التغلغل الصهيوني في مختلف المجالات الاقتصادية والأكاديمية والثقافية في البلاد العربية، وكشف مخاطرها دعماً للحملة المواجهة للتطبيع.

٣- احياء لجان مناصرة المقاومة الفلسطينية واللبنانية وتعميمها في جميع البلاد العربية وتقويتها بالسبل المتاحة كافة.

٤- العمل المشترك بين الباحثين في التيارين على اصدار سلسلة من الدراسات حول المشروعات المقترحة للسوق شرق الأوسطية واضرارها المباشرة على الاقتصاد العربي وعلى مستقبل التعاون بين البلدان العربية، مع اقتراح السياسات البديلة لتفعيل آليات العمل العربي المشترك.

٥- تكليف لجنة المتابعة المنبثقة عن المؤتمر لتنسيق الجهود الرامية الى رفع الحصار عن الشعوب العربية واطلاق سراح المعتقلين السياسيين والمحتجزين في السجون العربية، وتسهيل عودة المنفيين، ورفع الحصار عن المحاصرين.

٦- التنسيق بين فصائل التيارين بالتعاون مع منظمات حقوق الانسان من اتخاذ المواقف الواضحة من جميع الانتهاكات التي

تمس الحريات العامة وحقوق الانسان في أرجاء الوطن العربي.

٧- دعوة التيارين القومي والاسلامي الى التعاون والتنسيق في تعزيز الصف الوطني، وبخاصة في مجالات الانتخابات المحلية والتشريعية والنقابية.

٨- تكليف لجنة المتابعة بالسعي لدعم الحوار بين الحركة الاسلامية والدولة في أكثر من قطر عربي وخاصة في القطر الجزائري.

أن المؤتمر القومي - الاسلامي إذ يختتم مداولاته في عاصمة الصمود، بيروت، ليعرب عن تقديره وشكره للشعب اللبناني بكل فئاته وهيئاته، وللحكومة اللبنانية الموقرة على تسهيل عقد هذا المؤتمر الحاشد، كما يعرب عن شكره لوسائل الاعلام اللبنانية على ما أولته للمؤتمر من عناية واهتمام، ويسأل المولى عز وجل أن يكلل جهود الشعب اللبناني وحكومته بالنجاح في إعادة بناء لبنان الموحد الآمن المزدهر طليعة للتقدم في أمته.



السيرة العلمية لمؤرخين عرب

الاسم الثلاثي واللقب: الدكتورة فاطمة هدى محمد أديب نجا

الدرجة العلمية: استاذ مساعد «الجامعة اللبنانية» كلية الآداب – قسم التاريخ – الفرع الثالث.

الاختصاص:

١– الاختصاص العام: تاريخ اسلامي

٢– الاختصاص الدقيق: تأريخ عربي، تاريخ الإسلام العام، حضارة عربية.

الجامعة التي تخرج فيها: جامعة القديس يوسف «اليسوعية»

سنة التخرج: ١٩٧٠.

عنوان رسالة الماجستير: سكينة بنت الحسين [الجامعة اللبنانية].

عنوان رسالة الدكتوراه: الكوفة في القرن الأول الهجري [الجامعة اليسوعية].

الجامعة التي يدرس فيها حالياً أو محل العمل: كلية الآداب – قسم التاريخ، الجامعة اللبنانية – الفرع الثالث

رقم الهاتف في الجامعة التي يدرس فيها أو محل العمل:

العنوان الثابت للمراسلة: أبي سمراء – بناية سعيد بقسماطي، طرابلس – لبنان.

رقم الهاتف الثابت للاتصال: ٦٢٦٧٧٦.

عنوان السكن ورقم الهاتف: أبي سمراء – بناية سعيد بقسماطي، طرابلس – لبنان.

ملاحظات الأمانة العامة

النشاط العلمي

أبحاث علمية منها:

١– الغرر في سير المؤرخين واخبارهم.

٢– طع من حضارتنا العربية العالمية في العصور الوسطى.

٣– دروس في السيرة النبوية الشريفة.

٤– المستشرقون والمرأة المسلمة.

٥– المشرق العربي منذ ضعف الخلافة العباسية حتى ظهور الخلافة العثمانية.

٦– نور الإسلام وأباطيل الاستشراق.

المراكز العلمية التي تبوأها

١– أستاذ مساعد في الجامعة اللبنانية كلية الآداب – الفرع الثالث – قسم التاريخ.

٢– المؤتمرات التاريخية التي شارك فيها الباحث

– المؤتمر التربوي الإسلامي الأول أيار ١٩٩١ طرابلس.

– المؤتمر التربوي الإسلامي الثاني تموز ١٩٩٣ طرابلس.

٣– الجوائز العلمية والثقافية التي حصل عليها

٤– الكتب المستقلة التي نشرها أو حققها

١– الغرر في سير المؤرخين وأخبارهم.

٢– طع في حضارتنا العربية العالمية في العصور الوسطى.

٣– دروس من السيرة النبوية الشريفة.

٤– المستشرقون والمرأة المسلمة.

٥– المشرق العربي منذ ضعف الخلافة العباسية حتى ظهور الخلافة العثمانية.

٦– نور الإسلام وأباطيل الاستشراق.

٥– الكتب المترجمة التي نقلها الى العربية أو أشرف على ترجمتها.

٦– الكتب المشتركة التي ساهم في نشرها.

أ.د لطفي عبدالوهاب يحيى

الميلاد: ٢٥/١١/ ١٩٢٥م في محافظة المنوفية – مصر

١- الخبرة العلمية:

أ- التدرج العلمي والوظيفي

- ليسانس الآداب من قسم التاريخ في جامعة الاسكندرية، ١٩٤٥.
- دكتوراه الفلسفة في التاريخ القديم من جامعة لندن، ١٩٥٣.
- مدرس التاريخ القديم في جامعة الاسكندرية، ١٩٥٣.
- أستاذ مساعد الحضارة اليونانية الرومانية في جامعة الاسكندرية، ١٩٦١.
- استاذ الحضارة اليونانية الرومانية في جامعة الاسكندرية، ١٩٦٨.

ب- جامعات عمل بها الي جانب جامعة الاسكندرية

- جامعة بيروت العربية: أستاذ مساعد ثم استاذ التاريخ القديم والحضارة اليونانية الرومانية وتاريخ العرب القديم، ١٩٦٢ – ١٩٦٥ و ١٩٧٨ – ١٩٨٠.
- جامعة بغداد: أستاذ التاريخ القديم والحضارة اليونانية الرومانية ١٩٧٥ – ١٩٧٧.
- جامعة اليرموك (الاردن): أستاذ التايخ القديم والحضارة اليونانية الرومانية وتاريخ العرب القديم، ١٩٨٥حتى ١٩٩٢.

٢- مواقع أكاديمية

- مقرر اللجنة العلمية الدائمة لترقية الاساتذة المساعدين في تخصص الدراسات الكلاسيكية (اليونانية واللاتينية) بالجامعات المصرية، ١٩٧٢ – ١٩٧٤.
- مقرر اللجنتين العلميتين الدائمتين لترقية الأساتذة المساعدين ولترقية الاساتذة في تخصص الدراسات الكلاسيكية بالجامعات المصرية ١٩٨٠ – ١٩٨١.
- مقرر اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة في تخصص التاريخ بالجامعات المصرية ١٩٨١ – ١٩٨٥.

٢- مواقع إدارية

- رئيس قسم التاريخ في جامعة بيروت العربية، ١٩٦٢ – ١٩٦٥ و ١٩٧٨ – ١٩٨٠.
- رئيس قسم الحضارة في جامعة الاسكندرية، ١٩٦٨ – ١٩٧٤ و ١٩٨٠ – ١٩٨٢.
- وكيل كلية الآداب لشئون الطلاب وأعضاء هيئة التدريس بجامعة الاسكندرية ١٩٧٤ – ١٩٧٥.

٢- الجمعيات العلمية المشترك بها

- إتحاد المؤرخين العرب، بغداد.
- الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة.
- الجمعية المصرية للدراسات البردية، القاهرة.
- الجمعية الأثرية، الاسكندرية.
- المجلس الدولي لدراسات هوميروس International Homeric Council، أثينا (اليونان).

٢- المؤتمرات التاريخية التي شارك فيها

- مؤتمر دراسات هوميروس (أثنيا اليونان) ندوات في أعوام ١٩٧١، ١٩٧٢، ١٩٧٣، ١٩٧٦.
- الندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية (الرياض – المملكة العربية السعودية) ١٩٧٧.
- الندوة العالمية الثانية لدراسات تاريخ الجزيرة العربية (الرياض – المملكة العربية السعودية) ١٩٧٩.
- المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام (عمان الاردن) ندوات في أعوام ١٩٨٤ و ١٩٨٥ و ١٩٨٧.

٢- الأعمال العلمية المنشورة

أ- كتب (التاريخ المذكور هو تاريخ الطبعة الأولى)

١- مقدمة لحضارة الاسكندرية: دراسة في حضارة البحر المتوسط، مركز التعاون الجامعي للنشر والتوزيع، الاسكندرية، ١٩٥٩.

٢- الكيان العربي بين المقومات والإمكانيات، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٥.

- ملامح المجتمع القومي: دراسة في العالم العربي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٦.

٤- الديمقراطية الأثينية: دراسة في النظام الشعبي، مركز التعاون الجامعي للنشر والتوزيع، الاسكندرية، ١٩٦٧.

٥- هوميروس: تاريخ حياة عصر، مركز التعاون الجامعي للنشر

والتوزيع، الاسكندرية، ١٩٦٧.

٦- دراسات في حضارة اليونان والرومان، مركز التعاون الجامعي للنشر والتوزيع، الاسكندرية، ١٩٦٨.

٧- دراسات في العصر الهلنستي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٨.

٨- العرب في العصور القديمة: مدخل حضاري في تاريخ العرب قبل الاسلام، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٨.

٩- اليونان: مقدمة في التاريخ الحضاري، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٩.

ب- أبحاث ظهرت في اللغة العربية

١- مجمتع الاسكندرية في العصر الروماني، ظهر ضمن مجموعة أبحاث تحت عنوان «مجتمع الاسكندر عبر العصور». منشورات جامعة الاسكندرية، ١٩٧٥.

٢- الجزيرة العربية في المصادر الكلاسيكية، ظهر ضمن مجموعة أبحاث تحت عنوان «دراسات تاريخ الجزيرة العربية». الكتاب الأول، الجزء الأول، منشورات جامعة الرياض، ١٩٧٩.

٣- الوضع السياسي في شبه الجزيرة العربية حتى القرن الأول الميلادي، ظهر ضمن «دراسات تاريخ الجزيرة العربية» الكتاب الثاني، منشورات جامعة الرياض، ١٩٨٤.

٤- بعض المصادر البيزنطية لتاريخ سورية في العصر البيزنطي، ظهر ضمن مجموعة أبحاث تحت عنوان «بلاد الشام في العصر البيزنطي». منشورات الجامعة الاردنية - جامعة اليرموك، عمّان ١٩٨٦.

٥- الاسطورة والحضارة والمسرح في مأساة «أوديب ملكا» مجلة «عالم الفكر» المجلد ١٦، العدد ٣، الكويت، ١٩٨٥.

٦- الحقيقة التاريخية، مجلة «عالم الفكر»، المجلد ١٧، العدد ٤، ١٩٨٧، الكويت.

٧- استقبال بلاد الشام للفتح العربي: الخلفية الثقافية، ظهر ضمن مجموعة أبحاث تحت عنوان «بلاد الشام في صدر الاسلام» متشورات الجامعة الاردنية - جامعة اليرموك، عمان ١٩٨٧.

٨- حولية ثيوفانيس: مصدر بيزنطي عن بلاد الشام في العصر الأموي، منشورات الجامعة الاردنية - جامعة اليرموك، عمّان ١٩٨٩.

ج- أبحاث ظهرت في اللغة الانجليزية

1- The Rating of the Athenian Property Tax, A study in Greek Public Economy, Bulletin of the Faculty of Arts , Ain- Shams University, Cairo, 1957.

2- The Athenian Ephebeia. Proceedings of the African Classical Association, Cape Town, 1968.

3- On the Question of the Alexandrian Senate in Ptolematic Egypt. Bulletin of the Faculty of Arts. Alexandria University , Alexandria, 1964.

4- On the Question of the Athenian Theatre Fund. Archoeological Society of Alexandria, 1968.

5- Homer and Egypt. Bulletin of the Internatioal Society for Homeric Studies, Athens, 1970.

6- From Homer to Hesiod. Archaeological Society of Alexandria, 1971.

7- Myths on the Conception of Life between Mesopotamia and Homeric Greece. The Arab Historian, Journal of Arab Historians (Issued by The Union of Arab Historians) Baghdad, 1948.

الاستاذ عبد الوهاب بن منصور

- ولد بفاس عام ١٩٢٠.
- تلقى بفاس دراسته بالمدارس الحرة وبجامعة القرويين وحصل على شهادة العالمية من جامعة القرويين سنة ١٩٦١ في العلوم الأدبية والقانونية.
- شارك في الحركة الوطنية واعتقل للمرة الأولى سنة ١٩٣٦ وهو في سن السادسة عشرة.
- غادر المغرب في أعقاب الحرب العالمية الثانية الى الجزائر وفرنسا وبلجيكا، وعمل مع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مديراً في مدارسها وكاتباً في جرائدها.
- عين استاذاً بمدارس محمد الخامس بالرباط ومدرسة النهضة بسلا ونائباً لمدير الإذاعة الوطنية.
- عضواً في الديوان الملكي للملك محمد الخامس ورئيساً للقسم السياسي.
- رئيس الديوان الملكي للملك الحسن الثاني.
- مدير الشؤون السياسية بوزارة الداخلية سنة ١٩٦٣.
- مدير عام الإذاعة والتلفزيون سنة ١٩٦٥.
- مؤرخ المملكة ومدير الوثائق الملكية سنة ١٩٧٥.
- وزير بالديوان الملكي سنة ١٩٨٣.
- شارك في الأعمال الأدبية، ونشر أولى مقالاته وأشعاره في سن الرابعة عشرة، ونشر أول كتاب له في سن السابعة عشرة.
- شارك في عديد من المؤتمرات والندوات الوطنية والدولية سياسية وثقافية، ورافقه الملك محمد الخامس والملك الحسن الثاني في جميع أسفارهما الداخلية والخارجية.
- وهو رئيس اللجنة العليا للحالة المدنية، وعضو في المجلس الأعلى للتخطيط، واللجنة الوطنية للحدود وأستاذ بالمعهد الملكي وعضو بأكاديمية المملكة المغربية.

الأوسمة الوطنية والأجنبية:

- وسام العرش من درجة ضابط.
- وسام أكاديمية المملكة المغربية.
- وسام الجمهورية التونسية من الدرجة الثانية.
- وسام الاستحقاق المصري من الدرجة الأولى.
- وسام الاستقلال الاردني من الدرجة الثانية.
- وسام الاستحقاق السينغالي.
- وأوسمة إيرانية ولبنانية وعراقية وبلغارية وغيرها.
- وسام الملكة فيكتوريا الانجليزي.

من أعماله العلمية:

- البدائع - سلا ١٩٣٨.
- المنتخب النفيس، من شعر أبي عبدالله ابن خميس.
- رسائل أبي القاسم القالمي - ١٩٥١.
- ديوان الأمير عبد القادر.
- الأردن ملك وشعب.
- قبائل المغرب (حاز هذا الكتاب على جائزة المغرب سنة ١٩٦٨).
- الحسن الثاني حياته وجهاده ومنجزاته - ١٩٧٢ (جائزة المغرب).
- مناقب أهل الصحراء.
- أعلام المغرب العربي في ٤ أجزاء.
- كشاف أسماء الأسر المغربية.
- مع جلالة الملك الحسن الثاني في باريس.
- مع جلالة الملك الحسن الثاني في فاس وتازة ووجدة وتلمسان.
- مع جلالة الملك الحسن الثاني في نيروبي وجدة ومكة.
- مع الملك الحسن الثاني في حاضرة الفاتيكان.
- مع الملك الحسن الثاني في نواذيبو.
- مع وفد المملكة المغربية في القمة الاسلامية الخامسة بالكويت.
- الحماية القنصلية.
- عرائس التهاني.
- ملف الصحراء المغربية الغربية.
- الرحلة الملكية الى بريطانيا.
- التحفة السنية، بالرحلة الملكية الحسنية، الى العاصمة الجزائرية.
- الحسبة.
- انبعاث أمة - ٣٣ جزء.
- الوثائق - ٥ مجموعات.
- تعقيبات حول السياسة الاستعمارية بشمال أفريقيا.

من تحقيقاته:

- الإعلام بمن حل مراكش واغمات من الاعلام - ١٠ أجزاء.
- اختصار الاخبار.
- بلغة الأمنية.
- أخبار المهدي بن تومرت.
- الذخيرة السنية في أخبار الدولة المرينية.
- الأنيس المطرب بروض القرطاس.
- المقتبس من كتاب الانساب في معرفة الاصحاب.
- جذوة الاقتباس جزآن.
- بيوتات فاس الكبرى.
- مثلى الطريقة، في ذم الوثيقة.
- تقييد ما اشتمل عليه اقليم توات.
- روض النسرين، في أخبار ملوك بني مرين.
- روضة التعريف، بمناقب مولاي اسماعيل بن الشريف.
- نظم السلوك، في الانبياء والخلفاء والملوك.
- عروسة المُسائل، عَمّا لبني وطاس من الفضائل.
- التحفة السنية، المرفوعة الى الحضرة الحسنية، بالمملكة الاسبنيولية.
- نشر ازاهر البستان، فيمن اجازني بالجزائر وتطوان.
- الروض الهنون في أخبار مكناسة الزيتون.

كتب ساعد في إعادة طبعها.

- صلحاء الريف.
- ايليغ قديماً وحديثاً.

من أعماله الصحفية

- مجلة العبقرية.
- مصور الانبعاث.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



JOURNAL OF ARAB HISTORIANS



Office of the general secretary

Iraq - Baghdad - P.O. Box 4075
Cable : MOARKHEEN Baghdad